عباس محمود العقاد

إبليس

دار الهلال

عباس محمود العقاد

إبليس

دار الهلال

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة
الفنان حلمى التونى

عباس محمود العقاد



دار الهلال

فاتحة خير

يوم عرف الانسان الشيطان كانت فاتحة خير

وهى كلمة رائقة معجبة ، تروع المسامع وتستحق فى بعض الأذواق أن تقال ولو تسامح القائلون والسامعون فى بعض الحقيقة طلبا لبلاغة المجاز

ولكنها فى الواقع هى الحقيقة فى بساطتها الصادقة التى لا مجاز فى لفظهـا ولا فى معناها ، ولا تسامح فى مدلولها عند سامع ولا قائل ، بل هى من قبيل الحقائق الرياضية التى تثبت بكل برهان ، وتقوم الشواهد عليها فى كل مكان

فقد كانت معرفة الشيطان فاتحة التمييز بين الخير والشر ، ولم يكن بين الخير والشر من تمييز قبـل أن يعرف الشيطان بصفاته وأعماله وضروب قدرته وخفايا مقاصده ونياته

كان ظلام لا تمييز فيه بين طيب وخبيث ، ولا بين حسن وقبيح ، فلما ميز الانسان النور عرف الظلام ، ولما استطاع ادراك الصباح استطاع أن يعارضه بالليل ، وبالمساء ..

كانت الدنيـا أهلا لكل عمل يصدر منها ، ولم يكن

بين اعمالها الحسان واعمالها القباح من فارق الا ان هذا يسر وهذا يسوء ، والا ان هذا يؤمن وهذا يخاف . اما ان هذا جائز وهذا غير جائز فى ميزان الأخلاق فلم يكن له مدلول فى الـكلام ، ولم يكن له — من باب أولى — مدلول فى الذهن والوجدان

وكانت القدرة هى كل شيء

فلما عرف الانسان كيف يذم القدرة ويعيبها عرف القدرة التى تجمل بالرب المعبود ، والقدرة التى لا تنسب اليه ولكنها تنسب الى ضده ونقيضه

وهو الشيطان

وكانت فاتحة خير لا شك فيه

كانت فاتحة خير بغير مجاز وبغير تسامح فى التعبير

وكانت للانسان عين يعرف بها الظلام ، لأنها عرفت النور وخرجت من غيابة الظلمات التى كانت مطبقة عليه

فتاريخ الانسان فى أخلاقه الحية لا ينفصل من تاريخ الشيطان ..

واوله هذا التمييز بين الخير والشر

ولكنه الاول فى طريق طويل لم يبلغ نهاية مطافه

فبعد التمييز بين الخير والشر خطوة اخرى الزم من تلك الخطوة الأولى فى تاريخ الاخلاق الحية

وتلك هى معرفة الخير فى الصميم

فقد كان على الانسان أن يعرف حقيقة الخير ليعمله على علم وبصيرة

فليس الخير خلوا من الشر وكفى
وليس الخير ابتعادا من الشر وكفى
وليس الخير عجزا عن الشر وكفى
وليس الخير مخالفة للشر وكفى

كلا ، بل الخير شيء قائم بذاته وليس قصاراه أنه امتناع من شيء سواه

الخير هو القدرة على الحسن مع القدرة على القبيح ، وهو الاختيار المطلوب بعد التمييز بين القدرتين

ولهذا عرفنا من تاريخ الشيطان انه سقط لأنه انف من تفضيل آدم عليه وعلى الجان والملائكة اجمعين

وانما فضل آدم عليه لأنه عرضة للخير والشر ، ولأنه مطالب بالخيرات وهو ممتحن بالشرور

فضل على الملائكة الذين لا يصنعون الشر لأنهم بمنجاة من غوايته ، وفضل على الجان الذين لا يختارون بين نقيضين ..

ومن تلك الآونة عرفت وظيفة الشيطان فى هذا العالم وعرفت معها فضيلة الانسان

فانما وظيفة الشيطان أن يثبت عجز الانسان امام الغواية والفتنة ، وأن يمتحن مشيئته وهو يتردد بين الخير والشر والمباح والحرام

وانما فضيلة الانسان أن يصنع خيرا وللشر عنده غواية وله فى نفسه فتنة ، ولولا ذلك لما كان له فضل على الملائكة ولا على الجان

لا جرم كان تاريخ الشيطان تاريخا للأخلاق الحية فى وجدان آدم وبنيه

وتمتحن الأخلاق الحية بمحنة المعرفة والجهل كما تمتحن بمحنة الخير والشر والفضيلة والرذيلة

فمهما نتخيل من مخلوق قابل لان يعرف بعد جهل ويدرك بعد قصور فليس ـ غير الانسان ـ مصداق لذلك المخلوق

ليست الملائكة ولا الجان فى صورتها الحية مخلوقات

نامية فى معرفتها ، عالمة ما تعلمه بعد جهله ، متقدمة من الطفولة الى الرشد الى غاية المدى المقدور لكل مخلوق

ولكنها فى صورتها تعلم ما تعلمه كأنه من خصائص معدنها التى لا تفارقها ، فلا اجتهاد لها فيما تعلم ولا فوات على اجتهادها فيما تجهل ، وكل ما أوتيته من علم فلا حيلة لها ولا حول فيه ، كلمعان النور ووهجان النار ، ولألاء الجوهر الصافى وجريان الماء وخفقان الهواء

ولا كذلك سليل التراب . انه ليعلم حتى لتعجب كيف علم ، وانه ليجهـــل حتى لتعجب كيف جهل ، ومن كان قابلا لأن يأتى بالعجب فى علمه وجهله فهو مسئول عن هذا وذاك

« واذا قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال انى أعلم ما لا تعلمون

« وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين

« قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنــــا انك أنت العليم الحكيم

« قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلمـا أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والارض وأعـلم ما تبدون وما كنتم تكتمون .

« واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين »

فليست القـــداسة أن تكون نورا وأنت نور ، وليس الفخار أن تكون نارا وأنت نار

وانما القداســـة والفخار أن تكون نورا ونارا وأنت تراب ، وأن تسبح وتقدس وأنت قادر على الفسادوالعدوان

وكلما ذكرت الأخلاق الحية فقد ذكر تاريخ الشيطان

فى ثوب الحيـــاة ، وقد ذكر تاريخ الغواية والحرية فى المطاوعة والاعتصام ، وتلك هى الأخلاق الحية كما تعيش فى اللحم والدم وفى القيم والمزايا . فأما الأخـــلاق فى صفحات الورق وفى مصطلحات الباحثين فهى كلمـات وجروف وأصداء

ولم يوجد النوع البشرى بصفـاته وأخلاقه ليكتبها سطورا على صفحات ، ويجمعها أطروحة فى قاعة درس أو سفرا على الرف الى جانب أسفار

ولـكنه وجد بصفاته وأخلاقه ليحياها ويعيش بين حقائقها ويعطيها الاسماء التى تدله على تلك الحقـــائق كما يستقبلها بحسه وشعوره ويواجهها برجائه وخوفه ، وباقباله ونفوره ، وينادى بالاسم من هذه الأسماء فلا يفهمه كما تفهم الكلمة عند المراجعة فى القواميس ، بل يفهمها حبا وبغضا ، وغبطة وندما ، ورضوانا وسخطا ، وحركة تنبض بها العروق ، وسرا يختلج فى الأعماق

وهكذا ينطبع الحى على صـــفاته وأخلاقه . وهكذا تتعارف عليها الأمم وهى تحيا وتعتلج بالحياة ، وهكذا تضطرب بين الأكوان التى لا تحصرها الأوراق ولا تحدها الحروف ولا تحتويها العقول ، بل تجىء العقول طارئا عليها وضيفا فى رحابها ، وقد مضى عليها فى مكانها أدهار بعد أدهار ، وأسماء بعد أسماء ، ولغات بعد لغات .. الشيطان !

اى مجموعة من الأسفار تؤدى للضمير ما تؤديه هذه الـكلمة بقارعة واحدة تنفذ من الآذان الى الأعماق

والى اليوم يكتب البـــاحثون ألف مذهب ومذهب ، ويلحقـــون بهـــا ألف « لوجى ولوجى » على غـــرار السيكولوجى ، والبيولوجى ، والميثولوجى ، وغيرها من

اللواحق فى الأواخر على اختلاف الصيغ واللغات الى اليوم يفرقون بين الصـــفات والأخـــلاق بهذه المصطلحات فلا يبلغون بهـــا فى الحس ولا فى الذهن ما بلغـــه المتكلمون بلغـــة الحياة ولغـــة الفطرة ولغة « الهيروغليفية » التى تسبق كل كتابة وتلحق بكل كتابة الى آخر الزمان ..

وقد سمعنا عن الصفات الالهية ، والصفات الملكية ، والصفات الشيطانية ، والصفات الانسانية ، والصفات البهيمية ، والصفـات السبعية ، فمن لم يفهم هـذه العناوين بمدلولاتها الحية فما هو بفاهم شيئا من فوارق الأخلاق يشرحها له الف عالم ويسجلها له الف كتاب

ولمن شاء أن يرفع هذه الـكلمات ويضع فى مواضعها كلمات الاصطلاح اللغوى او الفلسفى من قبيل الأخلاق المثالية والاخلاق الاجتماعية والاخلاق النفعيـــة وأخلاق التقدميين وأخلاق المحافظين ، وما اشبه هذه الكلمات والمصطلحات ، فانه لا يحس منها الا انها بطاقات معلقة على وجهات أو شواخص لا نبض فيها ولا دم ولا حراك

ولـكنه لأول وهلة يسمع الصفات الالهية فيفهم انها اعلى الصفات ويحس أنه يرتفع بالاتجاه اليها والرجاء فيها الى أعلى عليين ، ويستشرف لها بقلبه ويتفتح لها بمغاليق سريرته ، ويعرفها حقيقة حية ولا يكون قصاراه من معرفتها أنها مادة فى معجم أو عنـــوان على مذهب أو اشارة مرور الى حيث يسير أو لا يسير

ولأول وهلة يسمع الصفات الملكية أو صفات الملائكة فيفهم أنها الطيبة والطهارة والحب والسلامة ، ويقابلها فى الوقت نفسه بالحنين اليها لسلامتها ووداعتها والعطف عليها لخفاء الشرعليها واحتجاب أساليب الكيد والخداع عنها

ولأول وهلة يسمع الصفات الانسانية فيعرف منها

ما يناقض البهيمية والسبعية ويقابل الالهية والملكية ، ويعرف فى الوقت نفسه ان الانسان قابل للطموح الى ما يعلو عليه والهبوط الى ما ينحدر دونه من صفات الكائنات جمعاء

ولأول وهلة يسمع الصفات الشيطانية فيفهم انه فى موقف احتراس وحذر وان لم يخل من تطلع فى احيان ومن اعجاب فى أحيان اخرى ، ولا يضطر الى مراجعة اللغة أو مراجعة الحكمة ليفهم ما يحذره من الشيطان وما يستقبله منه بالفكر أو الوجدان ، فان هذه الكلمة تقع فى موقعها عنده كأنها نقلت اليه الشيء نفسه محسوسا ملموسا معقولا مدروسا ، ولم تنقله منه باشارة او عنوان

وقس على ذلك ما يفهمه من كلمات الصفات البهيمية او الصفات السبعية ، فانها كذلك تنقل اليه اشياء واحياء ولا تنقل اليه حروفا وكلمات

ان خالق الكون لم يرد باعطاء الناس حياتهم ان يعطيهم قاموسا أو موسوعة من العناوين والمصطلحات ، ففى وسعهم هم أن يعطوا انفسهم هذه القواميس ، وقد اعطوا أنفسهم هذه القواميس فعلا فاذا هى أكثر الاشياء اختلافا بين قبيل وقبيل وبين امة وامة ، واذا هى برج بابل يمتد على كرة الارض ولا يزال ابدا فى حاجة الى ترجمان ..

ولو كانت هذه المدلولات فى اللغات هى الحقائق المقصودة لما كان للمدلول الواحد الف كلمة فى كل لسان

ولكن هذا النوع الانسانى تلقى وجوده من خالقه حياة تجيش فى ضمائره وفيما حوله بالحقائق الحية كائنا ما كانت اصداؤها فى عالم الحروف والرموز والاشارات والكلمات والطلاسم أو فى « الهيروغليفية الكونية » على الاجمال ..

ومن شاء فليبادل ان كانت له الجرأة !

من شاء واستطاع فليمد بالانســان الى أوله لينتزع من ذاكرته ووجدانه كل ما أحســـه وتعلمه من كلمة الشــيطان أو كلمــة الملك أو كلمــة الخطيئة أو كلمــة العصيان ، وليضع فى مكانها ما يقترحه فى تصريف اللغة ومصطلحاتها مفسرة ميسرة محكمة مقســـمة ، ولينظر ماذا صنع بالانسان فيما مضى وما يصنع به فيما بعد .
فانه قاتله وملقيه فى مقبرة من قاموسه الجليل

من كانت له الجرأة ، وكانت لديه القدرة ، فليبادل ولينظر فرق ما بين كلماته ومصطلحاته ومدلولاته وبين هذه « الهيروغليفية الكونية » التي هي الكلام وهي متكلموه وهي المحسون به وفاهموه

وليقف خاشعا مستعيذا « بالشيطان » من الغرور
وليرجع فى أمان هذه « المعوذة » الى تاريخ الشيطان ليعلم منه تاريخ الأخلاق الحية وتاريخ الانسانية الخالدة

فاذا كان لا يدرك تاريخ الأخلاق الانسانية حقا وصدقا الا من تاريخ الشيطان فلا ينكرن هذا الاسم ولا ينكرن وجوده من باب أولى
انه وجود أرسخ من وجود الانسان
ومن لم يكن فى وسعه أن يدرك ما وراء هذه الحقيقة فأحرى به ألا يتطفل على الوجود والعدم ، والحيـــاة والموت ، والحق والباطل ، والعلانية والخفاء ، والظواهر والأسرار ، فكل أولئك له معناه الذى لا يدركه ولا يدريه

وسنكتب فيما يلى تاريخ الشــيطان لنستخرج منه تاريخ الأخلاق الانسانية كما تشخصت فى ثنية الحياة ، ونركب عليها بعــد ذلك ما يوافقهـــا أو يلافقهـــا من مصطلحات القاموس !

الفصل الأول



قبل الشيطان

قبل شيوع صورة الشيطان كانت بديهة الانسان تملأ العالم بأشتات لا تحصى من الارواح والاطياف

وكان من هذه الارواح والاطياف ما يخفى ولا يظهر لأحد ، ومنها ما يخفى على أناس ويظهر لآخرين بالرقى والعزائم ، ومنها ما يتلبس أحيانا بالاجسام ويظهر لكل من لقيه فى مأواه

ولم يكن الانسان يقسم هذه الارواح الى ذات خير وذات شر ، لأنه لم يميز بين الخير والشر الا بعد معرفته بصورة الشيطان كما تقدم

وانما كانت هذه الارواح تنقسم عنده الى أرواح مصادقة أو أرواح معادية ، والى أرواح نافعة أو أرواح ضارة ، والى أرواح سهلة أو أرواح عصية ، فلا فارق بينها عنده غير درجة الصلح والعداوة أو درجة الفائدة والأذى ، واما طبيعة الخير وطبيعة الشر فقد جاءت بعد مراحل كثيرة فى طريق الايمان بالارواح

والاختلاف بين الشر والضرر بعيد

فالشر لا يصدر منه خير بارادته ، ولكن الضرر قد يصيب أناسا ولا يصيب آخرين ، وقد يأتى من عمل

ولا يأتى من عمل غيره ، وقد يكون الضار بهذا نافعـــا لذاك ، فليست هناك طبيعة تسوقه الى الشر فى جميع الاحوال بل هناك احوال متعددة واعمال منوعة ، وشأن الارواح فى ذلك شأن الناس من حوله بين قوم من قبيلة وقوم من اعدائها ، أو بين قوم من خاصته فى القبيلة وقوم ينفر منهم وينفرون منه لاسباب عارضة أو باقية لا ترجع الى أصالة فى الطباع

وقد يصح تشبيه عالم الارواح عنده بعالم الغاب أو عالم السباع والحيوان

فالغاب فيها النمر والثعبان، وفيها البلبل والعصفور، ومن حيوانها ما يأمنه ولا يخشاه ، وقد يتألفه ويستخدمه فى مصالحه ويشركه فى مسكنه ، وقد يكون عنده الكلب الأنيس وفى الخلاء الكلب المستوحش العقور ، وقد يكون عنده الحصان الداجن وفى الخلاء الحصان الجامح الذى لا نفع منه ولا ضرر ، وجملة الفوارق بينها مسالة احوال واحيان أو احوال رياضة واستعصاء

وهكذا كان عالم الارواح فى الهمجية الاولى : كان عالم فائدة وضرر ، او عالم هوادة واستعصاء ، او عالم صداقة وعداوة ، فاما عالم الخير الاصيل او عالم الشر الاصيل فلا تتمثل له صورة فى بديهة الانسان قبل انقسام الطبائع وتباين الاقيسة والموازين بين الاعمال والاخلاق ..

ويدل على اصالة الايمان بالارواح فى بديهة الانسان انها وجدت فى كل سلالة بشرية من السلالات التى نشأت فى القارات المتقاربة فتعلم بعضها من بعض فى مسائل الدنيا والدين ، او من السلالات التى وجدت فى الأمريكتين منعزلة منذ أدهار لا تعرف لها بداءة ، فهى لم تتعلم

تلك العقائد من غيرها ولم ترجع بها الى مصدر معروف فى العالم القديم

ووجدت هذه العقيدة على اكثرها فى الجزر الاسترالية المتباعدة ، كما وجدت عند حوض الامازون فى امريكا الجنوبية ، او وجدت فى افريقية الجنوبية او الشرقية التى يقال انها مهد الجنس البشرى قبل سائر القارات ، ويقال مع ذلك انها تلقت أفواج المهاجرين من الجنس القفقازى قبل فجر التاريخ

والمهم فى هذا الشيوع انه أصيل فى البداهة الانسانية وانه لم يكن من تدجيل الكهان والسحرة كما يخطر لمن يسهل عليهم ان يفسروا كل شىء بالدجل والخداع

ويكاد الشبه بين الارواح فى القارات المتباعدة أن يكون اقرب من الشبه بين الآدميين انفسهم فى تلك القارات ، فالكائن الروحى فى الجزر الاسترالية اشبه بالكائن الروحى فى امريكا الجنوبية من الامريكيين الاصلاء والاستراليين الاصلاء ، وليس بين روح وروح فى الاقطار المتنائية ذلك الاختلاف الذى يعترى الالوان والاشكال من فعل الجو والتربة والماء والهواء ، فانك قد تنقل الاسترالى من الجزر الى أمريكا الجنوبية فيشعر فيها بالغربة ويريبه من قومها ما يريبه من الغرباء ، ولكنك اذا نقلت روحا من هناك الى هنا او من هنا الى هناك لم تجده على غرابة فى عالم الارواح ولم تكن بينه وبين العالم الذى انتقل اليه فجوة من الجنس واللون واللغة أبعد من الفجوة التى بينه وبين سائر الارواح فى وطنه الاصيل ، وانها لظاهرة جديرة بالتنبه لها والتوقف عندها فى علم المقارنة بين الاديان ، لانها قد تفضى بنا الى الوقوف على سليقة دينية شديدة التقارب بين

الاجناس والاقوام ، وليس مصدرها من الخيال وحده لأن مخلوقات الخيال وحده بعيدة الفوارق بين أساطير الامم فى الاقليم الواحد فضلا عن شتى الاقاليم

وقد كتب الرحالون والبحاثون عن القبائل الفطرية التى وجدوها فى القارات الخمس خلال رحلاتهم اليها منذ أوائل القرن الثامن عشر الذى نشأت فيه علوم المقابلة بين العقائد والسلالات ، فاذا قدرنا انها تغيرت مع الزمن منذ النشأة الاولى قبل عشرات الالوف من السنين ، ورأينا بعد هذا التغيير مقدار التشابه بينها فى العصر الحاضر كان هذا التشابه حقا أجدر شىء من الباحثين بالالتفات اليه ، لأنه دليل على أن وحدة السليقة الدينية أقرب جدا من وحدة القريحة والخيال ، اذ ليست أساطير الفنون على درجة من التشابه تقارب ذلك التشابه بين الارواح والاطياف فى الاديان والمعتقدات

ان الدين أعمق فى كيان الانسان من الخيال الذى يولد الاساطير ويخلق أشباح الفنون ، وقد يكون التقارب بين الاصلاء من الافريقيين والامريكيين والاوربيين والاستراليين ملحوظا فى تقارب الاوصاف بين الارواح والاطياف حيث لايلحظ التقارب بين المصنوعات اليدوية نفسها من الادوات وآنية الفخار ، وهى المصنوعات التى تقاس بها طبقات العصور ويحسبها الكثيرون على مثال واحد فى كل عصر من العصور الحجرية أو عصور المرعى أو العصور النحاسية ، ولكنها على كونها محسوسة يحكمها النظر واللمس وتوحى بها المنفعة والحاجة المتكررة لم تبلغ من التقارب والتشابه ما قد بلغته ملامح الارواح والاطياف

وقد تخصص لكل اقليم من أقاليم القارات رحالون

مستقلون فى دراساتهم للاحياء وتنقيبهم عن الآثار ، فيكتب عن الجزر الاسترالية اناس غير الذين يكتبون عن القارة الافريقية ، ويكتب عن سهوب آسيا الشمالية طائفة غير هؤلاء ، فهم لا ينقلون بعضهم من بعض ولا يرجع بعضهم الى بعض فى تسجيل المشاهدات واثبات الكشوف التاريخية ، ولكنهم يعرفون المشـــابهة بين العقائد حين يرجعون الى المقارنة والمقابلة ويستخلصون منها ما يستخلصون من وحدة الاصول

***

ولهذه المشابهات يقرأ القارىء عن « أرواح » اقليم من الاقاليم فلا يضيره كثيرا أن يخطىء فيحسبها أرواح اقليم آخر ، لأنها بمثابة النبات الذى يصح زرعه على طول السنة فى جميع الارضين ، فيزرع فى هذا الموسم أو ذاك ، وفى هذه البقعة أو تلك ، بغير اختلاف كبير فى طريقة الفلاحة والحصاد

يقول باريندر « Parrinder » فى كتـابه عن النحـل التقليدية فى افريقية : « ان الارواح يمكن أن تتخـذ مساكنها فى كل شىء من اشياء الطبيعة : على كل قمة وفى ظل كل شجرة خضراء ، وان التـلال والصخور البارزة احرى أن تكون مأوى للارواح القوية »

الى ان يقول : « وفى الآجام المتشابكة العميقة تسكن الارواح والاطياف ذوات الخطر والأذى .. وحيوانات الغاب ــ أو سكان الارض ــ كثير منها حرام على هذه القبيلة او تلك .. فاذا قتل احدها وجبت الترضية له او يظل فى مطاردة القاتل طيفا لا يفر منه »

ويقول شارل واجلى « Wagley » فى كتابه عن « بلدة الامازون » من امريكا الجنوبية : « ان بعض

القردة تخاف فى أعماق الغاب وتحسب قردة الجريبه «Guariba» آفة سحرية وبيلة ، وبعضها له قدرة على اختلاس ظل الانسان .. واشهر اطياف الغاب وأرواحها الكازوبيرا التى تشبه انسانا قزما ويقال ان أقدامها ملتفتة الى ورائها ، وهى تعيش فى أعماق الغاب ومنها تسمع صرخاتها الطويلة المزعجة ، ويقال أنها مغرمة بشراب الروم والتدخين ..

ثم يقول : وطيف آخر من الاطياف الخطرة يدعى « ماتن تابريرا » يظهر فى المدن ولا يظهر كالاطياف الاخرى فى الغابات والانهار .. واصل الاعتقاد فيه على ما يظهر منقول من الديار الاوربية

ويتكلم مالنوسكى « Malinowsky » علامة الدراسات الانسانية عن الجزر الاسترالية فيروى قصة الروح التى تسمى عندهم « بلوما » وتذهب بعد مفارقة الجسد الى جزيرة أخرى كأنها العالم الآخر . وهم يعتقدون ان الاشياء لها أرواح تنتقل منها الى حيث تسكن أرواح الموتى ، فيزينون جسد الميت بكل ما كان يزدان به فى الحياة ليجرد منه روحه ويبقى بقيته المحسوسة ، وقد يظهر للميت طيف يسمى « كوسى » يخاف لقاؤه ولكنه يداعب الناس ولا يبالغ فى ايذائهم ، وحيثما سمع صياحه وجبت له الترضية والمبالاة ، وقد يخشى القوم هناك اطيافا أخرى لها علاقة بأرواح الموتى يتخيلونها دائما فى صورة العجائز القباح وقد يشيرون الى عجوز حية معروفة فيقولون عنها انها قد أصبحت واحدة من تلك الاطياف ذات العلاقة بالموتى ، وانها تعاشرهم بقوة السحر وحيل التعاويذ

وأفضل المراجع التى يعتمد عليها فى فهم العقائد

البدائية تلك الرحلات التى يكتبها طائفة من العلماء عاشوا بين القبائل واختلطوا بها فى جميع أطوار معيشتها فعرفوا عاداتها بالمعاشرة على فطرتها ولم يعرفوها بالسؤال والتحقيق على منوال الرحالين الذين يذهبون اليها لدراسة علم الاجناس او تطبيقه عليها

ومن هؤلاء العلماء الذين عاشوا زمنا بين القبائل فى افريقية الوسطى الطبيب المشهور « البيرت شويتزر » صاحب جائزة نوبل منذ خمس سنوات ، ويؤخذ من مذكراته أن أخوف المحظورات عندها هى التى ترتبط بأهم المراحل فى حياة الانسان ، وهى الولادة والمراهقة والموت ، فقبل الولادة تطيف الارواح بالأب وتلقنه فى الرؤيا أو الايحاء أسماء الاشياء التى ينبغى للوليد أن يتجنبها فى حياته والا أصابه الأذى من الارواح المطيفة بالمكان ، وعند المراهقة يحاط الصبية بالمراسم والعبادات التى تفرضها كل بيئة على حسبها . وأشق ما عاناه الطبيب من عادات القوم حذرهم من مقاربة أجساد الموتى وهو محتاج فى مستشفاه على الدوام الى حمل هذه الاجساد ومواراتها

ويؤخذ من مشاهدات هذا الطبيب فى جواره أن المحظورات خاصة وعامة ، فمنها ما يحرم على انسان واحد ولا يحرم على غيره حسبما جاءه الوحى من أبيه أو كاهنه ، ومنها ما يعم القبيلة جميعا ولا يستثنى فيه أحد منها ، ويقول الطبيب أن بعض المنذورين لهذه المحرمات قد تأتى شفاؤهم من الوهم الذى غلب عليهم بعد انذارهم بتحريم بعض المطاعم واجتناب بعض الأدوات فاجترأوا على مخالفة المحظور وسلموا من العاقبة ولكنهم تخلصوا من عقيدة بعيدة ورسخ فى اخلادهم أن الروح الذى أطلقهم من عقال المحظور أقوى من الروح الذى

حظره عليهم ، فهو لا يستطيع أن يتعقبهم بالأذى وان خالفوه جهرة ، لأنهم دخلوا فى حماية روح آخر اقوى واعظم وأحرى بالمبالاة والاتباع

وقد دخلت هذه الارواح والمحظورات فى حساب السياسة كما دخلت فى حساب العلم ، فقررت اللجنة البرلمانية التى اوفدتها الحكومة الى افريقية الشرقية لتحقيق أسباب الثورة فيها ان « دراسة النفسية » التى تنطوى عليها عبادات جماعة الماو ماو ضرورية لاستقصاء اسباب السخط وعوامل الثورة ، وعقب الاستاذ ماكس جلكمان «Gluckman» على هذا التقرير بفصل مجمل عن أصول العقيدة بين القبائل ، فروى عنها انها تؤمن باله عظيم ، خلق العالم ثم تنحى عنه ، وانه سمع من اناس فى قبيلة الباروتس «Barotse» على نهر الزمبيزى الاعلى أن الاله تخلى عن الارض ولاذ بالسماء حيرة من كيد الناس وشطارتهم وافانين احتيالهم ، ولم يبق لهذا الاله الآن من عمل يستطيعه مع البشر غير مجرد العلم بأخبارهم ، فهم يقولون كلما سألتهم عن مكان بعيد ان الاله نيامبى «Nyambe» أعلم وأدرى ، ويدعى زعماء القبيلة انهم ينتمون الى هذا الاله من ذريته التى ولدتها له بنته قبل أحد عشر جيلا فملكت على القوم فى مكانه ، وهذا سر من اسرار الطاعة للزعماء والثورة على الاجانب والمستعمرين

***

ويرى جلكمان ان المراسم والشعائر حلت بين القبائل الافريقية محل الصلوات المكتوبة والفرائض المسجلة ، لانعدام الكتابة فى تلك القبائل ، فكل علاقة لها شعائرها ومراسمها وكل حركة تتحركها القبيلة كلها او بعض

افرادها طلبا للصيد او انتجاعا للمرعى أو زحفا للغارة على عدوها تتطلب منها الزلفى الى بعض الارواح والحذر من بعض الارواح الاخرى وتلجئها الى اتخاذ المراسم والشعائر المتوارثة فى أجدادها

***

وكل مايصيب الانسان فهو من كيد روح أو دسيسة ساحر أو من عالم « وراء الطبيعة» على الاجمال . فاذا وطىء فيل انسانا فقتله فالافريقى يفهم أن قوة الفيل اكبر من قوة الانسان ولهذا استطاع قتله ، ولكنه يسأل بعد ذلك : لماذا كان هذا الانسان هو المقتول ولم يكن انسانا غيره ؟ أليس هناك سر يرجع الى تدبير ساحر أو نقمة روح غاضب أو مشيئة كائن مما وراء الطبيعة ؟ وهكذا تلتقى الاسباب الطبيعية المعروفة بالاسباب المجهولة مما وراء الطبيعة ، ولا يحس الانسان السلامة من الكائنات المحجوبة بحال من الاحوال

وقد تزول العقائد بانقضاء الزمن عليها ولا يزول السحر وأساليبه الموافقة والمضادة التى تلجىء الافريقى التنقل من ساحر الى ساحر ليبطل رقيته ويفسد مكيدته؛ فلا ملاذ عندهم من السحر الا الى سحر مثله او اشد منه ، ولا تعليل عندهم لمصيبة يبتلون بها الا أن تكون من كراهية عدو يستعين بالسحرة ويستمد قدرته على النكاية من الارواح (١)

وقد حاول الرحالون والباحثون فى الاجناس البشرية أن يرجعوا بالاعتقاد فى الارواح الى مصدر مفهوم فلم يتفقوا على مصدر واحد ولم يصلوا الى قول متفق عليه يصلح لتفسير كل حالة وتعليل كل عقيدة

---

(١) من نصل فى مجلة Listener اللندنية الصادر فى ٢٩ ابريل سنة ١٩٥٤

فمنهم من يرجع بعقيدة الارواح الى الاطياف التى يراها الهمجى فى منامه ، والى الاحلام التى يرى فيها أنه انتقل الى مكان بعيد وهو لم يبرح مرقده فى بيته ، فيخيل اليه أن الاطياف تتحرك فى الظلام وتترك الاجساد اذا هدأت حركتها لتجول هنا وهناك حيث تشاء ، وأن الذى يحدث فى حالة النوم يحدث فى حالة الموت فيسكن الجسد ويبلى ويتحرك الروح الذى فارقه بفراق الحياة

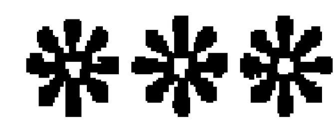
ومنهم من يرجع بهذه العقيدة الى طبيعة الاستحياء اى الى الطبيعة التى تخيل الى الهمجى أن الاشياء ذات حياة مثله فيعاملها كما يعامل الاحياء ويرضى عنها أو يغضب عليها كالطفل الذى يضرب الارض اذا صدمته حين يسقط عليها ، أو يشعر بالراحة حين نضرب الارض امامه ونعاقبها بجريرة سقوطه عليها واصابته من صدمتها ..

وتتمكن هذه العقيدة فى خيال الهمجى مع نقص اللغة وخلطه بين الحقيقة والمجاز فى تعبيراتها ، فاذا سمع أن الارض ولدت عيون الماء وأن اباها انحدر من سحاب السماء لم تزل هذه الصورة تتجسم مع الزمن حتى تنشأ منها أسرة لها أب وأم وأبناء ، ولها مشيئة يلقاها بالتوسل والرجاء أو بالسخط والاعراض

ومنهم من يرجع بعقيدة الارواح الى عبادة الاسلاف بعد الموت ، وقد يحدث أن يسمى السلف باسم حيوان كالاسد أو النمر أو الثعلب أو النسر أو الصقر فيحسب أبناؤه مع طول الزمن أنهم تحدروا من ذلك الحيوان ويجعلون له قداسة مرعية توجب عليهم أن يحرموا قتله وأن يتوقعوا الضرر والسقم اذا قتله أحد منهم أو من غيرهم ولم يأخذوا بثأره

ويكاد علماء الاجناس والعادات البشرية أن يجمعوا على ايمان القبائل الفطرية بالله واحد أكبر من هـذه الارواح المتعددة واخفى منها فى ظواهر الطبيعة

وقد تقدم من كلام جلكمان أن القبائل فى افريقيـة الشرقية تؤمن بالاله نيامبى الذى ارتقى الى السـماء حيرة من كيد الناس وشطارتهم وأفانين احتيالهم ، وهذه العقيدة على الارجح من بقايا عبادة الاسلاف التى يختلط فيها التاريخ بالخرافة ،واصلها على هذا الظن متصـل بوحدة القبائل فى جدها الاعلى ، فهو ربها جميعا حيثما اختلفت أربابها وتعددت الارواح المسيطرة عليها ، وقد جردوه من القدرة وتركوا له صفة العلم والدراية كأنه الأب الشيخ الذى اعتزل العمل والقتال فلا طاقة له بمنع العداوة بين ذريته من القبائل المختلفة



ولم ينفرد جلكمان بقصـــة هذا الاله الواحد الذى تشترك فيه القبائل المختلفة فى افريقية الشرقية ، فان الرحالين جميعا متفقون على ايمان القبائل الاسترالية برب فوق الارباب يسمى « نانا » أو يسمى بأبى الجميع **«All Father»** على مثال نيامبى فى القبائل الافريقية

ويتفق الرحالون كذلك على ايمان الاقزام الافريقيين برب فوق الأرباب تشترك فيه القبائل وان تعذر عليها الوفاق فيما بينها ، ولم يجد علماء الاجناس قبيـلة فطرية بلغت من ارتقاء الادراك أن تؤمن بالتوحيد على صورته المثلى ، ولكنها تقترب من هذه الصورة كلمـا ارتقت من فوضى العقيدة الى مرتبة أعلى وأجمع من مراتب النظام

وليس الهمجى جبانا فان الجبن بين الاخطار المحدقة

به اضر به من الشجاعة ، وقد عودته مواجهة السباع والحياة أن يواجهها علانية وان يصارعها وينصب لهـا الأحابيل ويستخدم السلاح المستطاع فيما يعييه أن يتغلب عليه بالمصارعة ، ولكنه بين الارواح والاطياف أمام خطر مستور لا يدرى من اين يأتيه ولا تكون الغلبة عليه بقوة البدن والسلاح ، ولعله لا يريد أن يتغلب عليه لأنه عنده فى حكم الأب او الرئيس المطاع ، ورياضته بالحيلة أولى من التصدى له بالاسلحة والفخاخ

ولا بد من مواجهة تلك الارواح والاطياف بما يكف غضبها ويدفع أذاها ويستجلب رضاها

ولا بد مما ليس منه بد فى النهاية ، فأما السكوت عنها فلا يطاق ، وأما الصراع معها فلا يجدى فيه اليأس ولا تصلح له الشجاعة ، فكانت حيلة السحر هى الحيلة التى انتهى اليها ولم يكن له بد منها بحال

وتخصص السحرة لرياضة هذه القوى التى لا ترضى بالأيدى والهراوات أو الحراب

وظهرت البداهة الانسانية فى هذا التخصص كما تظهر عند الاضطرار اليها فى توزيع جمع الاعمال

فلم يكن السـحرة المتخصصون لرياضـة الارواح والاطياف اناسا ممتلئين بالحياة صـالحين للكر والفر والصيد واقتناء النسوة وانجاب الاولاد ، بل كانوا على نقيض ذلك امساخا عزلتهم الحياة أو انعزلوا بعد اليأس من مجاراتها فى مطالبها ، ولاح بينهم وبين عالم الخفاء شبه مناسب يعقد بينهما العلاقات الغامضة ويقرب لهما وسائل التفاهم ، ويوقع فى النفوس اثرا واحدا من التوجس والتساؤل والريب فيمـا وراء الظـواهر والمـألوفات ..

وقد شهد الدكتور شويتزر «Schweitzer» ترشيح بعض السحرة ، وقال فى مذكراته الافريقية : «ان الدميم السيىء لا مطمح له فى الحصول على امرأة يتزوجها ، فان كبراءه لا يشترون له امرأة لنفورهم منه ، ويكون أبوه قد مات فيمتلىء بالمرارة ويتحول الى السحر للانتقام من قومه »

***

وقالت الدكتورة روث فلتون بنديكت «Benedict» ان بعض قبائل كليفورنيا من الهنود الحمر يتطلبون علم الغيب ممن يصابون بالصرع ويتعرضون للغيبوبة فى بعض نوباته ، وانهم يفضلون النسوة المصروعات ولكنهم لا يقصرون الكهانة عليهن ، وقد يكون الرجل المختار متانثا بطبعه لا يصلح للزواج ويلبس لباس النساء مدى الحياة (١)

ووصف الأب هنرى كلوى «Callawey» برنامج اعداد الساحر لوظيفته فقال انه قد يبدو فى اول الامر قويا سليما ولكنه يهزل شيئا فشيئا ويصبح فى عرف القوم « ناعما » ويعنون بذلك انه يصبح عرضة للانفعال والتأثر ويصوم عن بعض الاطعمة ويتاذى ببعضها وتطرقه الارواح والاطياف فى منامه ويهدده بعضها بالموت، ويقول العرافون انه يوشك ان يملكه روح تتصرف به على حكم الارواح ، وفى هذه الحالة يصاب أهل القرية بالارق ويتساءلون عما اصابهم لأن وصول الساحر الى منزلة « الانيانجا » اى الملهم المكشوف عنه الحجاب حالة لا تمر فى المكان بسلام (٢)

---

(١) كتاب « الوان من الثقافة » «Patterns of Culture»
(٢) ديانات الامازولو «Religious Systems of the Amasulu»

ولا تنفصل وظيفة الكاهن ووظيفة الساحر فى مبدأ الأمر ، فالكاهن الذى يقوم بمراسم العبادة ، هو الساحر الذى يدفع أذى الارواح والاطياف ويستجلب رضاها ويسخرها فى المآرب التى يختارها ، ثم ينفصلان شيئا فشيئا فيصبح عمل الكاهن غير عمل الساحر او يجمع الرجل الواحد بين الوظيفتين ولكنهم يقصدونه لكهانته فى أغراض معلومة ويقصدونه لسحره فى غير تلك الاغراض ..

والغالب أن السحر يراد لمصلحة خاصة أو لالحاق الضرر ببعض الاعداء ويعمد فيه الساحر الى الوسائل الخبيثة ولا يكون عاما شامل النفع فى جميع الاحوال ، وتستخدم فيه أرواح منقطعة للأذى والضرر تعودت أن تتآمر على النكاية والنقمة وأن تستجيب لمن يؤدى لها الاجر ويتقدم لها بمراسم الشعوذة والاعمال الخفية

ويلاحظ ان الكاهن قد يكون رئيسا للقوم وكاهنا يؤمهم فى الصلاة والعبادة فى وقت واحد ، ولكن الساحر لا يصل الى هذه المكانة الا ان يكون السحر عملا مضافا الى الكهانة أو فرعا من فروعها التى لا ترتقى الى مرتبة الصدارة ..

ويلاحظ كذلك ان السحرة مشوهون او مصابون بالآفات ، وأن أدوار النساء العجائز بينهم شائعة غير مهملة ، وكلهم بين رجال ونساء غير أهل لحياة القوة والصلابة والمتعة والظهور ، وكأنما السحر لديهم عوض عن نصيب مفقود

وليست الكهانة على الجملة من هذا القبيل ، فان الكاهن قد يكون من أقدر الناس على الجد والوجاهة والمتعة بالرغد والملذات

ويسبق الى الظن ان السحر والكهانة كلها خداع فى خداع من تلفيق السحرة والكهان ، ولكنه ظن خاطىء غير معقول ، لأن السحرة والكهان على اتصافهم بالذكاء والدهاء قد نشأوا بين أقوام توارثوا العقائد واحتفظوا بكثير من العادات التى توهموا أنها كانت نافعة لمن قبلهم وانها تنفعهم اليوم اذا أحاطوا بعلمها وحذقوا تجاربها ، وربما لام الساحر نفسه اذا قصر فى بلوغ ما يطلبونه منه واجتهد فى علاج ذلك القصور بتكرار التجربة او سؤال الأقدمين الذين سبقوه فى الصناعة ، وهو بطبيعة عمله لا يستغنى عن الخداع والتلبيس فى معاملة قومه ، ولكنه لم يكن قط خادعا فى كل شيء ولا يزال خادعا مخدوعا فى جوهر السحر كله ، وهو الايمان بفعل الطلاسم وقوة الارواح ..



وكلما انفرجت المسافة بين وظيفة الدين ووظيفة السحر ترقى الانسان الفطرى من فوضى الارواح والارباب ونبذ التسوية بينها وتعود التفرقة بينها فيما يطلبه منها ، فمنها ما يقصده للنفع كما يقصده جميع أبناء القبيلة ، ومنها ما يقصده ليتواطأ معه على الاجرام والنكاية كأنه بعض الشطار الذين يعيشون اليوم بتأجير انفسهم للنكاية والعدوان

ويحدث فى هذا الطور من التمييز بين الارواح والاطياف أن تعرف بأسماء وتوسم بملامح وتتلبس « بشخصيات » وتتخصص كل « شخصية » منها لرسالة تتجرد لها وتقدر عليها حيث لا يقدر سواها

وفى هذا الطور ، أو هذه المرحلة ، يتهيأ الذهن للتمييز بين عمل الاله وعمل الشيطان

أنواع ودرجات

فى الحرام والمحظور

تكاد المحرمات فى القبائل البدائية ان تربى على المباحات والمحللات ، لأن المحرمات تشمل القداسة والنجاسة والعصيان والاحتقار والاستقذار . فهناك امور محرمة لانها عظيمة مبجلة ، وامور محرمة لأنها نجسة أو مشؤومة ، وامور محرمة لأن اتيانها عصيان لرب معبود أو روح قدير ، وامور محرمة لأنها تحتقر وتعاف ..

وعدد هذه المحرمات فى جملتها كثير يكاد يشمل كل عمل يزاوله الانسان الفطرى ، بل ربما كان المباح نفسه داخلا فى التحريم على وجه من الوجوه ، لانه لا يباح الا بصلوات وشعائر يعرفها الخبراء ولا تعم معرفتها كل احد ، كالصيد والزرع والحصاد وما شابهها من اعمال الجماعة او الفرد ، فان الخوف من الاقدام عليها بغير صلواتها ورسومها يجعلها فى حساب المحظورات

وقد ترقى الانسان وترقت معه اللغة ولم تزل فى تعبيراته آثار للتقابل بين القداسة والنجاسة فى الممنوعات فكلمة الحرمة فى اللغة العربية تدل على الشىء العزيز العظيم الذى يصان ويحمى بالارواح والاموال ، وقد يشمل الحرام كل اثم يعاب أو يعاف

وكلمة المنيع أو الممنوع تدل على القوة والرعاية كما تدل على الرذيلة التى يجب على المرء أن يمتنع عنها ولا يقترب منها

وكلمة القديسين والقديسات كانت تطلق عند البابليين والكنعانيين على الذكور والاناث الذين ينصبون انفسهم للبغاء فى حرم الربة «عشتروت» أو السارية ، وقد ترجمت هذه الكلمة فى كتب العهد القديم بكلمة المأبونين والزانيات ، وهى فى الاصل من القديش او المقدس ، ويقال عن الربة نفسها انها كانت خليلة الأرباب ولدت منهم سبعين الها « ايليم »

وفى القبائل البدائية ثلاثة أنواع من المحرمات المقدسة وهى « الطوطم » والوثن أو التعويذة ، والتابو أو الحرام الممنوع ..

فالطوطم «Totem» هو الحيوان الذى تحرم القبيلة قتله وصيده لاعتقادها انها تناسلت منه او لأنها ترمز به الى معبودها وأصل وجودها

والوثن أو التعويذة ــ وهو الذى اصطلح علماء الأجناس على تسميته بالفتيش « Fetish » ــ شىء جامد مصنوع أو طبيعى يحمل فى أطوائه روحا لها حق الرعاية والتوقير ، ومنها يستمد المرء حماية ومنعة ما دام على شرعتها فى المباحات والمحظورات ، وقد يكون الوثن صورة أو حجرا أو حصاة أو قطعة من جذع شجرة أو ألفافا من الشعر وعروق الشجر وما اليها ، يصنعها السحرة أو يصنعها الكبار للصغار

والمحظور التابى أقل درجة من الطواطم والأوثان ، لأنه قد يتفرق ويتخصص فيكون حراما عند بعض الناس حلالا لغيرهم فى البيئة الواحدة ، بل قد يكون مستحبا مطلوبا لمئات من الناس ولا تحريم فيه على غير آحاد معدودين . وقد روى الدكتور شويتزر ضروبا من هذه المحظورات لا مرجع لها غير التحكم من بعض

الأرواح المزعومة التى تكشف عن ارادتها قبل وضع الجنين ، فتخبر أباه فى الرؤيا باسم « التأبو » الممنوع على الوليد ، فمن هذه المحظورات أكل بعض الطلح او البذور ، ومنها ضرب الوليد على ظهره ، ومنها حمل المكنسة او بعض الآنية ، ولا تكذب النبوءات فى شأن « التابو » بل يصدقها القوم كل التصديق حتى لتقبل عقولهم أن الوليد يولد ذكرا تم يتحول الى انثى اذا خولفت نبوءة أو علامة مرصودة ، ويفعل الوهم هنا فعله القاتل الذى لا تجدى فيه النصيحة ولا الاقناع ، ففى ناحية « سمكينا » رأى الطبيب صبيا فى مدرسة البعثة أنبأه رفاقه انه اكل من اناء طبخ فيه الطلح قبل ذلك ولم يغسل ، وكان الطلح محظورا على الصبى بنبوءة آبائه ، فلم يكد الصبى يسمع الخبر حتى تشنجت عضلاته ولزمه التشنج الى أن مات بعد ساعات

وتحيط هذه التابوات كثيرا بعلاقات الجنسين وبلوغ سن المراهقة فى الذكور والاناث ، فيندر بين قبائل الارض البدائية أن ترى قبيلة خلت من مراسم المراهقة ومحظوراتها الكثيرة ، فتعزل الفتاة ولا تكلم أحدا غير امها أو لا تكلمها الا بصوت خفيض ، ويؤخذ الصبى بعيدا من بيته ليغسل فى العيون المقدسة من روائح الأنوثة التى لصقت به من مصاحبة أمه ، ويجرى له الكهان أو كبراء السن شعائر الفطام ، ومنها فى بعض قبائل الهنود الحمر أن يفارق أمه زمنا أو يدخل الكوخ وهى مستلقية على بابه فيطأ على بطنها علامة الانفصال فى موضع حمله حيث اختلط بجوف الأنثى وهو جنين

وتدل الشعائر الموروثة منذ القدم على جهل مطبق بأسرار الجنس والولادة ، وربما تبين من تلك الشعائر انهم ينوطون نسبة الابن الى أبيه بالمراسم والشعائر

ولا يعتقدون أن مجرد الاتصال بين ذكر وانثى يحقق الولادة والنسبة الى الآباء ، ففي بعض القبائل يفرض العرف على الرجل أن يقدم زوجته لضيفه الغريب ولا يمنعه ذلك أن ينسب أبناءها جميعا اليه ، لأنه هو الذى جرت بينه وبينها مراسم الزواج

ولا يعجبن أبناء هذا العصر من تلك الخرافات التى تحيط بالجنس ومراسم النسبة بين الأبناء والآباء ، ففى عصرنا هذا من يعتقد ان الولد من نسل الشيطان اذا ولد من غير زواج مشروع ، وقد صدرت المنشورات من رجال الدولة ورجال الدين بعد كشف امريكا الجنوبية وشيوع الأمراض الزهرية فى العائدين منها ، فكان فحواها جميعا أنها عقوبة على خطايا الشيطان ، ولما انتشرت عدواه بين المتزوجين والمتزوجات فى أواخر القرن الخامس عشر أصدر الامبراطور مكسميليان منشورا ندد فيه بالحضارة وانذرهم بالتوبة او تدوم هذه الضربة السماوية عقوبة لهم على العصيان (١)



وتتفق جميع المحرمات البدائية على تفنيد مذهب المؤرخين الذين يقولون عن المديانات ومحرماتها ومباحاتها انها حيطة اجتماعية تهتدى اليها بديهة المجتمع لمنع الجرائم ومعاقبة المجرمين وحماية الأبرياء من عدوان المجرم والاجرام ، فكل هذه المحرمات انما ترجع الى شيء واحد وهو اغضاب رب أو روح وتخطى الحدود التى تمنعها الأرباب أو الارواح ، ولها كلها علاقة بعالم الخفايا والأسرار وما نسميه اليوم بعالم ما

---

(١) كتاب « الشياطين والعقاقير والاطباء » لمؤلفه هوارد هجارد
Devils, Drugs and Doctors » by Haggard

وراء المادة لأنه لا ينحصر في المحسوسات المادية . وأما الجرائم وعقوباتها فهي أعمال مفهومة مقصودة ترجع الى الأسباب الطبيعية التي يحيط بها علم الانسان كما تحيط بها ارادته ، وهي تعالج بالقصاص المقدر وبالثأر والانتقام واداء الغرامة والديه ، بل يستمد الثأر قوته احيانا من عالم الروح ، كما يقال عن روح القتيل فى قبائل الجاهلية العربية أنها لا تزال هائمة مقيدة بجانب القتيل تنادى العابرين بها : « اسقونى اسقونى » حتى يؤخذ بالثأر فتشعر بالرى وتستريح ، فليست المحرمات الدينية هى التي تتوقفعلى مطالب القصاص وقوانين الجزاء بل هذه المطالب هى التى تتوقف احيانا على عالم الأسرار والأرواح

وقد ثبت من أطوار المحرمات فى القبائل عامة انها تتقدم مع تقدم الانسان فى ثلاثة أدوار متشابهة

فالطور الأول أن تترقى من الحدود المحلية الىحدود عالمية أو كونية تشمل السماوات والارضين ، فبعد الرب الذى يسيطر على ينبوع ماء أو شجرة فى غابة أو بقعة فى جهة من جهات الاقليم يترقى الانسان الى فهم الرب الذى يسيطر على السحب والأنهار وأفلاك السماء ، وكلما أدرك القوانين التى تربط الطبيعة بنظام واحد ترقى أدراكه لقدرة الرب الذى يملك زمامها ويصلي له المصلون لاجرائها فى مجراها المطلوب وتحويلها عن المجرى الذى يحذرون عقباه

ويقترن بهذا الطور ، أو يأتى بعده ، طور التمييز الواضح بين عمل الدين والعبادة وعمل السحر والطلاسم السحرية ، فلا يستطيع الساحر ما يستطيعه الكاهن ، ولا يقصد الكهان عامة فيما يقصد فيه السحرة عامة ، وربما تولى الوظيفتين رجل واحد ولكنه وهو كاهن

أنما يتوسل الى الآلهة ويتحرى رضاها بالصلوات التى يحسنها دون غيره ، اما وهو ساحر فهو يسخر الأرواح أو يعاملها على أســـاس التواطؤ والتعاون على العمل الـكريه الذى ينفر منه المشـــتركون فيه ولا يجهرون بسره عن رضي واختيار

وكلما اتضح التمييز بين العبـــادة والسحر اقترب الانسان من الطور الآخر الذى يستقل فيه بمشيئته بين الوظيفتين

ففى الحياة البدائيـــة يظل الانسان رهينا بمشيئة الأرواح التى تنفع وتضر وتنطوى على الصداقة أو على العداء ، وكلها فى رأيه تعمل ما يحلو لها ولا يحق لأحد ان يحاسبها عليه ، ولـكنه كلما ترقى فى التمييز بينها ملك الميزان الذى يزن به أعمـــالها وأقدارها ، فيدين بعضها ويحمد بعضها ، ويعرف منها مرءوسين ورؤساء يحق لهم أن يشرفوا عليها ويحاسبوها على اعمالها ، واحس فى طويته ان يطيـــع بعضها ضرورة وغصبا ، ويطيع بعضها حبا واختيارا لأنه أهل للطاعة والرجاء

ومن هنا تصبح الأرواح نفسها مطيعة أو عاصية ، وماضية على السنن القويم أو منحرفة عن هذا السنن الى الخطة العوجاء التى ينكرها كبار الأرباب

ومتى أتيح للانســـان مقيـــاس يقيس به الأرواح والأرباب ويقيس به أعمالها وحقوقها فهو اذن أهـــل للمشيئة والتبعة وأهل للتمييز بين الخير والشر وبين سلطان الاله وسلطان الشيطان

أنواع الشيطنة

ما هى أنواع الشيطنة فى العالم ؟

سؤال غريب ، ولكنه يبدو طبيعيا ، بل ضروريا ، اذا وضع فى صيغة أخرى ، فسألنا : ما هو موقف الشر بالنسبة الى القوة الكونية الكبرى ؟

وهنا أيضا نتبين أن فكرة الشيطان أعمق جدا مما يخطر للمتعجل الذى يحسب انه يحل كل مشكلة بكلمة الوهم أو التلفيق ، أو يحل كل مشكلة باحالتها الى جهل الأقدمين وضلالهم فى الحس والتفكير

فهناك صور للشيطنة بمقدار ما فى الذهن البشرى من فكرة عن الشر فى هذا الكون : هل الشر قوة اصيلة ؟.. هل هو قوة ايجابية عاملة ؟.. هل هو قوة سلبية ؟.. هل هو عدم الخير ؟.. هل هو نقص الخير ؟.. هل هو عقبة فى طريق الخير ؟.. هل هو عقبة تريد وتعمل ما تريد ؟.. هل هو عقبة لا ارادة لها ولكنها تضاعف جهود الخير وتستدعيه الى مزيد من الحركة والثبات ؟

كل فكرة عن الشر يمكن أن تخطر على الذهن البشرى قد تمثلت فى صورة من صور الشيطان ، وهذا سبب من الأسباب الكثيرة التى تدعو المفكر الذى يحترم عقله أن يفهم الصور الدينية على حقيقتها ، وحقيقتها انها لغة حية تصور الوجود الحقيقى تصويرا صادقا على اسلوبها الذى يستحق الفهم والتعمق والنظر الى ما وراء الظواهر والألفاظ

كان الشر ارواحا ضارة متفرقة فى اعتقاد الانسان على الفطرة الهمجية ، فلما اصبح مسألة كونية عامة

تمثلت صورته فى حدودها الكونية على شكل معقول ، وسبقت المذاهب الفلسفية بمراحل بعيدة فى هذا المضمار

كان الشر فى تقدير الديانة المجوسية القديمة قوة فعالة معادلة لقوة الخير : كان فى الوجود خير وشر كما فيه نهار وليل ، وكان الليل حقيقة قائمة بذاتها ولم يكن مجرد غياب النهار

كان الليل ضد النهار كما كان النهار ضد الليل ، فاذا غاب النهار فهناك ليل ، واذا غاب الليل فهناك نهار

كان للنور دولة وللظلام دولة ، وكان لهذه جنود ، ولتلك جنود ، فهما قوتان متقابلتان متعادلتان أو كالمتعادلتين ، ولكل منهما وجود قائم قابل لأن ينفرد بنفسه فى معزل من القوة الأخرى ، فلا يتوقف وجود الشر على وجود الخير ولا يتوقف وجود الخير على وجود الشر ، بل كلاهما موجود بحقه وبقدرته وبعمله كما يوجد الضدان الصالحان للحياة وللبقاء

كان الظلام يصنع مخلوقاته كما كان للنور مخلوقاته التى يصنعها ، وكل منها حسن فى نظر نفسه ، محمود بمقياسه لا يبالى مقياس غيره ولا يتمناه

ثم تراجحت الكفتان فرجحت كفة النور على كفة الظلام ، وظل المعسكران متقابلين ولكن الى حين ينتهى آخر الأمر بهزيمة الظلام وغلبة النور ، ثم يبقى الظلام شيئا يلوذ به أنصاره فيختفون فيه ولايظهرون للأبصار ، وانما هزيمتهم اختفاء وليست بالفناء ولا بالزوال

وعظم التفاوت بين القوتين شيئا فشيئا حتى أصبحت قوة الشر كقوة الأمير التابع مع السلطان المتبوع ، فهو يستطيع شيئا الى جانب سلطانه ولكنه لا يستطيع جميع الأشياء ، ولا طاقة له على طول المدى أن يجاريه فى كل شيء

ومن الهين متعادلين تحول الخير والشر الى اله كبير واله صغير ، وقد تظل الحرب بينهما سجالا فينتصر الاله الصغير وينهزم الاله الكبير ، وقد يؤول الأمر بينهما الى معركة حاسمة او يظل العراك بينهما سجالا الى أن تزول الأرض والسماء

ثم آمن الناس باله واحد هو الخالق المبدع القائم بذاته ، لا وجود معه للشر الا بمشيئته وتقديره ، فلا يقوم الشر فى هذه الدنيا بذاته مستقلا عن الله

وفى هذه الصورة ظهر الشيطان فى ديانات الامم الكبرى ، ثم ظهر فى الديانات الكتابية بمختلف الاسماء ، وكلها تدل على التعطيل والتشويه والافساد ، ولا تدل على الخلق والتكوين .... كلها قوة سالبة ناقصة وليست بقوة موجبة كاملة تبتدىء بمشيئتها عملا من الأعمال

هذه القوة الشيطانية تحول الخير عن موضعه ، أو تملى للنقص فى عيوبه ، أو تقف فى طريق الكمال عقبة تصد الساعين اليه ، أو تزيف «العملة» الالهية فتجعل الزائف منها كالصحيح فى رأى المضلل المخدوع

ولكنها فى جميع أحوالها قوة سالبة وليست بالقوة الموجبة الموجدة بأية حال

وقد يتمرد الشر على الخير ويعصيه

وقد يخرج الشيطان على أمر الله ، وقد يشوه الخلق وينتقصه ويستر محاسنه ويبدى عوراته ويحول دون رضوان الله على مخلوقاته ولكنه يعمل تابعا ولا يعمل مستقلا فى كون من الأكوان غير الكون الذى خلقه الله

وفى هذه المراحل جميعا يدل اسم الشيطان على موقفه من القوة الكونية الكبرى ، فهو المتمرد او هو « الضد » أو هو الواشى النمام أو هو الساعى

بالفتنة والمغرى بالفساد والموغر للصدور

وما من اسم للشيطان بين هــذه الأسماء الا وهو يحمل فى دلالته معنى الافســاد والمنع والتشــويه ، فليست له قدرة على الخلق والانشاء الى جانب قدرة الله

ولمـا تقررت المقاييس الالهية فى الأخلاق والأعمال تقررت المقاييس الشيطانية تبعا لها وبالنسبة اليها ، فكان الجديد فيها انها معالم شخصيــة ذات ملامح معلومة لا ترتسم اعتباطا فى الواقع أو فى الخيال .

وقد حاول الشراح الدينيون أن يلخصوا « الشيطنة » فى صفة واحدة تجمع عنصرها ويقوم به كيانها فذكروا الـكبرياء وذكروا العصيان وذكروا الحســد وذكروا الـكراهية وذكروا الباطل والخداع ، وكلها صــفات لا تحسب من لوازم الشيطان الا بعد علم بوجــود الاله المتصرف فى المقادير والاكوان ..

فالـكبرياء افتئات على مقام الاله ، والعصيــان خروج على شريعته ، والحسد انكار لنعمته واعتراض على تقديره ، والـكراهية صفة قد يتصف بها الأبرار حينا بعد حين اذا كانت كراهية لهذا العمل البغيض أو لذلك المخلوق الذميم ، ولـكنها اذا كانت قوام الطبيعة كلها فهى صفة هادمة غاشمة تناقض الصفة الالهية فى الصميم وهى الحب ولوازمه من البر والانعــام . أما الباطل والخداع فهما نقيض الحق ونقيض الاستقامة ونقيض الخلق على الصدق والسواء

على أن الارواح فى جاهلية الانســان قد تطورت فى اتجاه آخر مع هــذا الاتجاه فى مجال الخير والشر وعــالم النفس الانسانية بما يعرض له من صلاح وفساد

ذلك الاتجاه الاخر هو تطورها فيما يتعلق بقوى الطبيعة وظواهر السماوات والارضين

فهنا أرواح من الجان الخفي لها عمل غير صلاح النفس الانسانية وفسادها ، ولها قدرة خاضعة لسلطان الاله ومن يصطفيه من عباده ، وينسب اليها كل مجهود عظيم تقصر عنه طاقة الانسان

وليست قدرتها هذه لانها تعلمت ما لم يتعلمه الانسان ، ولا لأنها ذات عقول أكبر من عقله وأصلح منه للفهم والتفكير

ولكنها قدرة تأتيها من عالم الاسرار الذى تعيش فيه ، فهى تسخر القوى الطبيعية لانهـــا تعيش بين أسرارها

وتحسب منها أو فى حكمها ، واذا فطنت للمعنى الدقيق الذى لم يفطن له الانسان فانمـــا تأتى فطنتها كذلك من اطلاعها على الدقائق والخفايا ونفاذها الى العالم الذى يطرقه حس الانسان ولا يتسلل اليه عقله

وهذه هى شياطين الفنون والصناعات ، تبنى الصروح وترفع الصخور وتنهض بالاثقال التى تعيا بها كواهـــل الانس وتنوء تحتها أدواته وصناعاته ، وتدخل فى ثنـــايا الخفاء فتلهم الشاعر ما يدق عن سائر بنى آدم من غـــير الشعراء ، ولا جرم يكون لهؤلاء الشعراء وأمثــــالهم من أصحاب الفنون حال كمس الجان وغيبوبة المخبولين لانهم يخاطبون الجان ويفقهون عنها ويلحنون منها أسرار لغاها واشارات وحيها ..

وتلك هى أنواع الشيطنة من جانبيها فى اتجـــــاه الضمير وفى اتجاه الذهن والقريحة

فى اتجاه الضمير ترتبط « الشيطنة » بالصلاح والفساد والخير والشر ومساعى الانسان نحو الكمال والرشاد

وفى اتجاه الذهن والقريحة ترتبـــط « الشيطنة » بالاسرار والبواطن وبالوحى الخفى وغرائب العبـــارة ، سواء كانت عبارة لغة أو عبارة شكل واشارة وسيكون لكل نوع من هذه الانواع نصيبه فيما يلى من الصفحات ..

الفصل الثانى



أسماء الشيطان الأكبر

تمثلت قوة الشر « العالمية » فى شخصيات مرسومة الملامح معروفة الاسماء ، اشتهرت بها فى كل لغة من لغات الحضارة الكبرى التى سبقت ظهور الديانات الكتابية ، وسنذكر هذه الشخصيات بملامحها وأسمائها عند الكلام على أهم تلك الحضارات التى لها علاقة بصورة الشيطان كما تخلفت فى الاعصر الحديثة ، ولكننا نتقدم قبل ذلك بخلاصة عاجلة لاسماء الشيطان الاكبر التى بقيت الى اليوم لورودها فى الديانات الكتابية ولانها قد أصبحت ذات مدلول لغوى الى جانب مدلولها الدينى ، فان حضور هذه الاسماء فى الذهن يبرز معالم الطريق الى الوجهة التى انتهت اليها سوابق التاريخ ومقدراته ، منذ ظهرت « شخصيات » الشيطان الاكبر فى الحضارات الغابرة الى أن ظهرت شخصيات هذا الشيطان فى كل ديانة من الديانات الكتابية التى أسلفنا ان اسم الشيطان فيها قد أصبحت له دلالته اللغوية الى جانب دلالته الدينية

واسم « الشيطان » بالالف واللام هو أشهر هذه الاسماء لانه ورد فى كتب الديانات الثلاث ، ودخل فى تعبيرات

اللغات الاوربية المتداولة بلفظه المنقول عن اللغات السامية ، فيتحدث الغربيون اليوم عن الفكرة الشيطانية أو عن العمل الشيطاني ويفهمون من عباراتهم معنى لا يلتبس على القائل ولا على المتكلم ، ومعنى الصفة الشيطانية عندهم مرادف للصفة الجهنمية التي تنطوى على الخبث والدهاء وحب الاذى والتمتع بالايذاء كأنه منفس لطبيعة صاحبها يفرج عنه ويسره أن يلمح آثاره وهو مستتر وراءه

والرأى الغالب أن كلمة « الشيطان » هذه عبرية بمعنى الضد أو العدو ، ومن أسباب الظن باستعارتها من اللغة العبرية انها لغة اليهود وان ديانة موسى عليه السلام سابقة للمسيحية وللاسلام ، ولكنه ظن يصدق فى حالة واحدة : وهى أن يكون اليهود أصلاء فى الكلام عن الشيطان لم يسبقهم أحد من المشارقة اليه ، الا أنها حالة لم تثبت . وقد يكون الثابت خلافها ونقيضها ، فان اليهود قد وصفوا الشيطان بعد هجرتهم الى بابل ، وليست طريق بابل موصدة دون الامم السامية غير اليهود

والارجح عندنا أن الكلمة أصيلة في اللغة العربية قديمة فيها ، لا يبعد أن تكون أقدم من نظائرها فى اللغة البابلية ، لان اللغة العربية قد اشتملت على كل جذر يمكن أن يتفرع منه لفظ الشيطان ، على أى احتمال وعلى كل تقدير

ففيها مادة شط وشاط وشوط وشطن . وفى هذه المواد معانى البعد والضلال والتلهب والاحتراق ، وهى تستوعب أصول المعانى التى تفهم من كلمة الشيطان جميعها

فالشطط من الغلو الذى يدخل فى أخص عناصر « الشيطنة » والشط بمعنى الجانب المقابل قد تلحظ فى مقابلة الخير بالشر من جانب الشيطان

وشاط بمعنى احترق وتلف ، وأشساطه بمعنى أهلكه

وأتلفه ، وانطلق شوطا أى ابتعد واندفع فى مجـــراه ، وشطن أى ابتعد فهو شيطان على صيغة فيعال

وقد كان العرب يسمون الثعبان الكبـــير بالشيطان ، ويقال فى بعض التفسيرات أن هذا المعنى هو المقصود من « طلعها كأنه رءوس الشياطين » ، وذكر الشراح اليهود المتأخرون أن الشيطان تمثل لادم فى صورة الحية حين أغراه بأكل الثمرة المحرمة ، ولم تنقطع العلاقة بين الحية والشيطان ، ويؤخذ من سفر أيوب عليه الســـلام ـ وهو عربى باتفاق المؤرخين ـ أن الشيطان كان معروفا بين العرب من ذلك العهد الذى كان سابقا لعهد خروج بنى اسرائيل من مصر ، ويؤخذ من تاريخ الادب العربى فى الجـاهلية أن العرب قد عرفوا الشيطان فى أدواره الفنية والأدبية مع السحرة والشعراء ، فليس هو مجرد اسم معرب نقلوه من لغة أخرى ولم يزيدوا على وضعه فى موضعه من المأثورات العبرية ..



وأشهر أسماء الشيطان الاكبر فى اللغة العربية هو اسم « ابليس » الذى يختلف اللغويون فى أصله كما يختلفون فى نسبة كلمة شيطان الى احدى اللغات السامية

والمتكلم العربى يفهم من وصف انسان من الناس بأنه « ابليس » كل ما يريده القائل من هذه الصفة ، فهى دالة فى كلام الخاصة والعامة على الدس والفتنة والدهاء والسعى بالفساد ، ولم تحمل كلمة واحدة من دلالتها اللغوية أكثر مما حملته هذه الكلمة مستعارا من صفات ابليس فى العقيدة الاسلامية ..

ويرى بعض الغربيين أن الكلمة فى أصلها يونانية من كلمة ديابلوس «Diabolos» التى تفيد معنى الاعتراض

والدخول بين شيئين كما تفيد معنى الوقيعة ، وأصلها فى اليونانية من ديا «Dia» بمعنى أثناء ، وبالين «Ballein» بمعنى يقذف أو يلقى ، ومعنى الكلمتين معا قريب من معنى الاعتراض والدخول بين الشيئين أو قريب من ثم الى معنى الوقيعة . [illegible]

وعندنا أن هذا التركيب أضعف من قول القائلين أن كلمة ديفل «Devil» أى الشيطان فى اللغات السكسونية مأخوذة من فعل الشر «Do-evil» أى من كلمة « دو » بمعنى يفعل وكلمة « ايفل » بمعنى الشر ، وقد أجمع اللغويون والدينيون على نبذ هذا التركيب مع أنه أقرب الى صفة الشيطان من الصفة التى توحى بها الكلمتان اليونانيتان ، بعد التمحل والاعتساف ..

ولسنا على يقين من انقطاع الصلة بين الكلمة اليونانية والكلمة العربية ، ولكننا على يقين أن « شخصية » ابليس تحتاج ، بل تتوقف على الدلالة التى تستفيدها من مادة « الابلاس » أى فقد الرجاء . فان ضياع الامل ألزم صفات ابليس على ألسنة الخاصة والعامة ، وليس أشهر من المثل الذى يضرب بأمل ابليس فى الجنة مرادفا لمعنى الامل الضائع كل الضياع ، وقد فرق هذا المعنى بين كلمة ابليس وكلمة الشيطان فى ملامح الشخصية ، فهذا قد ضيع الحق وهذا قد ضيع الرجاء ، وكذلك قد فرقت بينهما شروح الفقهاء وفرقت بينهما الدلالة الملموحة بين الشيطنة والابلاس

والغربيون اليوم يستخدمون الكلمة اليونانية فى صيغة النعت وقلما يستخدمونها فى صيغة العلم ، فاذا قالوا عن شىء انه « ديابولى » أو ابليسى فالمفهوم منه انه عمل من أعمال التمرد والجبروت لا يلزم انه سيىء كل السوء وانما يلزم انه خلا من الصفات الالهية أو الصفات « الرحمانية »

على الخصوص ، وكذلك توصف الثورات الجائحة التي تدمر الظلم وتنسف معالم الطغيان ، فهى من الجبروت بحيث توصف « بالديابولية » ولكنها من العنف بحيث تخالف الاعمال « الرحمانية » فى الرفق والرضوان

***

ومن أسماء الشيطان التى دخلت فى الدلالات اللغوية اسم لوسيفر «Lucifer» أو حامل النور ، وهو فى أصله اللاتينى اسم الزهرة حين تكون « كوكب صباح » ولم تكن له من مبدأ الامر دلالة سيئة ولكنه جاء فى كلام النبى اشعيا فى معرض التبكيت لملك بابل الذى سمى نفسه بكوكب الصباح ، وفهم الحواريون من كلام السيد المسيح « انه رأى الشيطان كنجم سقط من السماء » ان المقصود هو الزهرة وانه كناية عن الخيلاء التى تقود صاحبها الى السقوط · على أن سفر الرؤيا يذكر على لسان السيد المسيح أنه تحدث عن نفسه فقال : « أنا كوكب الصبح المنير »

واذا وصف انسان اليوم بأنه « لوسيفر » فالمفهوم من هذا الوصف أنه يلمع ويتخايل باللمعان ويبلغ من العجب به حد السماجة والصفاقة ، فهو الخطيئة الساطعة أو الخيلاء المتبجحة ، ومن كان كذلك فسقوطه أمل يود الناس أن يتحقق ، ولا يشعرون له بالرثاء الذى يصاحب المجد المنهار ··

ويذكر الاوربيون بعلزبوب وبعلزبول فى مقام التهكم بالرئاسة الشيطانية ، وأصل بعلزبوب أنه اله معبود فى عقرون يقال عنه انه رب الطب وأنه يشفى المرضى لانه سيد الشياطين · وكانت الامراض العصبية كالجنون والشلل والفالج والصراع والهزال تنسب الى تلبس الشيطان بجسم المريض ··

ومعنى بعل زبوب رب الذباب ، فحوله العبريون الى بعل زبول اى رب الزبالة سخرية منه وتحقيرا لأمره ودعواه ؛ لانهم كانوا ينكرون عبادة البعل ويدعون الى عبادة «يهوا» أو الايل . وقد قالوا حين سمعوا بمعجزات السيد المسيح فى شفاء المرضى انه يشفيهم بمعونة رب الشياطين بعلزبول

والدلالة اللغوية التى يفيدها وصف « بعلزبول » فى أساليب العصر الحاضر هى الاقرار بالقدرة على قمع الشر لانها مستمدة من الشر نفسه • فهى الشيطنة التى تقمع الشياطين لزيادتها عليها فى الشيطنة ، لا لانها تصلح أو تبتغى الاصلاح ، وهى الى ذلك لا ترتفع فى قدرتها عن قدر الزبالة والذباب

وهناك شيطنة خاصة تدل عليها كلمة مفستوفليس ،

ويقال انها مأخوذة من كلمة يونانية مركبة تفيد معنى كراهة النور ، ويرجحون أنها من « مى » بمعنى لا ، و « فوس » بمعنى نور و « فيلوس » بمعنى يحب • ولكن أصلها القديم متفق عليه ، فهى مستمدة من السحر البابلى الذى سرى الى الغرب على أيدى اليهود واليونان ، وتمثل روحا من ارواح النحس التى تتسلط على بعض الكواكب ويستعان بها على النكاية وخدمة الشهوات السوداء ••

وشيطنة مفستوفليس « ذهنية » موسومة بعيوب الذهن فى أسوأ حالاته من السخرية والاستخفاف والزراية بالمثل العليا واستباحة كل شيء بالحيلة والمكر والدهان ، فهى ذهن يصنع الشر لانه لا يبالى الشر والخير على السواء ، واذا طاب له الخير فعله غير مغتبط بفعله ، كما انه يفعل الشر ولا يلوم نفسه عليه ، ويسر صاحبه أن يرى خيبة الأمل فى الصلاح والفضيلة لانه يثبت بذلك فلسفة السخرية

وسخافة المثل الاعلى ، ويدفع عن نفســـه نقد الناقدين واحتقار المحتقرين

وقد كان مفستوفليس فى القـــرون الوسطى شيطان السحر والمعرفة السوداء ، وكان رجال الدين يتخـذونه مثلا للعلماء الكفار الذين غرتهم المعرفة الدنيوية فانصرفوا اليها وشغلوا بها عن معارف الدين

ويتردد من حين الى حين اسم اله الخراب أو اله القفار « عزازيل »

وهو اسم ورد فى العهد القديم واختلف الشراح فىنسبته الى أصله ، ويرى بعضهم انه من مادة الازالة العربيـــة ، ويقول آخرون أنه كان رئيس الملائكة الذين هبطـــوا الى الارض فأعجبتهم « بنات النـــاس » وتزوجوا منهن . ثم انهزم أمام جند السماء فلاذ بالصحراء ويقال أيضـــا أن ابليس كان يسمى عزازيل ثم سقط فزال مكانه من السماء

وقد كان من عادة اليهود ان يقترعوا على ضحيتين تذبح احداهما للرب « يهوا » وترسل الثانية محملة بالخطايا الى عزازيل رب الارض الخراب ، وشيطنة اليوم فى لغة المجاز مرادفة لمعنى العظمة التى تحتفظ بحق التضحيـــة لها وحمل القرابين اليها ، ولو كانت تساق الى عـــرش يستوى على مملكة الخراب

وليس بين أسماء الشيطان الاكبرالتى دخلتفىمدلولات اللغة ما هو اشهر ولا أدل من هذه الاسماء : الشيطـــان وابليس ولوسيفر وبعلزبول ومفستوفليس وعزازيل ،فهى اليوم كلمات وأعلام ، وقد اجتمع لها من معانى الشيطنـــة كل ما نستقصيه فيما يلى متفرقاعن تواريخ الاممو الديانات حول « قوة الشر الكبرى » أو قوة الشر العالمية ، فىموقفها أمام عوامل الخير والكمال

الشيطان

فى الحضارة المصرية

من أقدم الحضارات التى تمثلت فيها قوة الشر فى صورة شخصية مميزة باسمها وملامحها حضارة مصر القديمة

فمن اقدم عصور المملكة القديمة عرف المصريون حساب الروح بعد الموت وموازين الجزاء على الخير والشر والفضيلة والرذيلة وشروط البقاء التى تستوفيها الروح لتنعم بالحياة الابدية فى العالم الاخر . ولم يكن العالم الاخر عندهم مؤجلا أو منتظرا فى المستقبل بعد خراب هذا العالم الدنيوى ، ولكنه كان امتدادا للعالم الذى هم فيه وهو الديار المصرية ، وهو كارثة طامة لم يكن من اليسير عليهم أن يتخيلوها ويتخيلوا عالما قائما بعدها، وانماكانوا يتخيلون مصر عالمين دائمين فى كل وقت ، أحدهما ظاهر يسكنه احياؤهم والاخر باطن يسكنه موتاهم ، فاذا حدث الخراب فى الارض فانما هو عارض يجنيه الظلم على الحاكمين والمحكومين ثم يزول العارض وتعود البلاد سيرتها الاولى مع انتظام الحكم على سنن العدل والانصاف، وتأتى الحياة بعد الموت متصلة بالحياة على وجه الارض مستبقية لمطالبها ومآكلها ومشاربها فى ظل حكومة كحكومتها ، أو هى فى ظل حاكم خالد كان فعلا فى يوم من الايام حاكم الارض المصرية اثناء حياته الفانية

وفى كل أمة من الامم القديمة الكبرى يتناقل الكهان والشعب قصة عن نقمة الاله الاكبر على الجنس البشرى وندمه على خلقهم وتفكيره فى ابادتهم عقابا لهم على ذنوبهم،

وتختلف هذه الذنوب باختلاف الامم والكهانات ، فهى تارة مسألة تقصير فى الضحايا ، وتارة مسألة غيرة « الهية » من المعرفة البشرية ، وتارة أخرى مسألة فساد واشتغال باللذات الى غير ذلك مما سجلته قصص الخلق والعقاب فى جميع الاساطير الاولى ..

اما هذه القصة فى الديانة المصرية فهى قصة حاكم يغضب على المحكومين لانهم ثاروا عليه وهموا بخلعه لانهم استضعفوه وظنوا أنه شاخ وهرم فلم تبق فيه بقية للقدرة على ولاية الامور

وقد كتبت هذه القصة على جدران الحجرة الخاصة فى هيكل سيتى الاول الذى بنى حوالى سنة (١٣٥٠) قبل الميلاد ، وخلاصتها أن الاله الاكبر « رع » علم بتآمر البشر على العصيان فعقد مجلس الآلهة وشاورهم فى أمر هذه الفتنة ، فاستقر الرأى على ابادة العصاة ، وارسل الاله الاكبر عينه عليهم فالفاهم قد هجروا الديار ولاذوا بالجبال ، وتعقبهم جنوده فأثخنوا فيهم القتل حتى فاضت الارض بالدماء وبقيت منهم بقايا تتوارى هنا وهناك من زبانيته ، فحزن « رع » لانه أحس حقا بالعجز عن ابادة العصاة أجمعين وطفق بعض الارباب يواسونه ويقولون له: ان مشيئته وقدرته سواء ، فكل ما يشاء فهو قادر عليه

وتتم القصة على صورة اقرب الى الرفق والمسامحة فيقال فى ختامها أن « رع » سئم الكنود من رعاياه فأجمع نيته على الاعتزال والاقامة فى السماء ، فندم الناس على كنودهم وعصيانهم وتابوا اليه فلم يعدل الاله الاكبر عن نيته ولكنه أمر اله الحكمة « توت » أن يلقن الناس أسرار الحكمة وتعاويذ الوقاية من الآفات ومنها الهوام والثعابين وأن يهدى بها الى السلامة من هو أهل للهداية ..

وتروى قصة النقمة من البشر على روايات شتى يكثر فيها التناقض على ما هو مألوف فى الاســاطير الاولى ، فأشدها واصرمها هذه القصة التى نقشت على هيكل ملك يهمه أن يبالغ فى بطش الارباب ومصير العصاة ، وأقربها الى الرفق تلك الروايات التى تقول ان الارباب راجعوا الاله الاكبر وراح بعضهم يمزج الجعة بالاصباغ الحمراء ليحكى بها لون الدم ويزعم للارباب الساخطين أنه قد أريق منه ما يكفى للزجر والعقاب

وكانت فكرة المصريين الأقدمين عن قوة الشر او قوة الاله الشرير موروثة من أقدم العهود تتسم كما يتسم كل شيء فى مصر القديمة بالمحافظة الشديدة واستبقاء الكثير من مخلفات كل عصر سابق وكل عقيدة مهجورة ، فيكثر فيها الاختلاف والتناقض على حسب الحواشي والاضافات التى تلصق بها من كل حقبة مرت بها فى طريقها البعيد

ففى صورة اله الشر بقية من عبادة الاسلاف وبقية من امتزاج السحر بالعبادة وبقية من عبادة الشمس وبقية من تعدد الآلهة بين مصر السفلى ومصر العليا ، وفيها مع ذلك اثارات تدل على انها فى جملتها معلومات تاريخية واقعة عرض لها التشويه وانطوت فى عداد المجهولات التى يستدل عليها بالتخمين والترجيح

ومهما يكن من خلاف فى العقائد المصرية العريقة فالقاعدة المطردة فى تمحيص لبابها انها مشتملة ولابد على شيء يتعلق بكيان الاسرة وشيء يتعلق بكيان الدولة وشيء يقوم على الشريعة والعرف الاجتماعى ، أو على ما نسميه اليوم بالنظام ..

وعلى هذه الصورة تتمثل قوة الشر كما خلصت من الروايات المتعددة على طول الزمن ، فهو صورة الاخ الشرير

والحاكم المغتصب والمفسد الذى يعيث فى الارض ويخرج على العرف والعادة ، وهذه هى صورة الاله « ست » اله الظلام فى عقيدة الشعب المصرى على الاقل ، لان عقائد الكهنة كانت تخالف العقائد الشعبية فى تفصيلاتها ان لم تخالفها أحيانا فى الجملة والتفصيل

وقد مضى زمن كان فيه « ست » معدودا من آلهة الحق والاستقامة وكان الاله الموسوم بالشر هو «أبيب» الذى كانوا يرسمونه فى صورة حية ملتوية تحمل فى كل طية من جسمها مدية ماضية ، وتكمن للشمس بعد المغيب فلا يزال اله الشمس « رع » فى حرب معها ومع شياطينها السوداء والحمراء الى ان يهزمها قبيل الصباح فيعود الى الشروق ، وقد خصص الجزء التاسع والثلاثون من كتاب الموتى لوصف القتال بين الالهين اله الشمس واله الليل ، أو اله النور واله الظلام

وربما كانت القضية كلها فى اوائلها المنسية قضية النزاع على العرش بين أخوين هما أوزيريس وست ، وبقى لكل منهما حزب يعظمه وينتصر له حتى تغلب الحزب الظافر كل الغلبة فتضاءل أنصار الفريق المغلوب ، وشاعت عنه انباء الشر والتهمة وانتهى بتمثيله فى صورة « أبيب » اله الظلام وتمثيل أخيه فى صورة « رع » اله النور

ولا يبعد ان يكون فى الامر خيانة زوجية أو شبهة من قبيلها ، لان أسطورة أوزيريس تروى أن الاله « رع » فاجأ الملكة « نوت » زوجته وهى فى عناق « سب » فلعنها ولعن ذريتها وأقسم لا تلدن فى يوم من أيام السنة ، فلجأت الى الساحر الاكبر « توت » الذى كان مشهورا بعلم السماء وتسخير الارواح العلوية والسفلية فاخترع أيام النسىء الخمسة لتضاف الى السنة ، واستطاعت نوت أن تلد ولديها التوأمين اوزيريس وست فى اليوم الثالث من هذه

الايام ، وهي غير محسوبة من ايام السنة التي يطلعهـــا « رع » بعلمه كلما عاد من الظلام ، فخرج الولدان وفي أحدهما ـ أو كليهما ـ طبيعة الظلمة أو طبيعة النـــور المختلس بغير علم من اله النور

أما الرواية التي استقرت عليها قصة أوزيريس وست فهي ان الاخوين تنافسا فخدع « ست » أخاه وصنع له صندوقا أغراه بالنزول فيه ليقيسه على جسده ، ثم قتله ومزقه وألقى أشلاءه في النيل ، فجمعتها ايزيس ـ زوجة أوزيريس ـ بمعونة الساحر توت ، وبوأته عرش المغرب فهو من ثم رمز للشمس في حالة الغروب

وهناك رواية اخرى لعلها هي الارجح والاقدم في التاريخ وخلاصتها أن « ست » لم يقتل أوزيريس ولكنه نازع ابنه « حوريس » فتغلب عليه هذا وخصاه ليحرمه ويقطعه عن الملك في حياته وبعد حياته ، ولم يكن للاله المغلوب من مكان يعبد فيه غير أقصى الجنوب في مكان « كوم امبو » اليوم حيث كان معبد التمساح

ومما يرجح ان القضية في اوائلها المنسية كانت قضية نزاع على الملك ان اسم « ست » محي من الهياكل بعد زمن وأن أتباعه لاذوا بالجنوب حيث يلوذ كل حاكم منهزم في عاصمة المملكة الشمالية ، وان ملوك الرعاة أعادوا لـ «ست» كرامته حين أرادوا أن يحاربوا السلطان القائم ، فبنوا له هيكلا في مصر السفلى وأوجبوا عبادته هناك ..

وقد أستعيرت صفات « ست » من صـــفات أوزيريس على التناقض والتقابل بين الطرفين ، فكان من صـــفات أوزيريس « انه ملك الخلود وسيد الباقيات وأمير الارباب والناس وآله الالهة وملك الملوك ، وسيد العـــالم الذي لا يفنى سلطانه »

أما صفات « ست » فهي نقيض الخلود والسيادة على

الارباب والناس ، فلا سيادة له على غير الارواح الخبيثة والاحياء الدنيا ، ومن ثم يصوورونه براس حيوان مجهول لايراد به تمثيل حيوان معين ولكنه يمثل الحيوانيـــة فى صورتها المبهمة ، ويجعلون له اذنين منتفضتين كناية عن الاسراع الى استطلاع الشر ، وذنبا شائلا كناية عن الحران والاشر ، ويعودون عليه باللائمة كلمـــا أصيبت الدولة بالهزيمة أو أغار على البلاد مغير مغتصب ، لانهم شخصوا فيه عوامل التمرد والانتفاض فربما كان هذا من اسباب حظوته عند ملوك الرعاة فاعتبروه عونا لهم وخصـــما للسلطان الزائل الذى أغاروا عليه ، وأحبوا أن يتقربوا الى عباده فى الجنوب تمهيدا لضم الاقاليم جميعـا فى مصر العليا الى دولتهم التى استقرت بمصر السفلى زمنا وتوقفت عندها جهودهم قبل اجلائهم آخر المطاف عن الجنوب والشمال

ومن أصالة الصبغة الحكومية أو صبغة الحكم والتحكيم فى أقدم المأثورات المصرية أن الاساطير العريقة فى القدم تروى لنا من أخبار خصومة ست وأوزيريس ان « ست » اتهم أخاه بالجور عليه فوكلت الارباب قضيتهما الى أمينها الخاص الذى يعرف اسرارها ويحفظ حكمتها ويؤتمـن على قضاياها ـ وهو الاله توت ـ فتبين له صـــدق أوزيريس وكذب ست ، وخرج هذا مدينا بالذنب والشر من زمرة السماء ، فما برح كل مصرى فى الزمن القديم يتقرب الى اله الحكمة عسى أن يتولى الدفاع عنه بعـد الموت وينصفه فى قضيته كما انصف أوزيريس من أخيه المفترى عليه ..

وقد شغل « ست » وظيفة ضرورية فى عهود الازمات التى تنهزم فيها الدولة وتنضب الثروة ويختل نظام الحكم وتضطرب مرافق المعيشة . فقد كان «ست» يبوء وحده بجريرة ذلك كله ، وكانت عليه وحده تبعة كل آفـــة

لايستطاع دفعها ، ومن هذه الافات ريح السموم وعوارض الجفاف والقحط واوبئة المرض وسائر الامراض التىكانت تنسب من قديم الزمن الى الجان والعفاريت ، وقد كانت عليه التبعة ايضا فى بقاء السحر الخبيث لانه كان علىعلم واسع بفنونه ولم يكن فى وسع الكهان والسحرة أن يعالجوا شروره ويبرئوا المرضى من آفاته بغير وسائله واسراره ،

ولهذا كثرت عندهم التمائم والتعاويذ ومنها ما بقى الى اليوم فى صور الجعل والحشرات والاساور والقلائد التى لا تصنع للزينة ولكنها تقرن بالادوية والعقاقير طلبا للشفاء، ويقول الاطباء الذين كانوا يشتغلون بالطب والسحر أن الدواء هو الذى يشفى ويبرىء من المرض ولكن التمائم والتعاويذ هى التى تمنع « العكوس » من فعل ارواح الشر وأطياف الظلام ..

وقد كان الفراعنة أنفسهم يلجأون الى السحر لمغالبة الارواح الخفية ، فاستعان رمسيس الثانى بأصحاب التمائم والتعاويذ على مداواة أهل بيته ، ولم يفعل ذلك جهلا منه بالطب ولا تعظيما منه لقدر السحر ، ولكنه فعله ايمانا بضرورة اختيار الترياق من جنس المرض ، ولكل شىء آفة من جنسه كما قيل من قبل ويقال فى كل زمان

ولدينا من بقايا قصص السحرة نخبة لم يتخيرها جامعو الآثار ، ولكنها اجتمعت لهم من حيثما اتفق بين الانقاض والمحفورات ، وكلها تروى أعمال السحرة فى مجازاة الاشرار كقصة الساحر « أبانير » أى فائق الصخر الذى استخدم سحره فى الاقتصاص من عشيق زوجته فصنع على يديه تمساحا من الشمع أرسله فى البركة التى يغتسل فيها العشيق فالتهمه وذهب ليبلغ الملك نبأ هذه العقوبة كى تحدث فى ملكه بعلمه واقراره ، ومن لم يكن سحره قصاصا من المسيئين اليه والى الفضيلة فهو من قبيل

« خفة اليد » التى يستخدمها الساحر لاستخراج النفائس المفقودة كما فعل الساحر « خاتشا منخ » حين سـقط الخاتم من اصبع احدى الجوارى المصاحبـات للملك «سنفرو» فى زورقه فحسر الساحر الماء وكشف عن ارض البركة حيث استقر الزورق الى جانب الخاتم المفقود ثم تلا الساحر عزائمه فتلاقى الماء من تحت الزورق ورفعه رويدا رويدا حتى استوى على البركة كما كان

يقول صاحب كتاب صناعات السحر فى مصر القديمة :

« ان السحرة المصريين كانوا على علم تام بازوم الفضيلة والطهارة للساحر الطبيب ، وفى اعتقادهم على الدوام ان الالهة انما يقترب منها كل طاهر القلب سليم النية ، وكانوا ينشأون على الايمان بأن العبث ومطاوعة الشهوات تجور على العقل والبدن وتعوق طالب المعرفة » (١)

ومن أجل هذا كانوا يقسمون علم الاسرار الى أقسـام ودرجات ، فمنها العلم الذى يستعان فيه بقدرة اله الخير على الشر وجنوده ، وقوامه الصلوات والرياضيات الروحية

ومنها العلم الذى يستعان فيه بقدرة الشيطان الكبـير على الشياطين الصغار ، وقد يدخل فيه السحر الخبيث بحكم الضرورة على غير اختيار

ومنها السحر الخبيث للاغراض الخبيثة ، ولا يليـق بالكهان الابرار ان يشتغلوا به وان وجب عليهم ان يتعلموه لاتقاء ضرره والتعوذ من سوء عقباه

ويمكن أن يقال على الجملة أن الشر فى العالم كله انما كان فى عرف الحضارة المصرية « جريمة اجتماعية وطنية » غير مشروعة ولم يكن عنصرا أصيلا فى تركيب الدنيا أو تركيب الانسان ، وقد بلغ من تطور هذه العقيـدة فى

---

(١) « The Occult arts of ancient Egypt » : by Bernard Bromage

تفكيرهم الديني أن أخناتون استغنى عن الجحيم ، وأنكر دعوى أوزريس في السيطرة على عالم العقاب بعد الموت

ولا نظن أن تاريخ « ست » قد استوفى حتى اليوم دراسته المثلى في علم الاثار أو في علم المقابلة بين الاديان ، فان الذى عرف منه الى يومنا هذا يسوغ القول بكثير من الفروض والاحتمالات التى كانت تلوح للنظرة الاولى ضربا من الخيال او اللعب بالجناس ، ولا نعنى تسويغ القول بها أنها ثابتة أو أنها راجحة مقبولة على علاتها ، ولكننا نعنى أنها فروض واحتمالات لا ترفض ولا يزال من يرفضها محتاجا الى سند وثيق

فالمؤرخ بلوتارك يذكر في كتابه « ايزيس وأوزيريس » أن «ست» كان يلقب «ببيبون» وأن هذا اللقب معناه العقبة المعترضة في طريق يفضى الى الخير لتتحول به الى الشر ، ويقول في الفصل الثامن والعشرين ان الاساطير تروى أن اليهود هم أبناء «ست» من أتان ، ويعلق المؤرخ « اوليفيه بيرجارد » على ذلك في كتابه عن الارباب المصرية فيقول ان هذه الاسطورة أصل الخرافة التى شاعت في تقديس اليهود في هيكلهم لراس حمار (١) .. ويقول غيره بين الجد والهزل أن شمشون حاربهم من اجل ذلك بفك حمار ، وانهم لهذا يتبركون بالمخلص الذى يأتى على حمار ابن أتان

وقد تكرر القول بأن كلمة « ست » و « ستان » أو الشيطان العبرية من أصل واحد ، ولا نزاع في اقتباس اليونان والعبريين من المصريين في تصوير « الشخصيات » العلوية والسفلية ، فليس من الاناة أن نجزم ببطلان التشابه في اللفظ بين الفرعونية والعبرية مع عبادة الملوك الرعاة للاله الفرعوني كما تقدم ، وليس من الاناة ان نجزم ببطلان التشابه بين مدلول اسم ست عند المصريين ومدلول

---

(١) صفحة ٢٠٥ من كتاب الارباب المصرية :

« Les Divinités Egyptiennes » par Beauregard

اسم الشيطان« Diabolos » باليونانية ، وكلاهما يفيد معنى الاعتراض والدخول بين شيئين للتعويق والافساد ، وقديما شاعت نحلة ايزيس وأوزيريس وغيرهما من الالهة المصرية بين بلاد اليونان فى اسيا الصغرى وبين الاثيوبيين واليمانيين فى الجنوب ، وقال ديودور الصقلى انه راى فى « نيسا » من بلاد العرب عمودا لاوزيريس وشيئا من قصته ملخصاعليه

وقد ختم الاستاذ بورجارد كتابه الذى أشرنا اليه آنفا عن الارباب المصرية قائلا ان النحلة المصرية نقلها العبريون من مصر الى الشام واليمن ، ونقلها الاغريق الى اليونان ونقلها الفينيقى قدموس الى اليونان والى بلاده ، وأن أعظم العقول اليونانية كانت تهاجر الى مصر لتدرس المعرفة المصرية فى طيبة ومنف وعين شمس وسايس ، وعدد منهم ليكرج « Lycurgos » وصولون وطاليس وفيثاغورس وافلاطون وأيدوكس ، وعدد بعدهم أمما من تلميذات الثقافة المصرية بين أهل الكتاب وغير أهل الكتاب، ولاشك فى شيوع عقيدة الثواب والعقاب وعالم الابرار وعالم الاشرار فى الديانة المصرية القديمة ، فليس من الغريب ان تتخلف منها بعض المصطلحات والمسميات ، وليس من الاناة على الاقل أن ينتهى تاريخ «ست» حيث انتى فى هذا الموضوع ، وقد قيل أن العزى هى ايزيس ، وأن مناة هى منوت أوموت ، وأن النصوص متقاربة بين بعض المزامير وبعض أناشيد أتون ، وأن أيوب عليه السلام كان يسكن الى جانب مصر ويتحدث عن أهرامها التى تبنى لتخليد الموتى ، ويكافح الشيطان الذى يوسوس له ويغريه بالكفران والعصيان ، وأقل من هذه الملابسات حقيق بالتريث عنده وترك الباب مفتوحا بعده لما تأتى به الكشوف وتسفر عنه المقارنات

الشيطان

فى الحضارة الهندية

ترجح فئة من علماء المصريات أن الديانة الهندية القديمة دخلتها مقتبسات كثيرةمن ديانة المصريين الاوائل، ويرى برستيد واليوت سميث أن معظم هذه المقتبسات من كتاب الموتى ، ومن شعائر تقديس الملوك التى يستطاع التحقق من سبق الحضارة المصرية اليها

ويرد ذكر مصر فى كتب البورنا التى جمع فيها الهنود الاقدمون قصص الالهة وبعض الملاحم الكونية المتوارثة عن آبائهم الاولين .

ولكن طبيعة الديانة الهندية تقرر الحدود التى بلغتها تلك المقتبسات ولا يمكن أن تذهب بعيدا الى ما وراءها ، فهى لا تكون بطبيعة تلك الديانة الا من قبيل الشعائر والمراسم ولا يتأتى أن تتخطاها الى أصول الديانة فى جوهرها ، اذ كانت الديانتان الهندية والمصرية على اختلاف كاختلاف النقيضين أو الطرفين المتقابلين ، ولو أراد احد ان يضع ديانتين يتوخى فيهما التقابل فى العقائد الاساسية التى تدور عليها كل ملة لما استطاع ان يبلغ فى هذا التقابل ما بلغه أهل مصر وأهل الهند فى العهود المتتابعة على غير قصد بطبيعة الحال .

والعقائد الاساسية التى تدور عليها كل ملة تتناول وجود الانسان ونظام المجتمع ووجود العالم كله او الوجود على اطلاقه ، وفى هذه المسائل الثلاث تقف الديانتان العريقتان موقف التقابل من طرف الى طرف ، كأنهما

عامدتان الى تصوير سعة الافاق التى تحيط بالعقائد فى ضمائر بنى الانسان

فالديانة المصرية تصون جسد الانسان وتستبقيه الى الحياة الابدية ، والديانة الهندية تنكر الجسد وتعلم اتباعها ان الروح تنسخ جسدها مرة بعد مرة ولا تنال الخلاص الا اذا فنى الجسد كل الفناء

والديانة المصرية تعتبر دوام الاسرة آية من آيات النعمة الالهية ولا تعرف دعاء الى خالق السكون أحب الى الداعين من بقاء تراث الآباء والاجداد واتصال العقب الى آخر الزمان ، وعلى نقيض ذلك ديانة الهند التى تعلق النجاة بالافلات من دولاب الحياة والموت والرجوع الى « النرفانا » من طريق « الموكشا » أى اجتناب العلاقة الجنسية ولو فى حالة الزواج

وتؤمن الديانة المصرية القديمة بأن العالم المحسوس حق وخير فتجعله مثالا لعالم الخلود ، وعلى نقيض ذلك ديانة اهل الهند التى تحسبه شرا محضا وباطلا موهوما ومنبعا لجميع الشرور التى تعترض عالم الحقيقة وتشغل الروح بالاعراض والقشور

ويكفى هذا الاختلاف بين الديانتين لامتناع التشابه بينهما على الخصوص فى مسألة الشر وقوة الشر وعلاقة هذه القوة بنواميس الكون الخالدة سواء منها ما يتمثل فى صورة « الذات » الالهية او ما يتمثل فى الناموس الاعظم أو « الكارما » الذى ليس له ذات

على ان الديانة الهندية تحير علماء المقارنة بين الاديان اشد الحيرة فى أمر « الشخصية » التى تقابل شخصية الشيطان أو قوة الشر العالمية عند أصحاب الديانات الاخرى ، واسباب هذه الحيرة متعددة لا يصادفها العلماء

بهذه الكثرة وبهذه الصعوبة فى غير الديانة البرهمية وما تفرع عليها ..

من هذه الاسباب ان الهنود الاقدمين قد تعاقبوا على البلاد بعقائد مختلفة يوشك أن تتناقض بين قبيل وقبيل من السابقين واللاحقين ، وربما تعمد القادمون ان يهدموا عقائد من تقدمهم فلا ينجحوا كل النجاح ولا يتركوها سليمة من التضارب والاختلاط ومن ذلك فى هذا الباب عقيدتهم فى العفاريت الخبيثة او العابثة التى يسمونها بالـ « راكشا » وينسبون اليها اعمالا كأعمال الشياطين فى الديانات الاخرى ، فان الباحثين فى اشتقاق الكلمة يقولون تارة انها تفيد معنى الحراسة ويقولون تارة اخرى انها الاسم الذى كان يطلق على الهمج الاولين الذين سكنوا الهند قبل أغارة الآريين عليها ، وكانت لهم حراسة على الطرق وعلى ينابيع الماء ، وقد رسخ فى الاذهان من احاديث القتال بينهم وبين الآريين انهم اعداء البشر وانهم يتربصون بالناس كما يتربص الناس بهم فى كل مكان ، فلا ينجو أحدهم من الآخر حيث أصاب الغـرة منه ، ثم تطاول الزمن فانقسموا فى أساطير العامة الى أقسام ثلاثة : احدها يشبه ارواح « الباكشا » البريئة التى تهيم على وجهها ولا تؤذى أحدا الا ان يتعرض لها ، والثانى يشبه العصاة المتمردين من الجن ويعادى الانسان الد العداء ، والقسم الاخير يلوذ بالمقابر والصوامع ويحالف الموت والخراب ، ويقول من يزعمون رؤيتهم انهم مشوهون ، بعضهم ذو راسين وبعضهم ذو ثلاث ارجل ، ومنهم من له عين واحدة فى راسه ومنهم من له عدة اعين ، وكلهم على خلاف البشر فى التركيب

ولا ينسب الى هؤلاء « الراكشا » عمل من اعمال الاغراء والاغواء ولكنهم قد يغتصبون النساء عنوة ويتلصصون

فى الطرق المقفرة ويستبيحون الاذى للكيد أو للعبث والدعابة ، ورئيس هؤلاء « الراكشا » المسمى « رفانا » هو الذى اختطف الحسناء « سيتا » زوجة البطل «رام» كما جاء فى ملاحم « الريجيفيدا » ثم حملها الى جزيرة سرنديب ولم يستطع زوجها ان يهتدى اليها ويخرجها من اسرها الا بمعونة القرد هنومان

فالشياطين فى صورة « الراكشا » هم « الشر » الذى ابغضه الآريون وصوروه لابنائهم فى الصورة التى تنفرهم منه وتحذرهم من كيده ، واتهم عندهم بما يتهم به كل شعب مهزوم يستأصله اعداؤه ويدفعون به الى اقاصى الارض وزوايا المدن ويستثيرونه احيانا من فرط الظلم فيثور ويهملونه احيانا فيهيم على وجهه عاجزا عن الاذى قانعا بالسلامة او متحفزا للانتقام

***

والى جانب التتابع فى الديانات والاقوام المغيرة على البلاد يقوم السبب الشامل فى جميع العهود ولا سيما العهود الاخيرة التى تطورت فيها فلسفة الهياكل ووجد فيها الكهان المفسرون والمفكرون على اعقاب الكهان المتنسكين او الدهاة المتحكمين ، ففى هذه العهود الاخيرة تمكن الاعتقاد ببطلان العالم المحسوس وغلبة الشر على طبيعة الوجود كله فلم يكن فى « الوجود » الشرير محل خاص لقوة تفسده وتدحض فيه الحق أو تنقض فيه الخير ، وما فيه من حق ولا خير الا أن يفارقه الصالحون الناجون بأرواحهم الى عالم الفناء

وقد اشتمل الثالوث الابدى فى الديانة البرهمية على ثلاثة ارباب هم « براهما » الاله فى صورة الخالق و « فشنو » الاله فى صورة الحافظ و « شيفا » الاله فى

صورة الهادم ، فكان الهدم ــ من ثم ــ عملا ربانيا يقوم به الاله فى صورة من صوره وينصف به الحق من هــذا الوجود الباطل الذى ينبغى ان يزول ليمهد سبيل الطهارة والصفاء ، وبهذه المثابة يضيق مجال الشيطان ولا تمس الحاجة اليه فى نظام الوجود

ومن الصعوبات التى تحير علماء المقارنة بين الأديان ان التناسخ أو تعدد الصور للروح الواحد عقيدة عميقة متشـــعبة فى الديانة البرهمية وفروعها ، فليست هى مقصورة على الانسان فى ادوار حياته المتعاقبة ولا على الحيوان فى اشكاله المتنوعة بل تمم الوجود كله من الارباب العليا الى ما دونها من الحيوان والنبات حتى الجماد ، ولهذا يتفق ان يكون للاله صور متعددة تقترن النعمة ببعضها وتقترن النقمة بغيرها ، فيدين اناس للاله «شيفا» على انه مصدر الخير وقائد الارواح فى طريق الفناء الى حظيرة « الوجود » الاسنى ، ويرهبه اناس آخرون على انه سلطان الغضب والنكاية فلا رحمة عنده ولا موئل من قصاصه وتقلب اطواره

وليس تعدد الصور كل ما يواجه العلماء من اسباب الحيرة وتناقض الصفات فى الاله الواحد ، بل هناك سبب آخر يضاعف هذا التعدد ولا يمنع « الشخصية » الربانية الواحدة أن تتولى أعمال العدد العديد من الشخصيات الربانية فى معظم الديانات ، وهذا السبب هو اضافة الـ «شاكتى» أى قرينة الاله الانثوية الى وظيفته فى المسائل الدنيــوية

فكل اله له « شاكتى » بمعنى القرينة او الزوجة ، هى التى تنوب عنه فى « شئون الدار » أو فى الشئون التى يتركها ولا يتفرغ لها ايثارا للعمل فى الآفاق العلوية

وتعود الاقاويل الى « الشاكتى » فتجعل لها طبيعتين :

طبيعة بيضاء منها الرفق والرحمة ، وطبيعة سوداء منها العسف والقسوة ، وقد تتسمى الطبيعة الواحدة باسمين فتصبح « الشاكتى » الواحدة ذات اربعة اســـماء غير اسمها الاصيل ، وعلى هذا المثال تسمى قرينة سيفا اله الشر باسمها الاصيل « ماهسوارى » ثم تسمى باســـم « اوما » واسم « جورى » حين ترجى منها الرحمةوالمودة وتسمى باسم « جورى » واسم « كالى » حين تخشى منها النقمة وسوء النية ، واسم كالى الاخير هو الاسم الذى يعرفها به عبادها الذين اشتهروا باسم الخناقين واتخذوا شعارهم فى القرابين البشرية قتل الضحايا بغير أراقة الدماء ٠٠

وقد عاشت جماعة الخناقين زهاء ستة قرون تتعبد للالهة « كالى » بخنق ضحاياها والتقرب بأسلابهم على محاريبها ، وتتخيل هذه الالهة على مثال امرأة عابســـة تحيط خصرها بنطاق من الجماجم والسكاكين وتحمى كل من يطيعها ويتقرب اليها بتلك القرابين ، وعقيدتهم فى ذلك ان الاله « فشنو » يحافظ على الاحياء فيتكاثر عددهم ويعجز الاله « شيفا » عن ملاحقته فى مهمة الابادة والافناء، فيستعين « بالشاكى » كالى على هذه المهمة ويتزلف اليها عبادها بالمعونة على القتل مع اجتناب سفك الدماء لان الدم الذى يراق على الارض تتولد منه الحياة

وجماعة الخناقين هـــذه طائفة قليلة بين الملايين من الهنود الذين ينكرون عبادتها ويسفهون احلامها ويحرمون قتل الحيوان ، بل قتل الهوام والحشرات ، فضلا عن الانسان ولكنهم لا ينكرون ربوبية « كالى » ولا يتركون عبادتها على النحو الذى يرتضونه ويحسبون انه اقرب

الى رضاها ، ومن ذاك انهم يترهبون أو يكفون عن النسل فيرضونها بغير حاجة الى قتل الابرياء

وتلك الاسباب فى جملتهاهى التى تحيرعلماءالاديان كلما أرادوا ان يحصروا الشر فى « شخصية شيطانية » تنعزل بقوتها عن القوى الالهية فى اقانيمها المتعددة

ولكنهم يثوبون فى النهاية الى عقيدة واحدة مشتركة بين النحل والمذاهب ولا حيرة فيها عند تصوير الشر فى صورته الكونية الشاملة ، وهذه العقيدة هى الايمان بأن العالم المحسوس شر وباطل وان كل ما يربط الانسان به شر وباطل مثله ، وتشتمل روابط الانسان بالعالم المحسوس على كل مطمع وكل شهوة وكل امل يفتنه بلذة من لذاته او قنية من مقتنياته ، وتتجمع هذه الفتن قاطبة فى « المراة » لانها سبيل الروابط الدنيوية التى تقيدالحى بالدورات الابدية فى دولاب الولادة والموت ، وان لعنة الموت لتلاحق كل من يولد ويلد حتى ينقطع عن النسل ويثوب الى « النرفانا » بغير علاقة ترده الى هذا العالم المحسوس .. ومن ثم يفضى به المطاف فى الآباد المتطاولة الى غاية كل مطاف من الفناء والسلام

ويلاحظ انهم يحيلون الامر على « الانوثة » كلما عرضوا لعمل من اعمال الارباب ينزهون عنه الالهة ويلحقونه بالشواغل الدنيوية الارضية

ويلاحظ كذلك انهم يقولون عن العالم المحسوس كله انه « مايا » أو وهم وضلالة ، وانهم يصورون هذا «المايا» فى صورة انثى شديدة الفتنة والغواية ، ويمثلون جمال العالم المحسوس بجمال الانثى التى تستعين بالغريزة الجنسية على خداع المفتونين عن الحقيقة .. فيحسبون اللذة نعمة تبتغى وهى شقاء ابدى لا يؤدى الى غير شقاء

وليس فى الديانة الهندية وفروعها المتشعبة شخصية واحدة تشبه شخصية الشيطان غير الرب الذى يسمونه « المارا » من الموت ، ويقولون انه يسيطر على السماء السادسة وما دونها من العوالم الارضية ، وكأنهم جمعوا فيه فتنة الحياة الدنيا مشخصة معروفة باسم واحدبدلا من تعميم القول على الفتن التى تساور النفس ولا تتمثل لها ذات فى الحس او الخيال

وهذا « المارا » هو الذى قيل فى قصة « بوذا » انه وسوس له والح فى وسواسه ليشغله عن النسك ويصرفه عن مسلكه من الحكمة وهو مسلك الزهد والاعتدال

فالشر الكونى هو الشر النفسي الذى يخامر الضمير ويزين له ترك الحكمة والاقبال على الاوهام والاباطيل

وديانة الهند على هذا لم تبتدع شيطانا او ارواحا شيطانية غير الارواح التى يسمونها بالراكشا ويردونها الى الشراذم المشردة من ابناء البلاد الاصلاء الذين صمدوا للاريين زمنا ثم استكانوا على مضض وتربص او على هوان واستسلام ..

اما « الشيطان الكونى » فهو مرادف للفتنة وكل ما يغرى النفس بمطامع الحياة

ويصعب على المتتبع للاعمال التى تنسب الى بعض الآلهة والاعمال الهامة التى تنسب الى الشياطين الهادمة او المعادية للجنس البشرى ان يفرق بينهما بغير الرجوع الى النيات ، فقد تتشابه فى الهدم ولا تفترق عن القصد والنية ، فما كان هدما للقضاء على مطامع الدنيا وحبائلها فهو خير ، وما كان هدما للتنافس على هذه المطامع والوقوع فى هذه الحبائل فهو من عمل الشيطان كيفما كان الاسم الذى يطلق عليه

الشيطان

بين النهرين

ظفرت « بلاد النهرين » بعناية من المؤرخين الدينيين وعلماء المقارنة بين الاديان لم يظفر بها قطر آخر . لانها ميدان للبحث لا يضارعه ميدان اخر فى اتساعه وامتداد تاريخه وتعدد اقوامه وتيسر البحث فيـــه لنوعين من المقارنة يندر جدا أن يتيسر فى رقعة اخرى من الـكرة الارضية ، وهما مقارنة الاديان ومقارنة الاجناس فى وقت واحد ، اذ كان وادى الدجلة والفرات وطنا قديما فيـه الآريون والساميون والطورانيون ، وسواء صـــح ان السومريين الذين اقاموا فيه زمنا قد وفدوا اليه من الصين أو لم يصح هذا القول الغالب فقد صـــح ان « زرادشت » نبى المجوسية عاش بين الطورانيين والمغول حقبة من الزمن ووفق بين عبادتهم وعبادة الثنـــوية المجوسية بعض التوفيق ..

وهذا التعدد فى السلالة يصاحبه تعدد آخر فى الاحوال الاجتماعية بين مجتمع المدن ومجتمع الرعاة ومجتمـع الزراعة الدائمة ومجتمع الزراعة المتنقلة ، وبين اناس يبنون الهياكل واناس لا يعرفون البناء ، أو أناس يعبدون النار والكواكب واناس يلصقون عبادتهم بالارض ومعالمها ، وعناصر الطبيعة التى تهيمن على ارزاقهم ومساعيهم

وتتضاعف العناية بالديانات التى نشأت بين النهرين لسبب غير هذه الاسباب يهتم به الاوربيون واتباع الاديان الكتابية على العموم ، لان مراجع الاديان الكتابية تبتدىء

فى بلاد النهرين منذ عهد ابراهيم الخليل الى عهد الشريعة الموسوية وشريعة حمورابى الى عهد السبى واختلاط بنى اسرائيل بالبابليين والميديين واقتباسهم ما اقتبسوه منهم فى العرف الدينى والشعائر التى لها اتصال بمراسم العبادة ثم تأتى عبادة « مترا » وعبادة « المانوية » وقد زاحمتا المسيحية مزاحمة شديدة فى دولة الرومان من شواطىء آسيا الى الجزر البريطانية

فالعقائد الدينية التى نشأت قديما حول بلاد النهرين لم تزل محور البحث ومرجع المقارنة والاستشهاد فى جميع الديانات الكبرى ، وأولها المسيحية التى يدين بها الاوربيون وهم اول من درس المقارنة بين الديانات على النهج الحديث

ونحن فى هذا الفصل لا نقصر الكلام على البلاد التى تحصرها الاوضاع الجغرافية بين النهرين ، ولكننا نمضى معها الى حدود الحضارة التى تأثرت بها أو اثرت فيها من وراء النهرين شرقا الى أرض فارس ، ومن ورائها غربا وجنوبا الى الاقطار العربية أو الاقطار السامية التى كان لها اتصال بالدولة القائمة فى بابل واشور ، ولا حاجة بنا ـ فى هذا الفصل ـ الى استقصاء العقائد والشعائر فى هذه الرقعة الواسعة من المساكن والسكان ، وانما ننظر الى عقائدها وشعائرها من جانب الصلة بموضوع الكتاب وهو الكلام على « الشيطان » أو قوة الشر العالمية ، وقد كان لحضارة النهرين صلة وثيقة بجميع الامم التى دخلت فى عداد المؤمنين بالاديان الكتابية ، فليست فى حضارات العالم حضارة أحق بالدراسة فى هذا الصدد من الحضارتين البابلية والفارسية ، وكلتاهما تدخل فى العنوان الشامل الذى نطلقه على اقطار « ما بين النهرين » بشىء من التجوز من الوجهة الجغرافية ، وبغير تجوز من الوجهة الثقافية

فنحن نرجع الى « بابل » لفهم التطـــور فى معنى «الخطيئة» مميزا من معنى الذنب أو العيب او الرذيلة أو الجريمة ..

ونحن نرجع الى « فارس » لفهم التطـور فى مذهب « الثنوية » أو النزاع بين سلطان الخير وسلطان الشر فى الاكوان العليا والسفلى ، ومنها الكرة الارضية

اذا كنـا نعرف للحضارة المصرية صبغة نلتمسها فى جميع مظاهرها وهى صبغة الحكم والشريعة ونظام الدولة، فالصبغة التى تغلب على حضارة بابل ــ على هذا النحو ــ هى صبغة التنجيم والازياج الفلكية ، وسنرى ان علمـاء المقارنة بين الاديان لم يلتفتوا الى هذه الناحية فى علاقتهـا بفهم المقصود من معنى « الخطيئة » مع انها ــ على مانرى ــ لا تفهم حق فهمها ما لم تبتدىء من هذه البداية

لقد عرف البابليون رصد الكواكب من اقدم الازمنة ، وعلقوا مصائر الناس واقدارهم بسعودها ونحوسها ، فلا يسعد أحدهم بنعمة السماء ولا يشقى بغضبها الا وهو فى الحالتين عرضة للقضاء المسطور فى ازياج النجوم

وقد نشأ عندهم علم الفلك بحسابه وتقديره مصاحبا لعلم التنجيم بخرافاته وأوهامه ، ولم تكن كل هــذه الخرافات والاوهام خداعا من الكهان السحرة ، بل كانت عندهم عقيدة يصدقونها ويمزجونها بالقصص والالغـاز التى يدركها العامة ولا يدركون ما وراءها

وما من قصة بلغتنا من أرض بابل فى تاريخها القديم الا وهى قصة من قصص المناظرة بين الارض والنجوم فى شكل من الاشكال التى يفتن فيها الحس والخيال

فربة الارض « تيامات » تتحدى السماء فتستعين

بالطوافين على حكم أقطارها وتخلق من جوفها الحيات والحيتان لتوطيد سلطانها ، وبرج بابل يقيمه المتمردون من البشر ليرتفعوا به الى مناجزة الارباب فى سماواتها ، وكل ثورة من ثورات الاساطير المزعومة فانما هى فى مدلولها خروج من الارض على ارادة السماء لاتلبث السماء ان تكبحه وتروضه على الطاعة الواجبة ، وعلى التسليم لها بحقوق الصلاة والقربان

فلم يكن للبابلى من هم فى سره وعلانيته الا ان يستطلع ارادة النجوم ويخرج بالاذعان لها وموافقة هواها ليخرج من عداد « المنحوسين » الى عداد السعداء

ويسأل العارفين بالتنجيم : ماذا تريد النجوم ؟ وماذا كتب لى فى كتابها المرقوم ؟ فما كان رضى للنجوم فهو الفلاح والنجاح ، وما لم يكن رضى لها فهو الخيبة والضياع

لم يكن الامر هنا امر الحسن والقبيح او امر الصلاح والفساد أو امر الاستقامة والاجرام ، كلا .. وانما هو أمر الرضى من كواكب السماء بما يوافق المسطور المكتوب او أمر الغضب الذى يحيق بمن يخالف قضاء الكواكب فى مجراه ..

والفارق بين الامرين انما هو الفارق بين الموفق السعيد والخائب المنحوس ، أو بين من يسلك سبيل السلامة ومن يقترف حماقة الخلاف بغير رجاء

وينبغى أن نفهم هذا الخلاف بالمعنى الذى يميزه من معنى الذنب ومعنى العيب ومعنى الرذيلة ومعنى الجريمة ، فانه يباينها فى طبيعته ولا يتأتى للانسان ان يعرف موضع التحريم منه الا اذا عرف مشيئة الله فيه ، وليست الذنوب او العيوب او الرذائل او الجرائم بهذه الصفة الخاصة

بين المحرمات ، لان الانسان قد يعرفها ببداهته أو بتعليم المجتمع الذى يعيش فيه

فالذنب اساءة قد يجنيهـا الانسان على من هو مثله أو من هو دونه وقد يصاب بها كما يصيب ، فهو مسألة انصاف أو اجحاف فى المعاملة

والعيب نقص يعتري الانسان من عجزه أو جهله ، فهو مسألة كفاية وقصور

والرذيلة اسفاف يتورع عنه صاحب الفضيلة الذى يروض نفسه على الكمال ، فهى مسألة كرامة وابتذال

والجريمة عدوان بغير الحق يتعارف الناس على انكاره ومجازاة فاعله ، فهى مسألة قانون وقضاء

اما الخلاف الذى يسمى «خطيئة» فيكفى فيه ان يعمل الانسان ما لم يرده الاله ولو لم يكن من ورائه ضرر يعلمه، لان الخلاف قلة ايمان بالمشيئة الالهية ، فهو مسألة أدب او سوء أدب مع الله

ولفهم الخطيئة على هذا الوجه مشابه فى علم السحر والكهانة تقربه من الاذهان على نحو سائغ فى كل تعليم . فليس من أدب التلميذ الذى يتلقى خفايا السحر والتنجيم ان يجترىء على كشف القناع عن سر يحجبه المعلم الى حين ، وعليه ان يغمض عنه عينيه ثقة منه بما يختاره له معلمه من درجات المعرفة على حسب مواقيتها المقدورة ، فان خالفه يوما متعجلا أو مستريبا فهذا الخلاف سوء أدب أو جهل يخرجه من عداد الصالحين لعلم الاسرار

وهذا رسم الخطيئة بين سائر المحرمات ! رسمها انها تحريم يناط بمشيئة الله ولا يطلب من العباد ان يتجنبوه لسبب غير هذه المشيئة ، وان خفيت عليهم وجوه الحكمة فيها ..

وقد أورد برتشارد (١) فى كتابه عن شعائر الشرق الادنى الغابرة وعلاقتها بالعهد القديم ، نماذج من الصلوات البابلية المحفوظة يعلن أصحابها التوبة ، ويطلبون الغفران لانهم اكلوا طعاما محرما ووطئوا على بقعة محرمة بغير علم ولا اجتراء على مغبة العقاب ..

وقد نزيد المسألة توضيحا حين نقول ان الاله وحدههو الذى يحق له ان يحرم شيئا ولا يذكر سبب تحريمه ، لانه هو وحده الذى يعلم مصلحة الخلق جميعا فيما يبيحهلهم وينهاهم عنه ، فأما غير الاله فالمحرمات التى ينهى عنهـا لغير سبب لا تدين احدا بالخطيئة وكل ما يخشاه من اتيانها ان يتعرض للغضب او للعقاب .

فلا جرم تتقدم البلاد البابلية غيرها من البلاد لانهـا تقدمتها فى كشف الطوالع ورصد الكواكب وتفسير ما تنبىء عنه من سعود او نحوس ، وتستحيل السعود والنحوس الى مباحات ومحظورات ومحللات ومحرمات حين تستحيل الكواكب أربابا علوية تريد السعد والنحس بحساب وتقدير

اما الحصة التى ساهمت بها عقيدة فارس فى تاريخ الاديان ، وتاريخ قـوة الشر على التخصيص ، فهى « الثنوية » او تنازع النور والظلام على سيادة الوجود

ويظهر ان الثنويه هذه عريقة الاصل عميقة الجذور فى البقاع الفارسية وماحولها ، فانها بعد تهـذيب الاديان الكتابية لها لم تزل متغلغلة فى أفكار بعض الكتابيين ممن ينتمون الى اليهودية أو الاسلام ويقيمون فى أطراف البلاد التى كانت تحيط بها حضارةمابين النهرين منذ أربعين قرنا

---

(١) «Ancient Near Eastern Texts» by Pritchard

أو تزيد٠٠وقد روى الدكتور يوسف وولف صاحب الرحلة الى بخارى (من سنة ١٨٤٣ الى سنة ١٨٤٥) أن شيخا يهوديا يدعى ناثان زاره ومعه درويش من كشغار فسأله الدرويش ممتحنا : من خلق النار والماء ؟ ٠٠ قال الدكتور وولف :

فلما أجبته أنه هو الله ؛ صاح بى قائلا : صه ! لاشيء من ذلك ، لان النار والماء عنصران مهلكان ولا ينبغى لله ان يخلق المهلكات ، وعليك أن تعلم ان الكون يحكمه الهان :احدهما اله الملأ الاعلى وهو رب الخير الذى خلق نورا لا يحرق وخلق الوردة والبلبل ، وقد تصدى له اله العالم الاسفل فحجب عنه خلائق الخير وشنها حربا لا تزال حتى اليوم حامية الاوار ، فمن عمل خيرا من الناس فهم خدام الاله الاعلى ، ومن عمل شرا منهم فهم خدام الاله الاسفل، وسوف تحتدم الحرب كرة اخرى فيصعد الاله الاسفل الى السماء السابعة تحلق معه ألوف من جنده وتطير بينها الحيات والثعابين ، فيدور القتال سجالا حتى ينهزم الاله الاسفل ويلقى عصا الطاعة لاله السماء

واغرب من بقاء هذه العقيدة فى موطن الثنوية انها بقيت بين الاوربيين الى القرن السابع عشر وكانت لها نحل ومعابد من بلاد البلقان الى العواصم الفرنسية فى الشمال والجنوب ، واذا صحت بعض الاخبار ـ مما نشير اليه فى الفصول التالية ـ فقد بقيت شعبة منها الى القرن العشرين تتستر باسم الماسونية ، وتستقبل المصلين فى باريس حيث يقربون القرابين الى الشيطان ويكررون التلاوات التى كانت ترتل فى معابد النحل الشيطانية قبل ثلاثة قرون وتدور خلاصتها على الايمان بسيادة الشيطان على الدنيا واعتبار المادة خلقة شيطانية يتنزه عنها اله السماء ولا تسرى عليها أوامره ونواهيه

وقد تطور الايمان بالثنوية او هو قد ترقى مع الزمن فى القرون الاولى كأنه جذر عريق لا يقتلع مرة واحدة ولايزال قابلا للنمو فى منبت بعد منبت من العبادات الخالية

فكان الوجود قسمة متساوية بين النور والظلام كما يتساوى النهار والليل ، ثم ترقى المؤمنون بهذه الثنوية فآمنوا باله واحد يسمونه « زروان » وقالوا بولدين له كانا فى رحم الغيب فوعد اكبرهما بالسيادة على الدنيا فاحتال اله الظلام منهما على الخروج اولا لعلمه بمسالك الظلمة فكان له السلطان على الرغم من ابيه انجازا لوعده ، ولم يستطع الاب الا ان يعد ابنه اله النور بالغلبة بعد حين يقدرونه بتسعة الاف من السنين الكونية

هذان الالهان هما « أورمزد » و « أهرمان » او الروح الطيب والرح الخبيث

من عقائد بعض الثنوية ان الخلائق النافعة من صنع اله النور وان الخلائق الضارة او التى لا نفع فيها من صنع اله الظلام ..

وبعض طوائف الثنوية يعتقدون ان الجسد كله شر ولكن الارواح العلوية ارادت ان تحارب جنود الظلام فأنبأها الاله الاعظم انها لا تقوى على حربها بغير اجساد كأجسادها ، فان شاءت بقيت على صفائها ، وان شاءت لبست أجسادا من المادة فكافحتها بسلاحها ، وهذه هى الارواح العلوية التى بقى الاكثرون منهم على صفائهم ، ورانت الغواية الجسدية على بعضهم فغلبتهم الفتن والشهوات

ويعتقد فريق من الثنوية ان آدم من خلقة الشيطان ولكن الارواح العلوية تعالج ان تصلحه وتقوم أوده وتستخلصه من وهدة الطين يقبس من النور تدسه له فى وجدانه فيأنف الحياة الارضية ويتطلع ببصيرته الى السماء

وجاءت المانوية فانتشرت فى بقاع الدولة الرومانية بعد ظهور المسيحية ونافستها اشد منافسة فى آسيا الصغرى وبلاد الروم من آسيا واوربة ، فامتلأت معاهد الدينين بالكلام عن الشيطان واستصوب أناس من آباء الكنيسة ان ينتزعوا شعائر عباد النور فجعلوا يوم الاحد يوم الاسبوع المختار لانه كان مخصصا لعبادة الشمس (١) وجعلوا اليوم الخامس والعشرين من شهر ديسمبر يوم الميلاد لانه كان يوما ينصرف فيه المسيحيون الى سهرات الوثنيين لاعتقاد هؤلاء أنه اليوم الذى يقصر فيه الليل ويطول النهار فهو هزيمة لاله الظلمة ، ونصر لاله النور

وقبل المسيحية نظر اليونان الوثنيون الى اصول العقيدة الثنوية فحولوا اسطورة زروان الذى ولد له « أورمزد » الى أسطورة كرونوس الذى ولد له زيوس رب الارباب وسيد الملأ الاعلى ، فبحق يهتم الباحثون الدينيون بهذا الميراث العريق من بلاد بين النهرين ، لانه سابقة لا تنقطع عما تلاها من أطوار الايمان بالخير والشر وبالقوة الكونية التى نزهتها الاديان الكتابية بعد ذلك فى عقيدة الوحدانية ، ودونها القوة الكونية التى تمثل فيها الشر مخلوقا متمرداً على الله

وفى الوعى الدينى عوامل ذات بال لا تحسب من الفرائض والشعائر ولكنها تحسب من الخواطر التى تخامر النفس وتعمل عملها فى تقويم الاخلاق المصطبغة بصبغة الايمان

من هذه الخواطر التى تستكثر على اللاهوت القديم خاطران يتخللان كتب الديانة « الزردشتية » من اقدم عصورها ، أولهما أن الشر « شك » وانه نبت فى الكون

---

(١) ومن هنا بقى اسم «Sunday» بالانجليزيه

لاول مرة حين تساءل زروان بينه وبين نفسه : وما جدوى كل هذا التكوين وكل هذا التقدير ؟ والخاطر الاخر ان الشر كذب كما جاء فى قصة « يامه » التي تضمنت أقدم الخواطر عن السقوط والخلاص ، فقد دعاه أورمزد لحراسة الحق فاستعفاه لعظم الامانة واشفاقه من العجز عنها ، فأرسله الى الارض وخوله ما سأله من الغلبة على الموت ، فامتلأت الارض بالاحياء التى لا تفنى ، وامتلأت نفس « يامه » بالخيلاء فسولت له أن يناظر الاله بهذه العصمة وان يكاذب نفسه بخيلائه ، فلحق به الشر وجاءه الموت مع الشر ، فكان ذلك من جناية « يامه » على نفسه وعلى زمرته تسللت الى الوجود من مدخل الباطل وهو أصل جميع الشرور .

هذان الخاطران يتخللان الكتب الزردشتية من اقدم العصور ، ولم يدخلا العقائد التالية من طريق الفكر والتأمل بل دخلاها من طريق الاشكال والرموز التى يلم بها الحس قبل التفكير فيها .

الشيطان

فى حضارة اليونان

يحتاج النقاد التاريخيون الى تحرير موازينهم جميعا قبل الاطمئنان الى رأى صحيح فى أى شأن من الشئون السياسية التى قامت عليها حضارة اليونان

ذلك بأنه سيرى بين يديه تاريخين غير متفقين فى بعض الاصول وفى كثير من التفصيلات : تاريخ الامة اليونانية الحقيقية ، وتاريخ الامة اليونانية التى جعلها الاوربيون المحدثون عنوانا للفضائل الغريبة فى مسائل العلم والفن والسياسة والاخلاق ، كلما أرادوا أن يضعوا أنفسهم موضع المناظرة والموازنة أمام الشرقيين فيما قدروه لهم من نصيب فى هذه المطالب وهذه المزايا

وبلغ من رغبة الاوربيين فى ترجيح الغرب كله باسم اليونان أن فريقا منهم تنكر للمسيحية لانها ثمرة شرقية ، وفريقا منهم زعم ان المسيحية ثمرة الفكرة اليونانية من طريق بولس الرسول وجماعة الفلاسفة المسيحيين الذين طبقوا الدين على الفلسفة بعد القرن الاول للميلاد ، وذكروا من براهينهم على ذلك أن الاناجيل كتبت باللغة اليونانية وأن كلمة الانجيل نفسها بمعنى البشارة من لغة اليونان ..

وقد عمد الغرب الى هذا الاستغلال التاريخى لتراث اليونان لانه احتاج اليه لتدعيم دعوة السيادة والرجحان على أمم الشرق فى عصر الاستعمار ، فاتخذ من تعظيم اليونان وسيلة الى تحقير الشرقيين واستباحة السيطرة

عليهم بدعوى الوصاية الطبيعية التى تخول المتقدمين من بنى آدم امانة الاشراف على تعليم المتأخرين

ان امة اليونان الحقيقية غير هذه الامة « المصنوعة » التى احتال بها الغربيون فى عصر الاستعمار على خدمة السياسة وخدمة العصبية ومرضاة الغرور الذى يساور « الغربى » فى مقام المفاخرة وان لم يكن من خدام الاستعمار ..

وليس من المنصفين من يبخس لهذه الامة الحقيقية فضلا فى تاريخ الثقافة الانسانية ، فمما لا نزاع فيه أن نصيبها فى هذه الثقافة لا يعلوه نصيب ولا حاجة بها معه الى انتحال الدعوى واغتصاب الفخار بغير دليل ،وحسبها انها اخرجت للعالم سقراط وأفلاطون وأرسطو فى ثلاثة اجيال متعاقبة مع من اخرجتهم من الحكماء السابقين واللاحقين ، وانها تعد من شعرائها امثال هوميروس ويوربيدس واسكايلاس وسفوكليس وارستوفان ، من علمائها ومؤرخيها ذلك الطراز الاول الذى تلاحق على مدى ثلاثة قرون فى عصر لم يكن فيه أحد يضارعهم او يقاربهم فى هذه العلوم ، ومعهم رهط من نوابغ الفن وأساطين السياسة والحكم يوازنون نظراءهم من كل أمة ويرجحون احيانا على اولئك النظراء بالكثرة والقيمة

حسب الامة اليونانية هذا الفخار الذى يقره جميع المنصفين من الشرقيين والغربيين

فاما انها استأثرت بالقيم الانسانية العاليا فى الذوق والفكر والخلق فتلك هى الدعوى التى يروجها الغرض ولا يسلم بها التاريخ ، فاذا كانت الشهادة لها بهذا الاستئثار هى المقدمة اللازمة للوصول الى النتيجة المقصودة من تحقير الشرق وتسويغ استعباده فهى مناجزة يقابلها

الشرقيون بما ينبغي لها من التصحيح والتفنيد ، وانها لينبغي لها أن تصحح وتفند لغرضين واجبين : أحدهما تمحيص الحقيقة والآخر محو الاثر السيء الذي تعقبه في نفوس أبناء الشرق فتوقع فيها اليأس وتقضي عليها بالمهانة ضربة لازب بحكم الخصائص الفطرية التي لا تتغير ولا تتبدل مع الزمن ، في زعم الزاعمين

لقد حصروا في طبيعة الغربي — من وراء اليوناني — كل قيمة انسانية عالية في مزايا الفكر أو الحكم أو الخلق ، وقابلوه في هذه الخصائص بالشرقي فخرج الغربي بمزية العقل الذي يطلب العلم للعلم ، ومزية الحكم الذي يقوم على حقوق الشعب ومزية الخلق الذي تتقدم فيه الفضائل الاجتماعية على دواعي الانانية ودوافع الغريزة ، وخرج الشرقي من هذه الموازنة بالطرف النقيض كأنهما متقابلان على خط من خطوط المسطرة لا يتلاقى طرفاه من أقصاه الى أقصاه

ونحن نصحح هذه المزاعم في مناسباتها انصافا للحقيقة ومنعا للضرر الذي يتخلف من آثارها وبخاصة حين يتلقفها من أبناء الشرق من يحب الشهرة بالتحدي والمنافرة ومن يحب التشدق بالغرائب والتعالم بالبدع والنقائض ، وقديما رأينا من أصحاب هذه النزعة من ينافرون بني آدم اعتزازا بعنصر الشيطان ، وكذلك كان بشار بن برد حين قال :

ابليس أشرف من أبيكم آدم
فتبينوا يا معشر الاشرار
النار عنصره وآدم طينة
والطين لا يسمو سمو النار

فليس للغربيين امتياز فطري في طلب المعرفة للمعرفة بغير نظر الى منافع الكسب والصناعة ، وليس الشرقيون

محرومين من طلب المعرفة للمعرفة فى قديم الزمن أو حديثه ، فقد رصد المصريون ـ مثلا ـ كواكب السماء وعرفوا أن الشعرى تظهر فى موضع معلوم عند وصول الفيضـــان الى منف فاستخدموا الرصـــد بعد ذلك فى تقرير مواعيد الزراعة ، ولكنهم كما قال صاحب كتاب الرياضيات فى الثقـــافة الغربية قد رصدوها مئـــات السنين حبا للمعرفة قبل ان يثبت لهم ذلك الموعد الذى انتفعوا به فى تنظيم الرى والزراعة (١)

وانما امتاز الاغريق بالبحوث الفلسفية فى زمن من الازمان لسبب واضح : هو ان هذه البحوث كانت مباحة عندهم حيث كانت تمتنـــع على غيرهم من ابنـــاء الدول الشرقية العريقة ، وهى لم تكن مباحة لهم لمزية أصـلية فى طبيعة التركيب ... ولكنها ابيحت لهم لان بلادهم نشأت وتطورت دون أن ينشأ فيها عرش قوى وكهانة قوية ، ولو قامت عندهم الدولة القوية والكهانة القوية كما قامت فى مصر وبابل لـــكان شأنهم فى أسرار الدين والمسائل الالهية كشأن البابليين والمصريين . فالبلاد التى تجرى فيها الأنهار الكبيرة تنشأ فيها الممالك الراسخة وتنشأ مع الممالك كهانات قوية السلطان تســـتأثر بالبحث فى أصول الأشياء وحقائق التكوين ، وتتولى شئون العلم والتعليم كأنها حق لها مقصورة عليها لا يجوز الافتئات عليه والا كان المفتئت كالمعتدى على نظام الدولة ومحراب العبادة ، ومتى طال الأمد بهذه الكهانات جيلا بعد جيـــل وعصرا بعد عصر تمكن سلطانها وتشعبت دعاواها وتلبست معلوماتها بلباس الاسرار والطلاسم وابتعدت شيئا فشيئا عن نطاق البحث الحر الى نطاق المحفوظات والمأثورات »

وقد حكم على سقراط بالموت وهرب فيثاغوراس قبله

Mathematies in Western Culture by Morris Kline

من وطنه وهرب غيره من الفلاسـفة من أثينا دون أن تكون فى بلادهم تلك الكهانات الراسخة التى طالت بهـا العهود فى البلاد الشرقية « وحدث للأوربيين ما حدث فى الشرق حين قامت فى بلادهم الكهانات القوية وبسطت سلطانها على التعليم ومعارض البحث فى حقائق الدين وأسرار الطبيعة » (١)

ودعوى الأمتياز الفطرى بالحكم الحـر اضعف من دعوى الأمتياز الفطرى بطلب المعرفة حبا للمعرفة

فالشائع على الألسنة أن التقدم العقلى ألهم اليونان ان يختاروا الحكومة الديمقراطية ـ أى الحكومة الشعبية ـ من كلمة ديموس بمعنى الشعب فى اللغة اليونانية القديمة

وهذا خطأ من جميع أطرافه . فان الحكم الذى سمى بالديمقراطى او النيابى لانه يجرى بالانتخاب لم يبتدىء فى اثينا حيث يتكلم الفلاسفة ويتذاكرون ، بل كان مبدؤه فى « اسبرطة » العملية التى تختار النظام لانه أيسر تطبيقا وأنفع عملا ، وتتبع هذه السنة فى اختيار كل خطة تنظم بها الاجراءات ويمتنع بها الشغب والنزاع

وكلمة « ديمقراطية » لم تؤخذ من حكم الشعب ولكنها اخذت من كلمة « ديموس » بمعنى المحلة التى تقيم بها القبيلة ثم استعيرت للقبيلة نفسها وللحكومة التى تشترك فيها القبائل ..

وقد كان الانتخاب فى أثينا القديمة مسألة « اجراءات » كما كان فى اسبرطة من قبلها . ولم يحدث قط أن أحدا نال حق الانتخاب لانه حق انسـانى تناط به التبعات والواجبات ، وانما كانت الطوائف تناله واحدة بعد اخرى كلما اضطرت الدولة الى الاستعانة بها فى القتال ، فلم تنله

---

(١) راجع كتابنا عن « أثر العرب فى الحضارة الاوربية »

طائفة الملاحين مثلا الا بعد ثبوت الحاجة اليهم فى الحروب البحرية بعد وقعة سلاميس · ويصدق هذا القول على الديمقراطية الغربية كلها بعد الديمقراطية اليونانية القديمة باكثر من عشرين قرنا ، فان عمال الصناعة نالوه بعد عمال الزراعة ، لان عمال الصناعة الزم للدولة من غيرهم فى معامل الذخيرة والسلاح ، واقدر على المطالبة والاضراب . ولم تنل المراة حق الانتخاب الا بعد ثبوت الحاجة اليها فى تلك المعامل مع الحاح الطلب على المجندين من الرجال ، ولم يصل الزنوج الامريكيون الى تطبيق هذا الحق فعلا الا بعد الحرب العالمية الثانية التى اشتركوا فيها مقاتلين كما اشتركوا فيها صناعا للذخيرة والسلاح

اما حكم الشورى الذى هو تكليف انسانى منوط بحقوق المساواة وتبعات الحكام والمحكومين ، فلم ينشأ فى اليونان ولا فى امة غربية ، بل نشأ فى الاسلام فى الجزيرة العربية ولم تسبقه اليه ملة ولا دعوة فكرية

ونأتى بعد بيان الحقيقة فى امتياز المعرفة وامتياز الحكم الى موضوع هذا الكتاب وهو « قوة الشر » ومكانها من الاله الأكبر أو من نظام الوجود

ففى الحضارات الشرقية التى أجملنا القول فيها رأينا أن « قوة الشر » مغضوب عليها لأنها تضر وتفسد وتدس الغواية على الانسان ، وخلاصة المعايير الأخلاقية هنا أن القيم الصالحة فى جانب الاله ، والقيم الفاسدة او الخبيثة فى جانب « قوة الشر » أو الشيطان

لكن الأمر ينقلب تماما فى معايير الأرباب اليونانيين ، لأن « بروميثيوس » الذى ينصب عليه غضب الأرباب وكبيرهم زيوس هو المعلم الذى هدى الانسان الى سر النار ، وألهمه السعى فى طلب البقاء ، وبصره بالمجهول من خفايا الكون الذى يعيش فيه ، وتمثله الاساطير على

قسط وافر من الفطنة يغار منه رب الأرباب ويخيل اليه من أجل ذلك انه يتعالم عليه

اما رب الأرباب ـ زيوس ـ فهو أشبه ما يكون بالشيطان فى الديانات الشرقية القديمة ، وهو فى جميع صوره شهوان نهم أكول شديد الطمع لا يبالى شيئا من الدنيا غير استبقاء سطوته وموارد خزانته ، ولهذا أرسل الصاعقة القاتلة على « اسقولاب » أبى الطب لأنه يشفى المرضى فلا يموتون ويخسر « بلوطس » فى العالم الأسفل ضرائب نقلهم الى الهاوية السوداء

وتمتلىء الأساطير اليونانية بأنباء الشجار بين رب الأرباب هذا وقرينته « هيرا » التى كانت تفاجئه فى خياناته الغرامية مع نساء الالهة وبنى الانسان ، وربما عنفته فى بعض هذه المشاجرات لأنه ينحرف نحو « الشذوذ الجنسى » فيهبط الى الأرض ليختطف منها الغلام الجميل « جانيميد » ويجعله ساقيا فى الملأ الأعلى يدير الرحيق عليه وعلى ندمائه المقربين

وتتمثل لنا صورة زيوس هذا فى أساطيره الكثيرة نموذجا للقوة الجسدية وللحقد على من يظهرون الذكاء ويحرمونه لذات المخدع والخوان ، فان غضب فانما يغضب لفوات لذة أو أكلة ، وان رضى فانما يرضى لخدمة أو وساطة فى طعام أو غرام ، وهذه احدى المحاورات بينه وبين برومثيوس كما تمثلها « لوسيان الساموسى » أديب الأساطير المشهور :

ـ أطلقنى يا زيوس . حسبى ما قاسيت

ـ أطلقك ؟ أطلقك انت ؟ كيف ؟ انك لأولى أن يزاد عليك ثقل الأغلال ، وان تطبق عليك جبال القوقاز جميعا وأن ينهش من كبدك اثنا عشر عقابا بدلا من هذا العقاب الواحد ، فانك انت الذى أغريت هذه المخلوقات البشرية

اللعينة بأن تجترىء على مناواتنا ، وانت الذى اختلست سر النار ، وأنت الذى سويت المراة ، وما بى من حاجة ان أذكرك بما صنعت حين وضعت لى العظم على المائدة وغطيته بالشحم تخدعنى عن طعامى فذق جزاءك فانك به لجدير ..

ـ وهـــل تراني لم أصب من ذلك الجـــزاء ما هو حسبى ؟ ألم ألصق هنا بالجبل سنين بعد سنين يأكل من كبدى عقابك هذا اللعين الأثيم

ـ انك لم تصب عشر معشار الجزاء الذى أنت به حقيق

ـ تأمل ، اننى لا اطلب منك الافراج عنى سماحة بغير عوض ، وانما أهب لك سرا من الاسرار الغالية التى تعنيك

ـ آه . انها اذن لحيلة من حيل برومثيوس

ـ حيلة من حيلى ؟ ولأى غرض ؟ ان جبـــل القفقاز موجود ، وانك لقادر على الرجعة بى اليه ان كذبت عليك

ـ قل لى أولا فى أى شيء تكون هذه النصيحة الغالية

ـ اذا انبأتك حقا بشيء عن هذه النصيحة ألا تعلم منها ايضا اننى احس بالنبوءة عن الغيب ؟

ـ بكل يقين

ـ انك على موعد زيارة لثيتس

ـ الى هنا أصبت . فماذا بعد هذا ؟ قل . اننى الآن أصغى اليك

ـ لا تضاجعها يا زيوس . فان بنت نيريس لا تلبث ان تحمل منك حتى تلد طفلا يبتليك بما تبتلينى به الآن

ـ تعنى اننى أفقد عرشى ؟

ـ اعيذك من القضاء ، وانما انبئك بما سيكون من وراء ذلك اللقاء ..

ـ اذن وداعا يا ثيتس . وانت يا برومثيوس سيأتيك هيفستس بالفرج القريب

ورواية لوسيان لأخبار برومثيوس مع رب الأرباب تطابق رواية « هزيود » الذى تولى تنقية الاساطير وحاول أن يعرض زيوس فى معرض التقديس والتنزيه ، فلم يترفع به عن وصمة النهم الذى يغضب لاكلة ، ولا عن تهمه الغيرة من ذوى الفطنة والحيلة بل القى اللوم على المغضوب عليهم لانهم استحقوا الغضب بالتعالم عليه ، وحكى وهو يبسط القول فى أوائل خلق الكون قصته التالية :

« ... وولدت كليمين بنت الاوقيانوس ولدا أصمع القلب هو الأطلس ، وكذلك ولدت منوتيوس المجيد ، وبرومثيوس اللبيب صاحب الحيل والأساليب ، وايبمثيوس الذى كان من مبدأ امره شرا على الذين يأكلون الخبز لأنه هو الذى اخذ من زيوس المرأة التى خلقها ، وكان منوتيوس ثائرا مثيرا فراى زيوس بثاقب نظره أن يرجمه بصاعقة هبطت به الى أرينوس لادعائه وامعانه فى كبريائه ... وقضى على برومثيوس ذى البديهة الحاضرة والعارضة القوية أن يوثق بأغلال لا يفلت منها وقبود قاسية لا ترحمه ، وأن يطعن أحشاءه بسهم يكشف عن كبده لينهشها النسر الطويل الجناحين فيلتهمها بالنهار ويتركها فى سواد الليل تعود سوية كما كانت ليعاود تمزيقها فى الصباح ، وقد جاء هرقليس فقتل هذا النسر وأنقذ برومثيوس من عذابه ... ولم يكن ذلك بغير رضى من زيوس صاحب العرش الرفيع فى الاولمب وانما أراد نباهة الشان لأبنه هرقليس ... فنظر بعين الرضى الى فعلته وان يكن غاضبا من برومثيوس لانه تسامى الى مناظرة الاله الاكبر فى الذكاء ... وقد كانت لذلك قصة يوم انقسم الارباب والبشر وذبح برومثيوس ثورا عظيما ليطعمهم منه . فسولت له نفسه أن يخدع زيوس وان يضع اللحم الجزل امام غيره ويضع امامه عظما مكسوا

بالشحم يلمع عليه ويخفى ما تحته بلباقته وخبثه ، فلم يلبث زيوس ان صاح به : « يا ابن يابيتس سيد السادة . ما اشد اجحافك ـ سيدى ـ فى قسمتك ! »

كذلك قال زيوس صاحب الحكمة الخالدة يؤنبه ، فلم ينس برومثيوس مكره وراح يجيبه فى ابتسام وصوت خفيض : « خذ من هذه الانصبة جميعا ما ترضاه » وظن انه يحتال على الاله الاكبر بهذه الخديعة ، ولكن الاله الاكبر صاحب الحكمة الخالدة لمح كيده ولم يخف عليه قصده ، واضمر فى قلبه شرا لأبناء الفناء من البشر لا محيص لهم من قضائه ، وتناول الشحم الابيض بكلتا يديه وقلبه مفعم بالغضب وروحه يتلهب سخطا كلما رأى العظم الابيض مدسوسا فى خبث واحتيال ، ولهذا قضى على عشائر البشر أن تحرق العظم الابيض على المذابح المعطرة قربانا للارباب الخالدين . ويزمجر مرسل الغمام بصواعقه محنقا اذ يقول لبرومثيوس :

« ياابن يابيتس . يابارعا فوق البارعين . كأنك ياسيدى لم تنس بعد أساليبك فى المكر والخداع ! »

كذلك قال زيوس السرمدى الحكمة فى غضبه ، وظل منذ تلك الساعة يذكر الحيلة ويأبى أن يسلم سر النار الى الخلائق البشرية الهالكة التى تعيش على الارض . الا أن برومثيوس النسيب الحسيب غلبه دهاؤه ، واختلس قبسا من النار فى جوف قصبته . وأحس زيوس مرسل الصواعق فى العلا بلذعة فى فؤاده حين لمح النار بين ابناء البشر

ثم مضى هزيود يروى قصة المرأة التى خلقها زيوس شرا للبشر ، وجعل اجتنابها فى الوقت نفسه شرا يورث العقم ، وجاء برومثيوس فأغرى الانسان بالنسل مستهينا بشر الفتنة حذرا من شر الفناء ..

وبديه أن تستهوى الشعراء هذه الاسطورة التى تحيط

بمأساة البشر بين القوة الالهية التى تحبهم والقوة الكبرى التى تبغضهم وتلقيهم بين شرين من الفتنة والفناء ، فقد جرب الشعراء اخيلتهم فى نظم هذه الاسطورة وايداعها كل ما تتسع له من احاسيسهم وأفكارهم ومن تصويراتهم للقدر المحيط بالانسان بين السماوات والأرضين ، وقد تناولها فى العصر القديم شاعر من أكبر شعراء اليونان وتناولها فى العصر الحديث شاعر من أكبر شعراء الانجليز وشعراء الغرب أجمعين ، فنظم فيها « اسكايلاس » قصيدته بعنوان « برومثيوس المعتقل » ونظم فيها « شلى » قصيدته بعنوان « برومثيوس الطليق » ،

وكلاهما قد وضع برومثيوس وزيوس فى مكانيهما من الانصاف والاجحاف ومن الخير والشر ومن البر والعقوق ، فجعل الشاعر اليونانى زبانية زيوس نفسه يرثون لبرومثيوس الذى قضي عليه — لعطفه على ابناء البشر — أن يوثق الى صخرة نائية لا يراها أحد منهم ولا يسمعه منها أولئك الذين قد شقى فى سبيلهم فيجزيه عطفا بعطف واحسانا باحسان ، وجعل الشاعر الحديث رب الارباب كالمارد العربيد اسكره النصر فقام بين مخلوقاته الذين تسعدهم عزته ، ونعى لهم صديق البشر الذين يرفعون اليه قرابينهم على كره منهم وفى قلوبهم غصة وعلى السنتهم نفاق

ويقرأ المثقفون من الغربيين هذا الشعر الرفيع ولا يشعرون بالمناقضة بين ما يوحيه من القيم الاخلاقية فى تصوير أصول الخير والشر وبين دعوى الامتياز الاوربى على أمم الشرق فى تصويرهم لهذه الاصول ، وليس فى وسعهم أن ينكروا دلالة الاساطير الكونية على معايير الاخلاق وبواطن الشعور ، وليس فى وسعهم كذلك أن ينكروا التواتر فى رواية تلك الاساطير ، ونحسب ان السهو

من بيان هذه المفارقات فى كتاب يوضع عن « الشيطان » يخل بامانة الكاتب من الشرقيين وغير الشرقيين ، ولكن الكاتب الشرقى — من أبناء هذا العصر خاصة — يخل بأمانتين لا بأمانة واحدة حين يسهو فى هذا السياق عن تمحيص الحقائق ودفع الاباطيل التى تتجاوز الخطأ الى الضرر بالنفوس

ويبدو ان اليونان المتأخرين — قبل عصر المسيحية — قد استعاروا من الشرق فكرة أخرى عن أصل الخطيئة او اصل الخطايا الشيطانية جميعا فردوها الى الكبرياء واطلقوا على هذه الخلة اسم الهوبرى Hubris وهى كلمة قريبة من دلالات الرجس فى اصطلاح الدينيين

ولكن الكلام فى الكبرياء لا يغنى عن تعقيب ينفى عن الكبرياء محاسنها ، ولا يبقى لها غير عيوبها التى ينكرها الدين كما ينكرها معيار الاخلاق

فالكبرياء على الاله الكامل العظيم فى صفاته وآلائه كفران لا شك فيه ، وخطيئة لا مسوغ لها من العقل ولا من الضمير . اما الكبرياء على صاحب سلطان يستسلم لشهواته ويصب صواعق السماء فى سبيل اكلة من اللحم والشحم فليس فيها من معنى الخطيئة كثير ولا قليل ، وليس فى استعارتها لهذا المعنى دليل على معيار صادق للحسنات والعيوب ، ولكنه من قبيل النقل على السماع فى غير موضعه ومغزاه

الفصل الثالث



فى طريق الأديان الكتابية

قبل أن ننتقل الى عقـائد أهل الكتاب فى قـوة الشر العالمية نتريث هنـا لحظة لتلخيص المرحلة الطويلة التى عبرها الانسان فى هذا الطريق ، من خطواته الاولى حيث لا تمييز بين خـير وشر ولا بين اله وشيطان ، الى غايته القصوى فى حضارات الامم القـديمة حيث ظهرت ديانة التوارة ، وهى أول الاديان الكتابية فى التاريخ ..

آمن الانسان بالارواح والاطياف من أول عهده بالدين فى الهمجية الاولى . وآمن منها بما يرجوه وما يخشاه ولكن كما يرجو النفع ويخشى الضرر من كل شىء يحيط به وتتعلق به المنافع والمضار ، ولم يكن للتفرقة بينها معنى فى مقياس الاخلاق أرفع من معنى التفرقة بين الحيوان الانيس والحيـوان الضـارى ، أو بين الحشرة المـأمونة والحشرة السامة ، أو بين جمادين احدهما يفيد ولا يضر والآخر يضر ولا يفيد ، وربما تلبس عنده الجماد بروح من الارواح أو طيف من الاطياف كلما ارتجى نفعه واتقى اذاه

وخطا فى طريق التدين خطوة اخرى حين قسم الارواح والاطياف الى طيب وخبيث واحتاج الى الكاهن والساحر ليروض له الخبيث بالرقى والتعاويذ ويجزى عنه الطيب

بالدعوات والقرابين ، وعمل التخصص عمله البطىء فانفصل دور الدعاء ودور السحر وان عمل فيهما كاهن واحد ، كما كان ينفصل دور الراعى ودور الصياد وان كان كلاهما يرعى الحيوان النافع ويصيد الحيوان الذى يفتك بالاناسى ، والماشية

ثم خطا الانسان خطوة اخرى من التمييز بين المنفعة والمضرة وبين المنفعة التى تصدر على الدوام من الطيبة وحسن النية ، والمضرة التى تصدر على الدوام من طبع خبيث ونية سيئة ، ولم يكن أمامه فى هذه الخطوة مثل على الشر الخبيث الذى يضمر السوء ويتوارى عن النظر ـ اقرب الى الحس والخيال من الحية التى تزحف على التراب وتندس فى الجحور كيدا وخديعة وتمكنا من الدس والأذى فيما توهمه ولم يكن فى وسعه أن يتوهم شيئا سواه ، ولهذا بقيت صورة الحية مقترنة بقوة الشر حقيقة أو رمزا الى احدث العصور

وعاش الانسان عصورا مديدة يعمل الاعمال أو يتركها لانها مأمونة نافعة او محذورة وخيمة العاقبة ، فلما اخذ يعملها أو يتركها لانها واجبة مطلوبة أو لانها محرمة محظورة كانت هذه خطوته الاولى فى طريق التمييز بين الواجب والمحرم وبين الخير والشر فى أضيق الحدود

ولم يزل خيره وشره خير قبيلة واحدة او شر قبيلة واحدة حتى تجمعت القبائل فى أمة ذات مجتمع واحد وشريعة واحدة ، فعمت نظرته الى الشر والخير ولم تزل تتسع فى عمومها حتى برزت فى ذهنه فكرة « النوع الانسانى » ووجدت مع هذه الفكرة الرفيعة فكرة أرفع منها وأشرف جدا فى مغازيها وثمراتها وهى فكرة الانسان عن ضمير الانسان ، ولم يكن فى الوسع أن يعقل شيئا عن

« الضمير الانسانى » قبل أن يعرف ان الانسان نوع واحد من وراء العشائر والقبائل والشعوب والاقوام

وكانت الحضارات الاولى خطوة بل خطوات واسعة فى هذا الطريق ، ولكنها خطوات متفرقة تتقابل أحيانا ولا تتقابل دائما فى الاتجاه الى معنى الخيرات والشرور ، وقد كانت خيرات وشرورا قبل ان تجتمع فى خير واحد بمقياس واحد أو فى شر واحد بمقياس واحد يتقارب فيه جميع بنى الانسان ..

وكانت مسألة العالم مسألةدولة وشريعة ونظام فىعرف الحضارة المصرية الاولى ، فالخير شريعة تستتب عليها الامور والشر مروق من تلك الشريعة واخلال بالنظام الذى استتبت عليه ..

وكانت المسألة مسألة كونية فى الحضارة الهندية الاولى ، فالكون الظاهر كله باطل وزيف وشر ولا خير فى غير الاعراض عنه والنفاذ الى ما وراءه ، ولعل المجاز هنا فعل فعله فى المشابهة بين صيرفة الجواهر وصيرفة الموجودات على عمومها ، فقد كانت صيرفة الجواهر فنا قديما فى حضارة اللآلىء والحجارة الكريمة وحلى التيجان والقصور وما عداها أو ما دونها من الحلى الزائف والحلى البذول ، وكلها كثيرة قديمة فى بلاد الهنود

وكانت المسألة مسألة فلكية فى حضارة « بين النهرين » بفرعيها من فارس وبابل ..

فما عدا النور فهو ظلام ، وكل ما فى الوجود فهو بين النور والظلام ، وهذه هى خلاصة الديانات الثنوية فى مختلف المذاهب والتأويلات

وتختلف عقيدة فارس وعقيدة بابل فى تلك الحضارة : أو تلك الحضارات الواسعة ، ولكنها لا تزال فلكية فى الصميم ، لان الخير والشر فيها مقسومان بين السعود

والنحوس كما سطرت فى أزياج الكواكب ودارت عليها أفلاك السماوات

أما الحضارة اليونانيه الاولى فالخير فيها مسألة حظ ، والشر فيها مسألة اعتراض لذلك الحظ الذى لا حيلة فيه للمحظوظ ولا للمعترض عليه

فلم يكن « زيوس » رب الارباب لانه أطيب منها أو أعلم منها أو ارفع منها خلقا او أشرف منها مقصدا ، اذ انه فى الواقع أقل من الاكثرين بين الارباب فى جميع هذه الخصال ، وانما « الحظ » وحده هو الذى يفسر علوه عليها بغير تلك الفضائل والمزايا ، ولم يكن هذا « الحظ » عرضا من الاعراض أو مصادفة من المصادفات فى الثقافة اليونانية المتقدمة فضلا عن الاساطير البدائية التى لم تخلص من سذاجتها واختلاطها ، بل كان « الحظ » مدار القصائد الكبرى والدرامات التى وضعها نوابغ الشعراء ، ومثلوا فيها مصائر الابطال وما كتب عليهم قبل مولدهم من قسمة مبرمة وقضاء محتوم لا مهرب لهم منه بحيلة أو اجتهاد ، ولا نجاة منه لذى حسنة أو ذى سيئة من المتفائلين او المتشائمين ، واذا لخص النزاع بين زيوس وبرومثيوس فى قصة مفهومة فليس لفهمه وجه من الوجوه على غير معنى واحد .وهو النزاع بين صاحب حظ غالب وصاحب حظ مغلوب ، ولعل فلاسفة اليونان لم يجتهدوا اجتهادهم فى كلامهم على السبب والمصادفة ــ أو البخت كما ترجمه الفارابى ــ الا لانهم كانوا يلقون « البخت » أمامهم عقبة قائمة فى طريق كل تفكير ، وكان ايمان العظماء به قد بلغمن الرسوخ والخطر الا يقدم احدهم خطةمن خطط السلم أو غزوة من غزوات الحرب الا بعد استطلاع العرافين عن « الحظ » المكتوب له أو عليه

على أننا ــ فى هذه المجالة ــ فى مقام الحد الفاصل

بين الحضارات الاولى والاديان الكتابية من وجهة النظر الى « قوة الشر العالمية » أمام قوة الخير أو أمام المشيئة الالهية التى آمن بها الناس وهم يعلمون فكرة « النوع الانسانى » وما تلاها من فكرة أرفع منها واشرف وهى فكرته عن « ضمير الانسان »

ونحسب أن الحد الفاصل انما هو الفارق بين التقديم والتأخير بين صفتين من صفات الاله الاكبر ، وهما : صفة السيادة والسلطان ، وصفة الخلق والتكوين

فالاقدمون قد آمنوا بخالق الله للاكوان ولكنهم لم يبرزوا صفة الخلق كما أبرزوا صفة السيادة ، ولعلهم كانوا منساقين فى ذلك مع عقائد الفطريين الاسبقين الذين كانوا يؤمنون بارواح لم ينسبوا اليها خلق شيء من الاشياء فضلا عن خلق الكون الذى يحتوى جميع الاشياء . ثم تدرج الناس من عبادة الروح المتسلط الى عبادة الاله المتسلط، فجعلوا صفة الخلق تابعة لصفة السيادة والسلطان

اما الديانة الكتابية فقد ابرزت صفة الخلق وجعلتها شاملة لكل ما عداها من الصفات الالهية .ومنها صفات السيادة وتصريف المقادير · ويأتى من هذا الفارق شيء كثير

يأتى منه أن الشر فى الحالة الاولى انما يحسب من قبيل الحماقة قبل ان يحسب من قبيل الكنود والفساد ، فلا يقال عنه انه يليق أو لا يليق كما يقال عنه أنه عمل حكيم أو غير حكيم . وبين هذا وبين وصف الشر بالسوء والكفران بون .واسع ، لم تعبره الامم الانسانية طفرة واحدة بل تقدمت فيه خطوات بعد خطوات كما سنرى فى عقائد الاديان الكتابية مما قبل التوارة الى ما بعد الاسلام ..

الأديان الكتابية

(١) العبرية

نسميها العبرية لاننا لا نعرف تسمية تصدق عليها منذ نشأتها فى بلاد بين النهرين كما تصدق عليها هذه التسمية

فلا يصدق عليها اسم « اليهودية » لان النسبة الى يهوذا حدثت بعد موسى عليه السلام

ولا يصدق عليها اسم « الموسوية » لان موسى قام بالدعوة بعد يعقوب واسحاق وابراهيم عليهم السلام

ولا يصدق عليها اسم « الاسرائيلية » لان الاسرائيلية تنسب الى اسرائيل وهو يعقوب بن اسحاق ، وكان ابراهيم الخليل جدهم اجمعين يلقب بالعبرى فى بعض كتب العهد القديم ، فاطلاق اسم العبرية على العقائد التى دانت بها العشائر التى نشأ فيها ابراهيم اصدق من كل اسم آخر فى الاحاطة بديانة القوم من أوائل تاريخها وفى جميع اطوارها المعلومة الى أن عرفت أخيرا باسم ديانة التوراة

وينبغى أن نميز العبرية فى نشأتها الاولى من ديانة التوراة كما تلقاها المسيحيون الاوائل ، وكما انتهت الينا مهذبة فى القرآن الكريم

فقد حملت « العبرية » عبء التوسط بين الوثنيات الاولى وعقائد التوحيد من قبل ظهورها الى ما قبل المسيحية بنحو مائتى سنة ، فلم تستقم على عقيدة الاله الواحد المنزه عن اللوثة الوثنية الا حوالى القرن الثانى قبل الميلاد . .

ولم تكن قط قبل ذلك ، ولا بعد ذلك ، ديانة انسانية عامة تتساوى فيها جميع السلالات وتناط فيها العقيدة

بضمير الانسان غير منظور فيه الى عنصر أو نسب ، وانما نشأت وعاشت ديانة « قبيلة خاصة » أو قوم معلومين

ولم ترتفع قط بادراكها للتنزيه الالهى الى الافق الذى ارتفع اليه آخر الاديان الكتابية وهو الاسلام

بل كان العبريون الاوائل ينكصون حينا بعد حين الى شعائر الاوثان والاصنام وعبادة البعل وتموز وعشتروت ، ويعرضون عن أنبيائهم الذين يغارون من منافسة هذه الارباب لرب ابراهيم فلا يعودون الى الوحدانية ـ أو ما يشبه الوحدانية ـ الا بعد تقرير الدعوة من جديد

ولبثوا زمانا يصفون الاله بالصفات التى لصقت به فى الوثنية أو فى ديانات الحضارات الاولى ، فكان الاله عندهم يغار من الجنس البشرى ويشفق من يوم يهتدى فيه الى شجرة الخلود ويتوعده بالموت ان اكل منها فيقيم الملائكة الاشداء حرسا حولها كما روى عن الارباب البابليين فى حواشى قصة الخلق وقصة الطوفان ، وكانوا يقولون لموسى عليه السلام أنهم يتهمون « يهوا » بالكيد لهم ونصب الفخاخ فى البرية للتغرير بهم ، وأنه لم يستدرجهم الى سيناء الا لانه يبغضهم ويتمنى لهم الهلاك بعيدا من أرض وادى النيل التى أخرجهم منها

وكانت فكرة السيادة فى عبادتهم للالهة غالبة على فكرة الخلق كما كانت غالبة على أديان الحضارات الاولى ، فلم ينكروا وجود الارباب التى تدين بها العشائر الاخرى ، ولكنهم انكروا سيادتها ودانوا بالولاء للاله « يهوا » وحده كما يدين الشعب لملكه وهو يعلم بملوك غيره لا تجب عليه طاعتهم ولا يأمن العاقبة اذا اشرك بينهم وبين ملكه فى فرائض الولاء . .

ويتضح من مقارنات الاديان أن العقيدة تعزل قوة الشر وتحصرها فى «الشخصية الشيطانية» كلما تقدمت فى تنزيه

الاله واستنكرت أن يصدر منه الشر الذى يصدرمن الشيطان

ولهذا لم يشعر العبريون الاوائل بما يدعوهم الى عزل الشيطان أو اسناد الشرور اليه . لانهم كانوا يتوقعون من الاله أعمالا كأعمال الشيطان ، وكان العمل الواحد عندهم ينسب تارة الى الشيطان وتارة الى الاله كما حدث فى قضية احصاء الشعب على عهد داود ، فانه فى المرة التى ورد فيها اسم الشيطان بصيغة العلم قيل انه هو الذى اغرى داود باحصاء الشعب كما جاء فى الاصحاح الحادى والعشرين من سفر الايام الاول ، ولكن الرواة يروون هذه القصة بعينها فى سفر صمويل الثانى فيقولون انه : « حمى غضب الرب على اسرائيل فأهاج عليهم داود قائلا امض واحص اسرائيل ويهوذا . . »

ولم يكن الشيطان هو الذى اغوى حواء بالاكل من الشجرة المحرمة بل كانت الحية هى صاحبة الغواية هنا جريا على سنن الاقدمين الذين كانوا يوحدون بين الضرر الحسى وبين الخطيئة الاخلاقية ، وقبل أن تصبح الحية مجرد رمز الى الشيطان تلاحظ فيه المشابهة بين نفث السم ونفث الشر على أسلوب المجاز

ولم يذكر الشيطان قط فى كتاب من الكتب قبل عصر المنفى الى ارض بابل سنة (٥٨٦ قبل الميلاد) . . ثم كان ذكره فيها على الوصف لا على التسمية ، فجاء مرة بمعنى الخصم فى القضية وجاء مرة اخرى بمعنى المقاوم فى الحرب ، وأطلق مرة على الملك الذى تصدى لبلعام فى طريقه ، لانه كان بمعنى المعترض أو الضد أو الخصم المقاوم ، ولم يذكر بصيغة العلم الا حيث قيل فى الاصحاح الحادى والعشرين من سفر الايام انه « وقف الشيطان ضد اسرائيل »

وقد كانت قرابين الكفارة تقسم على التساوى بين

الاله وبين عزازيل رب القفار أو الجنى الذى يهيمن على الصحراء ، وكان ايمانهم بوجود الارباب الاخرى التى يعبدها غيرهم من الامم بديلا من صور الشياطين ، لانها كانت تعمل عمل الشيطان كلما صرفت الشعب عن عبادة « يهوا » الى عبادة غيرها تثير النقمة على العصاة ، وانما تاتى النقمة اذن من « يهوا » ولم تأت قط من أولئك الارباب الاجنبيين ، البدلاء من الشياطين

وقد تمثل الشيطان فى صورة الواشي الموغر للصدور فى قصة ايوب عليه السلام ، ولم يكن منعزلا عن الملائكة بل دخل معهم الى الحضرة الالهية وجرى سياق القصة على النحو الآتى كما جاء فى الاصحاح الاول من سفر أيوب :
« وكان ذات يوم انه جاء بنو الله ليمثلوا امام الرب وجاء الشيطان ايضا فى وسطهم فقال الرب للشيطان : من أين جئت ؟ فأجاب الشيطان الرب وقال : من الجولان فى الارض ومن التمشى فيها ، فقال الرب للشيطان :
هل جعلت قلبك على عبدى ايوب ؟ انه ليس مثله فى الارض . رجل كامل ومستقيم يتقى الله ويحيد عن الشر ، فأجاب الشيطان الرب وقال : هل مجانا يتقى ايوب الله ؟ اليس انك حميته بحياطتك اياه وحياطة بينه وكل مايملك من ناحية ؟ .. باركت أعمال يديه فانتشرت مواشيه فى الارض .. »

ثم تبتدىء المحنة بتسليط الشيطان على أيوب لامتحان تقواه وصبره على ضربات المرض والبلاء والفقر والحرمان

وقصة أيوب عربية باتفاق الشراح المؤرخين ونقاد العهد القديم ، ولها نظائر فى الادب العربى أن لم تكن هى القصة بعينها منقولة فى رواية أخرى ، ونعنى بها القصة التى اشار اليها امرؤ القيس حيث يقول فى معلقته:

وواد كجوف العير قفر قطعته
به الذئب يعوى كالخليع المعيل

فان الجوف بلغة اليمن هو الوادى وكلمة العير فى هذا البيت بديل من كلة الحمار اسم صاحب القصة ، ولم تستقم كلمة الحمار فى وزن الشعر فجاء الشاعر بكلمة العير لتدل على معناها .. وكان حمار بن مويلع هذا رجلا من العمالقة له مال وبنون وزرع وضرع فنزلت على ابنائه صاعقة فى بعض اسفارهم احرقتهم وما معهم فكفر الرجل بالله ، وقال : « لا أعبد ربا أحرق بنى ، ثم عكف على عبادة الاصنام فأرسل الله على واديه نارا اتت عليه وجعلته مضرب المثل فى الخراب ، فيقال على هذه الرواية : « اخلى من جوف حمار » ..

وايا كان القول فى هذه القصة فلا خلاف على قصة ايوب ولا على نسبة أيوب الى العرب ، ولا على انفراد هذه القصة بين كتب العهد القديم بتمييز قوة الشر والغواية فى « شخصية الشيطان » .. وتلك قيمة من القيم الاعتقادية التى لم يميزها العبريون لانهم لم يبلغوا من التمييز بين طبيعة الخير وطبيعة الشر أن يفرقوا بين الملائكة والشياطين ، وأن ينزهوا الاله الذى يعبدونه او تعبده الاقوام الاخرى عن قبائح الشيطان

وقد نبهنا الى تحرير موازين النقد قبل النظر فيما كتبه الاوربيون عن اليونان ، وليست الحاجة الى تحريرها فى صدد المأثورات العبرية بأقل من الحاجة اليه فى صدد المأثورات اليونانية ، لان الاوربيين لا يتجردون من الهوى والعصبية كلما خلطوا بين تاريخ عقائد العبريين منذ القدم وبين تاريخ العهد القديم على اعتباره كتابا من كتب المسيحية التى يؤمن بعض الكنائس بتنزيلها ، وينظر اليه بعضهم كأنه تراث ادبى موصول بتراث الدين ..

فقد وهم الكثيرون من قدم الديانة العبرية وانها اسبق الديانات الكتابية فى التاريخ ان هـــذه الديانة ســبقت المسيحية والاسلام الى أصول العقائد والعشائر فى جميع الفرائض والعبادات ، ولكن الواقع أن العبريين استعاروا كل ما دانوا به ولم يعيروا المسيحية والاسلام شيئا غير ما جاء من تطور الافكار ولم يكن مجيئه على يديهم فى أكثر الاحيان ..

وعلى خلاف الشائع بين أصحاب الدعايات والعصبيات كان انبياء العرب اساتذة الانبياء العبريين فى أهم الاصول الدينية وهى مسألة الخير والشر ومسألة الثواب والعقاب .. ففى سفر أيوب قبل جميع الاسفار التوراتية ظهرت هذه الاصول ، وقد تتابعت النبوءات فى بلاد العرب قبل أن يكون للنبوءة شأن بين العبريين ، وذكر القرآن الكريم من الانبياء العرب هودا وصالحا وشعيبا وذا الكفل . وجاء فى التوراة ذكر بلعام وأيوب وشعيب ، وجاء فيها أيضا ان شعيبا علم موسى وهداه الى سياسة قومه ، وان بلعام كان حكما بين اسرائيل وخصومها فى جنوب فلسطين ، ومن صيحات النبى « ارميا » يتبين ان المجهول من اخبار الانبياء فى بلاد العرب كان أكثر من المعلوم المذكور فى كتب العهد القديم ، لانه يستغيث متسائلا عن هداية الجنوب ، وينادي : اما من حكمة بعد فى تيمان ؟

وانما تضخمت مأثورات العبريين بعد اختلاطهم بأهل بابل ومصر وبلاد العرب واليونان ، واحتوت كتب التلمود والمشنا أهم عقائد القوم فى مسألة الخير والشر ومسألة الثواب والعقاب ، ولابد ان يذكر على الدوام ان هذه الكتب جمعت بعد المسيحية وظلت تجمع ويضاف اليها حتى القرن العاشر للميلاد ، وفى هذه الكتب خلاصة ما استفاده العبريون من مجاورة الامم التى تقـــدمتهم فى ادراك

الصفات الالهية والصفات الشيطانية ، ومن هذه الكتب اخذ الآخذون ما حسبوه تراثا اسرائيليا وهو فى حقيقته تراث الحضارات الغابرة من أقدم العصور .

مثل واحد يدل على نصيب القوم من الاصالة والنقل فى القصص الدينية والتعليق على المسائل الغيبية ، فانهم ظلوا الى ما بعد الاسلام ينقلون عن العرب قصصا كان موطنها فى أرض بابل وأشور كقصة هاروت وماروت ، وأحق ما يكون بالتنبيه فى هذا المقام أن اليهود خرجوا من أرض بابل وعادوا اليها أيام السبي قبل الميلاد بستة قرون ، ولكنهم لم يأخذوا هذه القصة الا بصيغتها العربية بعد عصر السبى بأكثر من ألف سنة ، فليس من شروط القدم فى الديانة الكتابية انيكون القوممعيرين وانهم لايستعيرون

ويدل تأخر المصادر التى فصلت اوصاف الشيطان على تأخر القوم فى التمييز بين الخير والشر كما ميز بينهما ابناء الحضارات التى تقدمت الاشارة اليها ، ففى الروايات التلمودية المتأخرة يبدأ كل تفصيل عن العداوة الشيطانية للانسان وعن أثر هذه العداوة فى خروج آدم من النعيم ، وفيها ارتقاء من وسوسةالحية الى وسوسةشمائيلرئيس الملائكة الذى عمل فى القصة عمل ابليس ، وتوسع رواق اليوبيل حوالى القرن الثانى قبيل الميلاد فى الكلام على « مشطيم » اسم الفاعل من مادة شطـ فى اللغة العبرية يقابله كلمة « مشيطن » فى اشتقاق اللغة العربية ، وتحتوى التلموديات فى مثل هذا العصر كلاما عن الشيطان بليعال روح الكذب والخداع وهو يقابل فى العربية « بلاعول » اى لا معول عليه ولا خلاق له ولا خير فيه . ويحتوى كتاب اخنوخ ، قرابة هذا الوقت ، كلاما عن الملائكة الهابطين بقيادة كبيرهم المطرود من رحمة الله ، ويقول كتاب الحكمة ان الموت نزل على الدنيا من جراء

حسد الشيطان . وأما قبل هذا العصر بعدة قرون فقد كان كتاب التوراة يذكرون الشياطين بأسمائها البابليه كما ذكروا « الشعريم » أى الشياطين ذوات الشعر ، والليليت أى الشياطين الليلية والكتيب والدبير (١) وغيرها من الجنة والعفاريت التى اقتبسوها بمدلولها فنقلوهـا بأسمائها ونعوتها

ونعود فنقول ان الديانة العبرية تحملت اعباء التوسط بين الديانات الوثنية وديانات التوحيد الكتابية ، وصورة الشيطان فى عقائدها هى أوفق مقياس لسلم التطور الذى ارتقت عليه من أقدم عهودها فى التاريخ الى العهد الذى ظهرت فيه المسيحية

ففى اقدم العهود لم يكن عند العبريين فارق بين خلائق الكائنات العلوية وخلائق الكائنات الارضية من انسانيـة وحيوانية ، ولم يكن عندهم كذلك فارق بين هذه الخـلائق وخلائق الشيطان

فكان الشيطان يحضر بين يدى الله مع الملائكة ، وكان الملائكة يهبطون الى الارض فيعاشرون بنات الناس ، وكان الاله نفسه يمشى فى ظل الحديقة مبتردا ويأكل اللحم والخبز ويحب ريح الشواء ويغار ويحقد وينتقم ، كمـا يفعل كل مخلوق ، من مخلوقاته فى الارض أو فى السماء

وتطورت عقائدهم فى الملائكة فأصبح منهم نظراء لقوى الطبيعة فى أساطير الوثنيين الاقدمين ، فمنهم ملائكة للابار وملائكة للانهار وملائكة للتلال وآخرون للمغاور والوهاد واخرون للاسماك والحيتان ، ولكل صيد من حيوان البر والبحر والهواء . ومن هؤلاء الملائكة من يعمل فى طاعة

---

(١) اهم المراجع التى اعتمدنا عليها فى هذه الاسطر كتاب «الشيطان صورة » لمؤلفه ادوارد لا نجتون Edward Lengton

الشيطان ويتنقل بين الاعمال السماوية واعمـــال الارض والهاوية كأنها نمط واحد من الاعمال يختلف باختلاف الرؤساء والدعاة

وتروى « الزوهار » ان الملائكة هم الذين استكبروا آدم يوم صنعه الله لاول مرة ملء السماوات والارضين فتساءلوا مستنكرين : أفى الكون الهان ؟ فصغره الله وجبل لـــه جسما من التراب

وفي ميثاق أخنوخ أن الملك شمهازى قاد رهطـــا من الملائكة الى الارض ففسق وعصا وخاف أن ينفرد بالعقاب فدعاهم أن يقسموا معه ليفعلن مثل فعله ، فأقسموا معه على جبل حرمون وسمى الجبل بهذا الاسم لانهم أقسموا عليه بحرمة الحرمان وعقدوا النية على المحرمات ، ثـــم فجروا مع النساء وعلموهن الزرع والحصاد وهموا باهلاك رجالهن فتعلم الرجال منهم الفتك والعدوان

ويروى عن أخنوخ انه هو الذى عزر الملائكة المتمرسين بشهوات الارض وقال لهم حين تشفعوا به : أولى لكم أن تهجروا الارض وأن تعيشوا سماويين لاتأكلون ولاتشربون(١)

ومن علماء الاساطير العبرية ــ مثل ابشتين وجرنبوم ــ من يقررون أن اليهود أخذوا طائفة من قصص الشيطان رواية عن المصادر الاسلامية ، وأن سعديا وابن سابا نقلا أسباب سقوط أبليس عن هذه المصادر ومعها كثـــير من الاوصاف والفعال التى يتميز بها الشياطين

وكان الحكماء والربانيون يختلطون بكهـــان الديانات البابلية والمجوسية ويسمعون منهم أوصاف أهريمان اله

---

(١) تراجع فى كل هذه العقائد مجلدات الاساطير اليهودية
The Legends of the Jews : by Gingburg جمع جنجبرج

الظلام وجنوده فينقلونها الى الشيطان ويضعون هـذا الشيطان شيئا فشيئا فى موضع العـدو المناجز لله والانسان ، ومما اقتبسوه من أولئك الكهان – من الفصل الثالث فى كتاب البنداهش « Bundahesh » – أن أهرمان تشكل بشكل الحية وملأ آفاق الفلك الاعلى والارضين حتى لم يبق فيها منفذ لابرة ، ونفث سمومه فامتلأت بها الآفاق وسرت فى كل شىء بين الارض والسماء ولم ينهزم حتى هبط اله الخير « أورمزد » الى الارض فرده الى قراره ..

ولوحظ فى المقارنات بين العقائد ان اختصاص الشيطان بخلائقه التى تنافر الاخلاق العليا انما كان يزداد ويتمكن كلما استعار العبريون شعائرهم ومأثوراتهم من أبناء الحضارات الكبرى ، وأن أنبياءهم الذين أكدوا لهم عقيدة التوحيد والتنزيه لم يجدوا منهم سميعا قبل القرون الثلاثة الاخيرة التى سبقت ظهور المسيحية ، ولم يكن تمييز الشياطين عامة متواترة فى عقائد المهتدين والوثنين المضللين الرؤساء المسئولون ، ولكنه كان من قبيل التراث المحفوظ الذى تعرف مصادره حينا وينقل من رواته فى البيئة التى يشيع فيها بغير مصدر معلوم

فلما تلاقت العبرية والمسيحية فى الزمن ، كانت صورة الشيطان على ما انتهت اليه يومئذ ميراثا مشاعا لا يستند فيه اليهود الى نسختهم من التوراة ، ولا الى اسانيدهم « الرسمية » ولكنها كانت صورة لا يختصون بها ولايمتنع أحد على غير ملتهم أن يقبلها ، لانهم نقلوها كما نقلها سواهم من مصادرها المعلومة أو مصادرها المجهولة ، ولم ترجع بها كتب التلمود والمشنا الى نبى من أنبيائهم المعدودين

(ب) المسيحية

ذكر الشيطان بأسماء متعددة فيما روته الاناجيل من أقوال السيد المسيح أو أقوال المتحدثين اليه على اختلاف المعتقد والنية ..

فذكر باسم الشيطان واسم « روح الضعف » واسم الشرير واسم رئيس هذا العالم ، واسم بعازبول ، وقيل عن بعلزبول بلسان الفريسيين أنه رئيس الشياطين .

وتذكر الاناجيل اخبار المجانين الذين شفاهم السيد المسيح فتقول عنهم تارة انهم صرعى الشيطان ، وترد كلمة الشيطان فى الترجمة اليونانية مقابلة للكلمة اليونانيـــة التى تطلق على أبليس « Diabolos » أو مقابلة للكلمة التى تطلق على العفريت والروح المتسلط Demon سواء كان شريرا أو غير شرير

وفى أحد هذه الاخبار ذكرت امرأة مصابة فقيل عنهـا انها « كان بها روح ضعف ثمانى عشرة ســنة ، وكانت منحنية ولم تقدر أن تنتصب البتة » فلما رآها يسوع دعاها وقال لها : « يا امرأة ! انك محلولة من ضعفك .. » الاصحاح الثالث عشر من انجيل لوقا

وبصدد المخبولين والمصروعين وشفائهم على يد السيد المسيح قال الفريسيون أنه يحالف رئيس الشــياطين ويأمرهم باسمه وسلطانه فيطيعونه ويخرجون من أجسام صرعاهم ، وقد جاءت هذه القصة بصيغ مختلفة فى الاناجيل ورواها انجيل متى فقال : « انه أحضر اليه مجنون أعمى واخرس فشفاه وتكلم الاعمى والاخرس وأبصر . فبهت كل

الجموع وقالوا : العل هذا هو ابن داود ؟ أما الفريسيون فلما سمعوا قالوا : هذا لا يخرج الشياطين الا ببعلزبول رئيس الشياطين ، فعلم يسوع أفكارهم وقال لهم : « كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب وكل مدينة أو بيت منقسم على ذاته لا يثبت · فان كان الشيطان يخرج الشيطان فقد انقسم على ذاته فكيف يثبت ملكه ؟ وان كنت أنا ببعلزبول أخرج الشياطين ، فأبناؤكم بمن يخرجون ؟ لـــذلك هم يكونون قضاتكم · ولكن ان كنت أنا بروح الله أخرج الشياطين فقد أقبل عليكم ملكوت الله »

وموضع الالتفات فى كلام السيد المسيح هنا هـــذه المقابلة بين مملكة بعلزبول وملكوت الله ، وان السلطان الذى لا يكون بقوة الشيطان انما يكون بروح الله

وأصرح من ذلك الاشارة الى سلطان ابليس على العالم فى قصة التجارب التى امتحن بها السيد المسيح فى البرية ، وكان ابليس هو الذى يجربه ويحاول اغواءه بما يملكه من العروض والمغريات ، ويستوفى انجيل لوقا هذه القصة اذ يقول : « أن يسوع رجع من الاردن ممتلئا من الروح القدس ، وكان يقاد بالروح فى البرية أربعين يوما يجربه ابليس ، ولم يأكل شيئا فى تلك الايام فلما تمت جاع اخيرا ، وقال له ابليس : ان كنت ابن الله فقل لهذا الحجر ان يصير خبزا ، فأجابه يسوع قائلا : مكتوب أن ليس بالخبز وحده يحيا الانسان ، بل بكل كلمة من الله ، ثم أصعده ابليس الى جبل عال واراه جميع ممالك المسكونة فى لحظة من الزمان ، وقال له ابليس : لك أعطى هـــذا السلطان كله ومجدهن لانه الى قد دفع وانا اعطيه لمن أريد · فان سجدت أمامى يكون لك الجميع ، فأجابه يسوع وقال : اذهب يا شيطان ! انه مكتوب للرب الهك تسجد واياه وحده تعبد ، ثم جاء به الى أورشليم واقامه

على جناح الهيكل وقال له : ان كنت ابن الله فاطرح نفسك من هنا الى أسفل لانه مكتوب انه يوصى ملائكته بك لكى يحفظوك وانهم على أياديهم يحملونك لكى لا تصدم بحجر رجلك ، فأجاب يسوع وقال له : انه قيل لا تجرب الرب الهك . ولما أكمل ابليس كل تجربة فارقه الى حين (١)

وهذه القصة أوفى ما جاء في الاناجيل عن سلطان أبليس على ممالك العالم وانها دفعت اليه ليعطى منها ما يشاء لمن يشاء ، فهو قريب من صورة أهريمان اله الظلام في ديانة الفرس القديمة ، ولكنه لا يملك الا ما يدفع اليه بمشيئة الاله القادر على كل شيء ، وتلك أول تفرقة فى الديانات الكتابية بين اله الظلام وأمير الظلام كما سمى ابليس بعد عهد السيد المسيح .

آخرة ابليس كما جاء فى كلام السيد المسيح تناسب موضعه هذا من العالم ومن العزة الالهية . ولا تصعد الى المنزلة التى أنزل بها الفرس الاقدمون اله الظلام فى ديانتهم الثنوية ، وفى الاصحاح الخامس والعشرين من انجيل متى شرح هذه الآخرة كما ينتهى اليها الملائكة والقديسون وينتهى اليها الشياطين والاشرار : « ومتى جاء ابن الانسان فى مجده وجميع الملائكة والقديسين معه فحينئذ يجلس على كرسى مجده ، ويجتمع امامه جميع الشعوب فيميز بعضهم من بعض كما يميز الراعى الخراف من الجداء ، فيقيم الخراف عن يمينه والجداء عن اليسار . ثم يقول الملك للذين عن يمينه : تعالوا يا مباركى أبى ، رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم .. ثم يقول أيضا للذين عن اليسار : اذهبوا عنى يا ملاعين الى النار الابدية المعدة لابليس وملائكته »

---

(١) الاصحاح الرابع من انجيل لوقا

ويقول السيد المسيح فيما رواه انجيل لوقا انالشيطان يغربل تلاميذه . وقال الرب : « سمعان . سمعان ! هو ذا الشيطان طلبكم لكى يغربلكم كالحنطة .. » الاصحاح الثانى والعشرون

ويذكر انجيل لوقا قبل ذلك ان الشيطان يداخل من يوسوس لهم وانـــه « دخل فى يهوذا الــــذى يدعى الاسخريوطى .. فمضى وتكلم مع رؤساء الكهنة وقـواد الجند » ليسلم المسيح اليهم

وينفرد انجيل يوحنا بكلام منسوب الى السيد المسيح يصف فيه ابليس بأنه رئيس هذا العالم ، وتكرر ذلك فى غير موضع فجاء فى الاصحاح الثانى عشر أن السيد المسيح قال لتلاميذه ليلة وداعهم : « الآن دينونة هذا العالم . الان يطرح رئيس هذا العالم خارجا ، وأنا ان ارتفعت عن الارض أجذب الى الجميع »

وفى الاصحاح الرابع عشر يقول : « .. ان ابى اعظم منى ، وقلت لكم الان قبل أن يكون .. لا أتكلم معكم كثيرا لان رئيس هذا العالم يأتى وليس له فى شىء »

وفى الاصحاح السادس عشر : « أما الان فأنا ماض الى الذى ارسلنى وليس أحد منكم يسألنى أين تمضى . لكن لانى قلت هذا قد ملأ الحزن قلوبكم . لكننى أقول لكم الحق انه خير لكم ان انطلق ، لانه ان لم انطلق لا يأتيكم المعزى ، ولكن أن ذهبت أرسله اليكم ، ومتى جاء ذلك يبكت العالم على خطية وعلى بر وعلى دينونة . أما على خطية فلأنهم لا يؤمنون بى ، وأما على بر فلأنى ذاهب الى أبى ولا ترونني أيضا ، وأما على دينونة فلان رئيس هذا العالم قد دين »

وفى انجيل لوقا وردت الكلمة التى شبهت لقـــــراء

الاناجيل اسم الشيطان باسم « لوسيفر » حامل النور كما كان يدعى بعد عصر الاناجيل بعدة قرون ، ففى الاصحاح العاشر من انجيل لوقا يقول السيد المسيح للتلاميذ السبعين الذين أرسلهم للبشارة من قبله : « انى رأيت الشيطان ساقطا كالبرق من السماء »

أما غاية ما وصف به ابليس من السطوة فهو قول بولس الرسول عنه فى رسالة كورنثوس الثانية : « ان كان انجيلنا مكتوما فانما هو مكتوم فى الهالكين الذين فيهم اله هذا الدهر قد اعمى اذهان غير المؤمنين »

وانما كان بولس يذكر سطوة الشيطان وهو يرى امامه معابد « مترا » فى كل مكان يرحل اليه ، ويسمع اتباع مترا يذكرون اله الظلام واله هذه الدنيا السفلى التى تخضع لسلطانه وتنتظر نور الخلاص بعد رجعة « مترا » بالظفر والغلبة فى الدهر الموعود ، وقد اخذ العبريون تقسيم الدهر الى دهرين من أقوال أهل بابل وفارس ، ولم يكن من شأن المسيحيين الاوائل أن يهونوا من شرور اله الظلام فى هذه الدنيا ، بل كانوا يسقون اتباع«مترا» الى تعظيم الفارق بين النور الالهى والظلمة الشيطانية ، وتسمية بولس للشيطان باله هذا الدهر انما هو من قبيل تحقير الدهر الذى يعبدونه فيه ، وتلك عادة من عادات العبريين الاقدمين فى الزراية بأدعياء الربوبية عند الامم الاخرى ، فكان من اساليبهم فى انكار ربوبية بعل ان يسموه ـ على رأى الكثيرين من الشراح ـ رب الذباب ورب الزبالة ،ومن ثم إسم بعلزبوب وبعلزبول

وتمتزج بأقوال بولس على الدوام تعبيرات مجازية تدل على المامه بالاساليب اليونانية فى التعبيرات وسماعه بالاراء التى كانت تنقل عن حكماء اليونان ويسوقها مرة فى معرض

الطبيعيات ومرة فى معرض الدينيات ، ومن ذاك قوله عن ابليس فى رسالة أفسس : « انه رئيس سلطان الهواء الروح الذى يعمل الان فى أبناء المعصية » ومنه قوله فى تلك الرسالة : « البسوا سلاح الله الكامل لكى تقدروا ان تثبتوا ضد مكايد أبليس ، فان مصارعتنا ليست مع دم ولحم ، بل مع الرؤساء مع السلاطين مع ولاة العالم على ظلمة هذا الدهر مع أجناد الشر الروحية فى السماويات»

ويرى اللاهوتيون المحدثون ان أقوال بولس هنا تحتمل الاشارة الى الطبيعيات اليونانية كما تحتمل الاشارة الى التراث العبرى فى مسائل الروحانية . قال الدكتور هوجر راهنر Rahner فى بحثه عن الروح الارضى والروح الالهى فى علم اللاهوت القديم : « ان عبارة رئيس سلطان الهواء فى كلام بولس الرسول تثير أسئلة شتى فى التاريخ الدينى ينبغى أن نعرض لها ان أردنا ان نفهم آراء آباء الكنيسة الرفيعة فى طبيعة الارض الروحية الشيطانية ، أفلا يقع فى اخلادنا اننا نسمع هنا نغمة مألوفة ؟ أليس تصور الروح الشيطانى سلطانا على الطبقة المظلمة من الهواء صدى واضحا من نظريات أفلاطون وزينقراط وبلوتارك ؟ ان التشابه لظاهر وان البحوث التى عرضت لهذه المسألة لكثيرة منوعة ، ولكن الارجح على ما يبدو أن بولس الرسول انما اتخذ هذه الصورة من الروحانيات اليهودية المتأخرة ، فقد كان من العقائد الشائعة بين اليهود ان الارواح الشريرة لا تهبط الى ما دون الهواء المحيط بالارض وانها من هذا المهبط تباشر عمل الشر عليها . وانما ترمز هذه الصورة فى ذهن بولس الرسول الى خصومة أصبحت خلقية نفسية ولم تبق كما كانت قبل ذلك كونية طبيعية . فالعالم عنده فى أساسه انما هو الانسان ، وهذا الانسان الذى يوصف بانه أرضى وانه موثق الى الارض وانه

خاطىء ، خليق أن يخضع لسلطان أرواح الشر عليه ، ولكنه قادر كذلك على أن يرتفع بنفسه من الظلام الى النور ومن الشيطان الى الله »

ومعلوم أن كتاب « العهد الجديد » هو مرجع المسيحية الاكبر الذى تتفق الكنائس على اعتماده فى العقائد الجوهرية ، ولكن العهد الجديد ينقسم الى ثلاثة أقسام « أولها » الاناجيل و « ثانيها » أقوال الرسل « وثالثها » أقوال الصحابة والرواة المتصلين بالرسل ، وترتيبها كما جاء فى شروح بعض اللاهوتيين المحدثين ان الاناجيل وحى غير مصحوب بتفسير ، وأن أقوال الرسل وحى وتفسير ، وأن اقوال صحابتهم تفسير بغير وحى ، وقد جاءت فى اقوال الرسل وما بعدها تفسيرات فى المنزلة الاولى من مأثورات العقيدة المسيحية يتقدمها جميعا ما جاء عن خطيئة آدم وعن تكفير الخطيئة وعن الحية والشيطان ولم تسبق الاشارة اليه فى الاناجيل

ففى هذه المراجع أول اشارة الى تسمية الحية بالشيطان كما جاء فى الاصحاح الثانى عشر من اعمال الرسل حيث يذكر التنين ويقال عنه « أنه التنين العظيم ، الحية القديمة ، المدعو ابليس والشيطان الذى يضل العالم »

وفى رسالة يوحنا الرسول الاولى : « من يفعل الخطيئة فهو من ابليس ، لان ابليس من البدء يخطىء ، ولاجل هذا ظهر ابن الله لكى ينقض اعمال ابليس » ..

وفى هذه الرسالة أيضا ان الانسان من الله أصلا ولكن « العالم كله قد وضع فى الشرير »

وتتكلم الكتب « البوكريفية » عن دخول الموت الى العالم بدخول الخطيئة فيه ، ومعظم هذه الكتب لا يرتقى الى طبقة الاقوال المأثورة عن الرسل مباشرة ولكنه يعتمد

للترجيح والتفسير ، وسمى بالكتب « البوكريفية » بمعنى « السرية » أو الخاصة فى اليونانية لانه كان من المراجع التى يضن بالاطلاع عليها على غير الواصلين فى الايمان والمعرفه

وعندنا أن الفرق فى اوصاف الشيطان بين الاناجيل وما تلاها انما هو الفرق بين الاوصاف السماعية والاوصاف القياسية او العقلية فان الشيطان لم يتقرر له « شأن » او دور معلوم فى الاديان الكتابية قبل القرن الاول للميلاد، وانما كان فى الكتب العبرية أو اليهودية واحدا من الملائكة المغضوب عليهم او واحدا من الارواح المتمردة فلا يعرف الا بما سمع من اوصافه ولا شأن له فى ذلك الا كشأن الابطال التاريخيين أو « الشخصيات التاريخية » التى تعرف بالمسموع عنها بين المسموعات المختلفة ولا يمكن أن تعرف بأوصاف عامة يقتضيها العقل والقياس

اما الشيطان الذى تقرر له « دور » معلوم امام الله فلا يتوقف العلم بأوصافه على السماع بل يجوز للمفكر ان ينسب اليه كل ما يقتضيه ذلك الدور من الاوان والملامح والخصائص والتبعات ، ويجوز له كذلك ان ينسب له ما سوف يأتى به بعد أزمنة طويلة فى نهاية العالم ومصيره المقدور

وقد تقرر دور الشيطان وتقرر سلطانه على الشر وعلى العالم الارضى فى مقابلة العالم الالهى فى السماء ، فكل صنيع يوصف بالشر فهو من عمله بغير حاجة الى رواية السماع ، وكل خطيئة أو غواية أو ضلالة أو عاقبة محذورة فانما تنسب اليه كما تنسب الخصائص الى معدنها بحكم البداهة التى لا تحتاج الى عيان أو الى اسناد ، وعلى هذا القياس قال بولس الرسول فى رسالته الاولى الى أهل كورنثوس أن رؤساء هذا الدهر — أى الشياطين كما جاء فى تعبيراته السابقة — هم الذين صلبوا السيد المسيح ؛

ورماهم بالجهل وقلة الدراية بعقبى ما يصنعون لانهم ظنوا انهم يخدمون مقاصدهم بتقديم المسيح الى الصليب وما كانوا يخدمون غير مقاصد الله منذ الازل بما دبروه ، ورتبوه ، فقال عن حكمة الايمان وحكمة الشيطان : « اننا نتكلم بحكمة بين الكاملين ، ولكن بحكمة ليست من هذا الدهر ولا من عظماء هذا الدهر الذين يبطلون . بل نتكلم بحكمة الله فى سر الحكمة المكتوبة التى سبق الله فعينها قبل الدهور لمجدنا ، ولم يعلمها احد من عظماء هذا الدهر ، لانهم لو عرفوها لما صلبوا رب المجد »

فاذا كان الائمة الاسبقون فى صدر المسيحية يذكرون الشيطان بصفات لم ترد فى الاناجيل ولا فى كتب العهد القديم فانما يذكرونه بالصفات التى تكون له لا محالة بحكم طبيعته المميزة أو بحكم دوره المعلوم ، وهو الدور المقابل للخير والحق وصدق النية فى كل عمل مضى وكل عمل يتكشف عنه الغيب

وينبغى أن تلاحظ النقلة الواسعة هنا فى تطور الاخلاق والمقاييس بين أوائل العقائد العبرية وبين العقائد التى شاعت فى القرن الاول للميلاد

فقد كان الضرر والشر بمعنى واحد فى العقائد البدائية، وكان الروح الضار كالحيوان الضار فى مقاييس الاخلاق أو مقاييس النعمة والبلاء ، وكان من الجائز أن تستقل الحية بالضرر دون ان يلقنها الشيطان غواية آدم . فهى حيوان ضار يؤذى ويخيف وكفى بذلك وصفا للشرير فى العقائد البدائية ، فما زال الضرر والشر يتميزان ويختلفان فى الميزان حتى وجب عقلا ان يكون الشيطان وراء الحية فى غواية آدم وحواء ، وحتى وجد فى عالم الضمير فارق واسع بين الخوف من لدغة الحية الماكرة ودسيسة الشهوة والعصيان

الا ان المسيحيين الاوائل استرسلوا فى حديث الحية لانهم وجدوا فيها أصلح صورة لتمثيل الشيطان للحس ، وكان تمثيل الشيطان للحس يتتابع فى « رؤى » النساك والمتنبئين مستقلا عن تمثيله للنفس فى بحوث الفقهاء وعلماء اللاهوت . فاذا تكلم اللاهوتى عن الشيطان فانما يستنبط أوصافه بالقياس الى طبيعته وعمله كما تقدم ، ولكن الناسك المتنبىء صاحب الرؤى والمشاهد الغيبية انما ينقل رموزا وجدانية قابلة للمشاهدة فى الحس كما هى قابلة للمشاهدة فى الرؤيا ، وليس فى الاشياء التقليدية ولا فى تشبيهات الخيال أقرب من الحية القديمة واذا بولغ فى تشويهها وتبشيعها وتعظيم ضررها فهى التنين الذى يضيف اليه الخيال من الاشياء والطبائع مالم يتحقق فى الحية المعهودة ، فهو ذو راسين او ذو أرجل وأجنحة أو ذو لسان يندلع بالشرر ويقذف باللهب ، وقد ساعد على انتشار هذه الصورة للشيطان انها كانت شائعة من أقصى الصين الى أرض بابل وآسيا الصغرى ، وانها كانت شائعة كذلك فى كتب العهد القديم ،وصادفهم خطر التنين الاكبر ، أو خطر الحية الشيطانية فى مقر عبادتها بآسيا الصغرى فكثرت فى رسائل العهد القديم اشارات النساك الى « برجاموم » عاصمة هذه العبادة التى يظهر انها كانت متوارثة هناك منذ زمن قديم وتجددت دعوتها بعد قيام الدعوة المسيحية على سبيل المقاومة ورد الفعل مع غيرها من الدعوات التى كان أصحابها يتألبون عمدا أو على غير عمد لمقاومة الدين الجديد

ويمكن أن تعتبر رموز الرؤى مقدمة للصور الفنية التى اختارها المصورون والمثالون بعد انتشار المسيحية ، وقيام هياكلها واشتغال أصحاب الفنون برسومها ومبانيها ، فهناك صور للشيطان على مثال التنين ، وصور

اخرى على مثال التنين فى جميع أعضائه غير الرأس فقد كانوا يجعلونه رأس انسان ذى قرنين أو أذنين صاعدتين فى مكان القرنين ، وكلما تقدم اللاهوت فى وصف طبيعة الشيطان غابت ملامح الحية والتنين وخلفتها ملامح انسان خبيث الطلعة يعمل الفن عمله فى ابداعه دلائل الشر التى تغنى عن استعارة الشبه الشرير من مشابه الحيوان ، ولكنهم ظلوا الى زمن أخير يصورون الشيطان بظلف مشقوق ويحتفظون فى هذا الشبه بصورة «الساتير» اليونانى المتهالك على الشهوات ومعاقرة الخمور .

أما الصور اللاهوتية فقد افاض الاباء الاولون فى شروحها وفروضها واجتهد كل منهم على حسب علمه واطلاعه فى تطبيقها على الطبيعة المفروضة للشيطان ، ويعتبر ترتوليان «Tertullian» المتوفى سنة (٢٣٠ م) وأوريجين المتوفى سنة (٢٥٤ م) أوفر الفقهاء المتقدمين مشاركة فى وصف الطبيعة الشيطانية واسناد الافعال والنيات التى تلائمها الى الشيطان واجناده على حسب درجاتهم فى السيادة العالية ، وعند ترتوليان ان الشيطان الاكبر يرصد شيطانا من جنوده لكل انسان من بنى آدم وحواء ، وان أدلة وجود الشياطين عامة متواترة فى عقائد المهتذين والوثنيين المضللين وكلهم يسلمون أن الشيطان يتعقب الانسان ويتسلل الى مخادع نفسه على غفلة منه أو بعلمه واختياره ، ولكن المسيحى المؤمن بقدرة السيد المسيح المستقيم على منهجه يملك السلطان النافذ فى هذه الشياطين ويستطيع أن ينقذ منها فرائسها اذا صدقت نيتهم فى طلب الخلاص منها ، وليس المسيحى الذى يعجز عن قهر الشيطان خليقا عنده بوصف الايمان

ولا شك أن « أوريجين » كان فقيه القرون الثلاثة الاولى غير مدافع ، وكان له من العلم بحكمة عصره مالم

يكن لاحد من معاصريه ، وكان الى جانب ذلك مؤمنا راسخ الايمان تقيا شديد التقوى ، ولم يكن له مطمع فى رئاسة كهنوتية أو غنيمة دنيوية ،فقد جب نفسه ليتقى فتنة الشيطان وهو يعلم البنات والفتيات ، ويعظ النساء فى البيع والبيوت ، وقد علم وهو يفعل ذلك أنه يحرم نفسه مناصب الكهنوت العليا التى تحرم على المجبوبين والمشوهين ، فلم يستعظم هذا الحرمان حماية لسريرته من غواية الشيطان ،وهذا مع اسهابه فى التفرقة بين دواعى الشر التى يوحى بها الشيطان وجنوده ، ودواعى الشر التى ركبت فى طبيعة الانسان وهى شهوات الطعام ولذات الجسد وفى مقدمتها اللذة الجنسية ،ولعله فى كل ما كتبه عن تسخير الشيطان لهذه الشهوات لم يثبت قدرته على الغواية كما اثبتها على ذلك النحو الرهيب

ولم يجد أوريجين مشقة فى اسناد الشر والخطيئة الى سيادة هذا العالم ، فانه عاش فى زمن قد اجتمعت مذاهبه على تحقير المادة واعتبارها جرثومة النقص والكثافة والفساد ، وعم فيه القول بين النساك والزاهدين بأن طلب السيادة هو المحنة التى اسقطت ابليس وجنوده ، وان « التواضع » هو شعار ملكوت السماء وهو آية المسيح المخلص الذى يزهد فى المواكب ويأتى كما أتى من قبل على حمار ابن أتان . غير أن أوريجين كان يمزج اللاهوت بمعارفه الفلسفية ويقرر طبيعة الشيطان وفقا لما تمليه عليه الفلسفة والدين ، ورأيه فى تكوين الشيطان انه ذو جسد يلائم مقامه فى الهواء الكثيف المحيط بالارض ويتطلب الغذاء من الدواخين والابخرة والدم الخالص مجردا من اللحوم والعظام ، ولهذا يحاول أن يفسد القرابين الالهية ويختلس أبخرتها ودماءها ليتحول بها عن مقصدها

ويفرق أوريجين بين الملك الساقط والشيطان الرجيم ،

ويوافق بعض الذين سبقوه فزعموا أن الطبيعتين تلتقيان في ذرية الملائكة الذين هبطوا الى الارض فعشقوا بنات الناس وقالوا أنهن حسنات ولم يقصدوا العصيان بل وقعوا فيه وهم لا يعرفون عقباه

وللشيطان سبيلان الى غواية الانسان في راى الفقيه الفيلسوف : احدهما ان يوسوس له من حيث لا يراه لان طبيعة جسده كما تقدم من طبيعة الهواء ، فهو يجرى من سريرة الانسان مجرى النفس الذى لا تراه العينان ، والسبيل الاخر أن يستولى عليه ويتخبطه على هواه ويبتليه بالامراض والعاهات وقد يسلط الاوبئة والطواعين على المدن والاقطار الواسعة ليذودها عن رحمة الله ، وله جنود فى كل مدينة وكل قطر وبين كل معشر يعبدون الاوثان او يعبدون ربا من الارباب غير الاله الواحد الذى يدين به اتباع السيد المسيح ، فما كانت هذه الارباب والاوثان الا شياطين من جنود ابليس تنتزع ابناء ادم وحواء من سلطان السماء وتموه عليهم العقيدة الصالحة بما يشبهها من الشعائر المسيحية ، ليختلط عليهم الحق والباطل وطريق الهدى وطريق الضلال

كان من عقائد اوريجين ان التمييز بين الخير والشر فطرة فى كل موجود عاقل يدرك ويختار ، ولا استثناء فى ذلك للشياطين عامة ولا لرئيسهم الاكبر ابليس ، فهم لم يخلقوا منحرفين مضللين ولكنهم انحرفوا وضلوا بما داخلهم من الكبرياء والتمرد والحسد فغلبتهم الشقوة وعز عليهم ان يجتمعوا لنداء الخير والمحبة والسلام ، فاقبلوا على الشر وامامهم سبيل الصلاح يمضون فيه لو سلست له قيادتهم ورفعوا عن اعينهم تلك الغشاوة التى وضعوها عليها بأيديهم ، ولابد لهذا الضلال من نهاية بعد زوال المحنة وانقضاء التجربة التى يبتلى بها العالم اخر

الزمان ..

ولما اراد اوريجين ان يقدر للشيطان مصيره فى نهاية العالم لم يتبع اقوال المتنبئين واصحاب الرؤى بل اتبع النصوص القديمة وفسرها على هدى الحكمة الحديثة فى عصره ، ولم تكن فى عصره حكمة احب اليه من الحكمة الرواقية التى تلقاها اليونان قديما من الهند وبثوا فيها من عقائد فيلسوفهم فيثاغوراس قبسا يقربها الى العلم وادب السلوك

فقد وجد « أوريجين » فى عصره قصصا دينيا مستفيضا عن وقائع الشيطان مع الملائكة ومصيره بعد الهزيمة الحاسمة فى آخر الزمان ، وفى القصص ملاحم الحرب بين ميخائيل رئيس الملائكة وابليس رئيس الشياطين ، واطوار القتال الذى يدور سجالا بين الفريقين ويؤسر فيه بعض الشياطين فيحبسون فى باطن الارض أو يقيدون بالاغلال حتى الموعد الاخير ، وتروى هذه القصص أخبارا عن الشياطين والملائكة المطرودون الذين لا يستطيعون الصعود الى السماء او الذين يصعدون اليها فيرتدون عنها خوفا من الرجوم الالهية ، فمقامهم بعد ذلك عند السماء الثانية أو فى مفاور الارض يتحصنون بها من هجمات الملائكة الصالحين والقديسين المقربين ، ثم تنشب الملحمة الأخيرة قبل القيامة وبعد ظهور المسيح الاول بألف سنة ، فيذهب أهل النار الى النار ويرتفع أهل النعيم الى النعيم

أما « اوريجين » فنهاية العالم عنده هى نهاية الدورة الكونية التى اعتقدها الهنود من قبل ثم اعتقدها الرواقيون بعدهم وفوضوا لها آدابا من اداب السلوك تكفل لمن يسلكها أن ينجو من الكارثة الكونية مطهرا من شوائب الحياة الارضية ، فيخلص الى الوجود الحق فى

وستنتهي الدورة الكونية وتتطهر الخلائق بالنار الابدية ويبطل الفناء ويموت الموت فلا خطيئة ولا عقاب في عالم لا موت فيه ، ويتعذر – طبعا وعقلا – أن يبقى الشيطان على شره بعد زوال معدنه وخلاص العالم من الموت الذى ابتلاهم به من طريق الخطيئة ، ومن الجائز الا يتم الخلاص والتطهير على درجة واحدة بل يأتى تباعا على درجات مترقيات ، ولكنه لا يكون متى أتى الا كما ينبغى ان يكون بلا موت ولا خطيئة ولا عقاب

ونكتفى بما لخصناه من شروح أوريجين وفروضه فى التعريف بالشيطان أو التعريف « بالشيطانيات » على الاصح لانه قد جعل هذا التعريف بابا من ابواب الدراسة اشتهر فى الازمنة الاخيرة باسم « الديمنولوجى » اى علم الشيطانيات ، ولكننا لا ننتقل منه الى ما بعده دون ان نلاحظ على هذه التعريفات ملاحظة جديرة بالتوقف لديها فيما يروى عن القرن الثالث للميلاد على التخصيص ، ففى ذلك العهد المريب لم تكن فى العالم عقيدة غير المسيحية توحى الى المؤمن بها مثل هذه الثقة بالامور المغيبة فى ادق الجزئيات ، وذلك هو سر قوتها وارتياح النفوس اليها بين ظلمات الحيرة والريبة التى رانت على المذاهب جميعا وتركتها لمتقديها أشبه شيء بالسلوى التى يزجى بها الفراغ ولا تمضى مع الجد خطوة الا عادت الى اللعب خطوات ، وقد كان اشبه المذاهب بالجد فى ذلك العصر مذهب العرفيين Gnostics الذى كان فى حقيقته عنوانا لكل مذهب يرد على الخاطر فى تلك الاونة ، اذ كانت المعرفة ألوانا ، وكانت ألوان الوسائل التى تطلب بها لا تقل عن الوانها ، ومنها – فيما نحن بصدده من حديث الشيطان – معرفة الخبرة باللذات والرذائل المحرمة لان

الجهل بها يسلب طلاب المعرفة حظا يتاح للجاهل ولا ينبغى لهم أن يتجنبوه ، وقد اباحت طائفة من هؤلاء المعرفيين عبادة الشيطان مع أصحاب النحل التى كانت تعبده وتتقرب اليه باستباحة الرذائل والارجاس ، وتسميها المعرفة بالنور من طريق المعرفة بالظلام ، ولم تنقض فترة طويلة على هذه النحل المتفرقة حتى تجمعت منها نحلة كبيرة اوشكت ان تعم القارة الاوربية من أقصاها شرقا الى اقصاها غربا فى القرون الوسطى ، وبقيت منها — كما تقدم — بقية الى اوائل القرن العشرين

ولا يتوقف تاريخ اللاهوت بعد أوريجين على اسماء اكبر من أسماء القديس أوغسطين ، والقديس توما الاكوينى ، ومارتن لوثر رافع علم الثورة الذى سمى هو نفسه شيطانا ، وسمى الحبر الاعظم فى زمانه بالشيطان

عاش القديس اوغسطين بين أواسط القرن الرابع وأوائل القرن الخامس للميلاد (٣٥٤ — ٤٣٠) وأحاط بما تقدمه من الشروح والفروض فى موضوع الشيطانيات ، وذهب فى علة سقوط الشيطان مذهبا كمذهب أوريجين فقال انه خلق للخير ولكنه أشقى نفسه بحسده وكبريائه فأنزله الله من سماء الاثير الصافى الى هواء الارض الكثيف ولا يمتنع عند اوغسطين أن يكون هذا الجسد ملائما للتناسل من الأجساد البشرية لأن الحديث عن علاقة الشياطين بالنساء الادميات متفق عليه بين الوثنيين عباد الشياطين وبين المؤمنين الذين يلعنونها ويؤمنون بوجودها ، واطلع أوغسطين على أطراف من الفلسفة اليونانية كما اطلع عليها أوريجين ، فلم يستبعد ان يكون جسد الشيطان أرفع من جسد الانسان كما زعم الفيلسوف الافلاطونى أبوليوس **Apuleius** الذى كان له بعض الحظوة بين المثقفين من رجال الدين ، ولكنه أبى

ان يقول ان امتياز الشيطان بالجسد يرفعه رتبة على الانسان ، فان الحيوان ليمتاز على الانسان بالحس كما يمتاز النسر بالنظر ، والكلب بالشم والطير بالخفة ، ولا يقال انها أرفع منه رتبة لرجحانها عليه فى هذه الحواس ، وقد يخف جسم الشيطان عن الجسم البشرى ولكنه يصلى بجسمه نار العذاب كما جاء فى وعيد السيد المسيح

واوغسطين هو صاحب الكتاب المشهور عن « مدينة الله » أو عن ملكوت الله ، وتقابله مملكة العالم التى قد سيطر عليها الشيطان عنوة او بالكيد والخديعة ، وفى وسعه ان يتسلل الى الارواح من مسكنه فى طبقات الهواء او يترصد لها وهى صاعدة الى الملأ الاعلى ، فانها فى معراجها لاتنى تعبر بالشياطين الملعونين والملائكة الابرار ، فاذا كانت فى حياتها قد غلبت سيادة الشر بقمع الشهوات والزهد فى المطامع فلا سلطان للشيطان عليها فى معراجها الى عليين ، واذا خرجت من الدنيا وفيها شائبة من غواية الشيطان عالقة بها فتلك هى العلاقة التى يقنصها منها الشيطان ، ويعوقها بها من الصعود ، ويهبط بها الى هوائه أو هاويته حيث يشاء

ويرى أوغسطين كمن تقدموه واتوا بعده ان الشيطان عليم بالسحر قادر على نشر الأوبئة والمداواة منها ، وان الأوثان المعبودة شياطين لها هذا العلم وهذه القدرة وفى وسعها ان ترضى عبادها بقضاء المطامع وترهبهم بالخوف والمرض ، ولكنها قدرة محدودة تقصر عن عزيمة الايمان اذا صدقت نية المؤمن عليها ، ولم يترك المؤمنون سدى فى حربهم معها لانهم معانون عليها بكفارة السيد المسيح

وأعظم الاعلام فى اللاهوت المسيحى بعد اوغسطين فيلسوف القرون الوسطى توما الاكوينى (١٢٢٧ ــ ١٢٧٤)

الذى فلسف العقائد المسيحية على مثال لم يسبق اليه ولم يلحقه أحد بعده ، ومحور فلسفته حرية الارادةالتى يملكها كل مخلوق عاقل ، وأولهم الشيطان لانه كان فى المنزلة العليا بين المخلوقات العلوية وكان امتحانه من ثم اعسر من امتحان سواه ، وكانت قدرته كذلك على الثبات والنجاة أعظم من قدرة الاخرين ، فأذهلته العظمة عن كل شىء غير نفسه وطمح الى مساواة الله فىعظمته ومشاركته فى وحدانيته ، وتبعه من تبعه ممن هم على غـــراره فهوى من عليائه وهوى معه تابعوه

ويسمى الفيلسوف هؤلاء الشياطين جميعا بالكائنات العقلية او الكائنات الذهنية ، تمييزا لها عن اللائنسات الحيوانية المولدة من التراب ويقول انهـــا مسلطة على عقول البشر لاستدراجهـــا واستخراج غاية ما انطـــوت عليه من الصدق والمناعة ، وقد يحـــدث ذلك باذن الله وقضائه ، وقد تكون ذرائعه الكبرى مســـتقرة فى غرائز الانسان ويكون الانسان فيها عدوا لنفسه اذا غلب عليه هواه قبل ان يغلبه وسواس الشيطان

ويجارى الفيلسوف من تقدموه فى الاعتراف الشيطان بالقدرة على العجائب والافانين التى تشبه المعجزات ، ولكنه يحد هذه القدرة حد العالم الفيلســـوف الذى يرفض عقلة التسليم بالعبث فى نظام الطبيعة ، فلا خوارق على التحقيق فى طاقة الشيطان ، ولا تعقل الخوارق الا من عمل الاله الذى وضع للعالم نظامه واجـراه عليه ، وانما يستطيع الشيطان اثارة المادة بعناصرها فيدمر بها من تراد له الفتنة ولا يتعدى هذه العوارض الى تبديل جوهر المادة او تبديل جوهر الروح ، وكل ما يصنعه الشيطان مما يلتبس على الناس بالمعجزات فانما هـــو خداع لحس الانسان حتى يرى الاشياء على غير صورها

او تبديل لاشكال تلك الاشياء لا ينفذ الى الصميم

ولعل القديس توما الاكوينى قد قال كلمة اللاهوت الاخيرة فى هذا الموضوع ، فلم يحدث بعده رأى غير هذا الرأى فى تصوير الشيطان او تصوير قدرته على بنى الانسان

ويأتى اكبر الاعلام بعده فى اللاهوت المسيحى على اتجاه غير هذا الاتجاه ، ولكنه لا يغير شيئا من وصف الشيطان كما يغير الشيء الكثير من وصف الذين استهواهم الشيطان فى رأيه بين رجال الدين ورجال الدنيا ..

جاء مارتن لوثر اواخر القرن الخامس عشر وعاش الى مابعد منتصف القرن السادس عشر (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦) ولم يتغير بين عصر الاكوينى وعصره معتقد واحد من المعتقدات التى كانت شائعة عن الطبيعة الشيطانية

فكان لوثر يؤمن بوجود السحرة ومبايعتهم سرا او علانية لارواح الشر وزمرة الشيطان ، وكان يؤمن بقدرتهم على تسخير الاوبئة والافات واستحقاق السحرة قضاء الموت الابدى اذا اثبت عليهم ممالأة الشيطان على المؤمنين الابرياء ، وتمتلىء احاديث المائدة التى نقلت عنه بما كان يرويه لجلسائه من قصص الشياطين السحرة فى زمانه وقبل زمانه ، ومنها ان رجلا من المؤمنين بصق على الشيطان فلاذ بالفرار ، وان رجلا اخر لقيه فكسر له قرنا من قرونه ، وحاول ذلك رجل اخر دونه فى الايمان فبطش به الشيطان ، ونصيحة لوثر للمؤمنين ان الشيطان سخرية فاضحكوا منه ولا تهابوه !

ومما تحدث به فى مجالسه قصة عن الامبراطور فردريك الذى كان يصادق علماء الغرب ويطلع على علومهم ويتهم بالزيغ والكفر لاشتغاله بالمحرمات من العلوم والصناعات ، وخلاصة هذه القصة ان الامبراطور دعا الى

مائدته ساحرا مشهورا واراد ان يناجزه فى القدرة فجعل له فى يديه مخالب كمخالب الرخاخ الاسـطورية ذات الاجنحة والقوائم والانياب فخجل الساحر ولم يمديديه الى الطعام .. وانهم لعلى المائدة اذا بصيحة من الطريق تزعج الامبراطور فينهض الى النافذة ليطلعليها ، فيغتنم الساحر فرصته السانحة ويجعل للامبراطور قرونا على راسه كقرون الايائل ، فلا يستطيع ان يرتد براسه عن النافذة وعليه تلك القرون ...

وعلى جدار من جدران قلعة « وارتبرج » مداد سائح بقيت آثاره ، وعلم الزوار مما يرويه حراس القلعة نقلا عن المعاصرين انه من مداد الدواة التى القاها لوثر على الشيطان حين تراءى له ليصده عن دعوته ويكفه عن هجماته على احبار زمانه ، ولم يبرح لوثر طوال ايامه آخر حياته ينادى بأنه فى حرب مع الشياطين ويحسب القائمين بالسلطان فى الارض باسم الدين عبئا على ملكوت السماء

ثم انقضت القرون الوسطى وتقدمت النهضة العلمية فاصطدمت فى كل وجهة تتجه اليهـا بالكلام فى «الشيطانيات» او علم « الديمنولوجى » كما عرف فى الزمن الاخير

كانت النهضة العلمية تصطدم بهذا البحث خاصة لانه كان يدور على السحر والسحرة ومخالفة « المعـرفة الدنيوية » للشياطين أعداء الله وأعداء الدين ، وكانت مجالس التفتيش تعمل عملهافى مطاردة السحرة أوالمهتمين بالسحر لانهم ينظرون فى الكتب التى لا يقرها اللاهوتيون

وانقسم الباحثون فى « الديمنولوجى » قسـمين متنازعين : قسم اللاهوتيين وهمهم الاكبر ان يوفقوا بين النصوص الكتابية ومعارف الزمن الحديث ، وقسـم العلماء التجريبيين وهمهم الاكبر ان يدفعوا عن انفسهم

تهمة التحالف مع الشيطان ، ويشككوا فى وجود الشيطان اويجزموابانكارهلانهلايظهرلهمعيانا اويظهربالتجربةوالبرهان

غير ان اللغة التى تداولها الناس من قبل القـــرون الوسطى قد تلقت من « الديمنولوجى » تعبيرات مفهومة غير ملتبسة على أحد يتكلم بها او يسمعها ، وجرت هذه التعبيرات على السنة المتدينين كما جـــرت على السنة المنكرين او المتشككين فى العقائد الدينية · فلما كان لوثر يقول ــ مثلا ــ عن الربا وبيوت التجارة والمصارفة فى القرون الوسطى انها « مخترعات » شـــــــيطانية وان الشيطان هو الذى يدير تلك البيوت لحسابه ، لم يكن احد يحمل كلامه على المجاز أو يشك فى قصده الىشيطان غير شيطان النصوص الدينية الذى يجوز ان يبدوللعيان او يعمل مع أصحاب تلك البيوت فى الخفاء ، ولـــكن المتدينين وغير المتدينين شهدوا بعد ذلك قيام الصناعة الكبرى وأجهزة البخار الضخمة فوسموها «بالشيطانية» ونعتوها بالصناعة السوداء او بصناعة الظلام وهـــم يأخذون من هذه الكلمات معناها الذى لا يختلفون فيه ويفهمون منها ان تلك الصناعة خلو من الرحمة والعطف، مظلمة من ظلام الفحم والدخان او ظلام الغشم والقسوة، سواء نسبوها الى الشيطان او جعلوا الشيطان علمـــا مفهوما على كل هذه المساوىء والنعوت

ويغلب على الظن ان سهولة التعبير المجازى على هذا النحو سولت لاناس فى القرن التاسع عشر ان يقحموا فوارق اللون والعنصر فى احاديث « الديمنواوجى » وأن يزعموا كما زعم الدكتور كارترايت ان الشيطان لم يتكلم فى الجنة بلسان الحية بل كان كلامه بلسان زنجى أسود على مثال الشيطان الذى كان يصبغ بالسواد فى صـــور القرون الوسطى ، وكأنما اراد كارترايت ان يـــرتقى

بالفكرة درجة فوق الدرجة التى وصل اليها الاسقف آدم كلارك فى تعليقاته على سفر التكوين « سنة ١٨٢٥ فجعل الحية زنجيا بعد ان كانت فى رأى كلارك قردا من فصيلة الاورانج اوتانج .. وفى هذه الاونة ـ او حواليها ـ كان الرحالون يسيحون فى امريكا الجنوبية فيسمعون من اهلها البيض أن الزنجى هو البهيمة الكبرى التى ذكرت فى كتاب الرؤيا الابكريفية (١) ويتشكك الكثيرون منهم فى نسبته الى حام لانهم لاينسبونه الى فصائل الادميين

يعود نقاد الاجتماع المحدثون الى عقيدة الخطيئة وزلة آدم فى الفردوس وهبوطه مغضوبا عليه الى الارض فيحاولون تفسيرها بأحوال الطبقات واختلاف هذه الاحوال بين عصر النبلاء وعصر أبناء الطبقة الوسطى ، ومن هؤلاء النقاد جون فلاكستر «Flexner» الامريكى الذى يقول فى فصل كتبه عن الملك الفنان : « ان عقيدة القرون الوسطى ان الانسان سيىء بطبيعته من اثر الخطيئة المتأصلة فيه قد وافقت الميول الارستقراطية لانها سوغت كبح الفرد والحد من حريته . بيد ان الطبقة الوسطى المناهضة باجتهادها لتستقبل الفرص السانحة لها أصرت على براءة الانسان وانه قد ولد ملكا وأفسدته النظم التى فرضها عليه الملوك »

وليس فى المقارنة بين العقائد والاحوال الاجتماعية ما يرجح هذا التفسير اقل ترجيح ، لان عقيدة سقوط آدم تشمل الانسان الحاكم وتشمل الانسان المحكوم ، وقد اقترنت بها عقيدة ملازمة لها اشد قسوة على الحاكمين من كل عقيدة شاعت فى العصور الحديثة ،

---

(١) كتاب « الكبرياء العنصرى » تأليف دنجوال
«Racial Pride», by Dingwal

وتلك هي عقيدة السيادة الشيطانيـــة على الارض وان سادة هذا العالم شياطين او حلفاء للشياطين

ولم تقرر المسيحية دعوة كما قررت هذه الدعوة التى تفرق بها كل التفرقة بين مملكة العالم وملكوت السماء او ملكوت الله ، اذ تكاد المسيحية كلها ان تكون مجموعة فى هذه الدعوة قبل غيرها من دعواتها الاصيلة ، فقد كان حتما لزاما ان تجتهد المسيحية اجتهادها كله فى التفرقة الكاملة بين مملكة الارض وملكوت الله الذى بشر به السيد المسيح ، كان ذلك حتما لزاما لانها نقلت رسالة المسيح المخلص من اقامة العروش على الارض — او تجديد ملك داود الى اقامة الملكوت الالهى فى السماء . وكان ذلك حتما لزاما لانها جاءت بالعزاء للمحرومين من سيادة الارض والمبتلين بطغيان سادتها ، فهم فى حمى الله صاحب الملكوت الاعلى اذ يكون أصحاب السيادة والطغيـــان فى حمى الشيطان وفى هاوية الارض وما وراء ذلك من هاوية الجحيم:

« طوبى للمساكين بالروح لان لهم ملكوت السماوات ، طوبى للحزانى لانهم يتعزون ، طوبى للودعاء لانهم يرثون الأرض ، طوبى للجياع والعطاش الى البر لانهم يشبعون ، طوبى للرحماء لانهم يرحمون ، طوبى للانقياء القلب لانهم يعاينون الله ، طوبى لصانعى السلام لانهم ابناء الله يدعون ، طوبى للمطرودين من أجل البر لان لهم ملكوت السماوات»

فرسالة المسيحية في جانب الانسان المغلوب ، وسيادة العالم هى ثمرة الخطيئة التى باء بها الغالبون ، ولم يتسم الشيطان بوسم السيادة على العالم تعظيما له بل تهوينا من شأن العالم وتحقيرا لغنائمه ومطامعه وشهواته ، ولم يكن أيسر على طالب الحرية الفردية فى الحضارة الحديثة من ان يقول انه هدم سيادة الشيطان وانه غلب الخطيئة فى معقلها وكفر عن جرائرها بالثورة على أصحاب السيادة الشيطانية

وعلى هذا الفهم ينبغى ان تفهم رسالة المسيحية التى بشرت بملكوت الله وجعلت هذه البشارة مقارنة للنعى على السيادة الشيطانية والازراء بها ، فكل تعظيم لسيادة الشيطان فهو فى لبابه تهوين للعالم الذى يسوده وتقديس للملكوت الالهى الذى يرجوه المساكين والحزانى والودعاء والمطرودون من اجل البر وصانعو السلام

اما رسالة المسيحية فى تقرير طبيعة الشيطان نفسه فهى تفرقة اخرى لا تقل فى قوة مغزاها عن تلك التفرقة بين مملكة هذا العالم ومملكة السماء

لقد كان الضرر والشر مترادفين فى الديانة العبرية او كالمترادفين ، فالمسيحية هى التى فرقت بين الضرر الذى هو نقيض السلامة والامان والمنفعة ، وبين الشر الذى هو نقيض الخير والفضيلة والصلاح ، فذلك ضرر مرتبط بالديانة ، وهذا شر مرتبط بالمروءة والتقوى

ان المسيحية هى التى فرقت بين مثال الضرر فى الحية الحيوانية ومثال الشر فى الروح الخبيث الذى ينفث سمومه فى القلب ولا يضير الانسان الا حيث يضار حقا فى اشرف خصال الانسان

وكلمة عابرة تقال فى ذيل هذا الفصل عن رسالة المسيحية التى جاءت بها للتعريف بمعانى الشيطان

ان الكنيسة الرومانية اذا رفعت أحدا الى منزلة القديسين لم تفعل ذلك قبل التحقق من براءته من العيوب التى تنتفى معها القداسة ، وتعهد فى هذه الحالة الى وكيل للخصومة عليم بكل ما يقال عنه لانتقاصه بالحق أو بالباطل

ووكيل الخصومة هذا يسمى بالمحامى الشيطانى «Advocatus diaboli» تشبيها لعمله بعمل الشيطان فى انكار فضائل أيوب أمام الله ، وآية جديدة على عمل الشيطان فى امتحان الخير ، وانه دور لازم فى تقرير كل قداسة ، يخلقه الناس مختارين ولا يصح من اجل هذا ان يقال انه وهم من اختراع الخيال

ج ـ الاسلام

دور الشيطان فى الديانات الكتابية الثلاث مختلف واختلافه بينها جوهرى يدخل فى كيان كل ديانة منها، وترتبط به مقاييسها للخير والشر والتبعة والعقاب

فهو فى الديانة العبرية دور عامل مستغنى عنه ، لانه شبيه بغيره

وهو فى الديانة المسيحية دور عامل فضولى مرذول ، يختلس ويروغ ويخذل فريسته بالنية الخفية والعمل المكشوف ..

على مسرح الخلق دور الشيطان فى الديانة العبريةدور « النكرة » الذى ينوب عنه كل نكرة مثله ، اذ ليس بين الشيطان والملك طريق مفترق ولا عمل منقسم ، وليس بين الاله الذى يعبدونه والاله الذى يعبده سواهم خلاف فى الرضى والغضب ولا فى النعمة والنقمة غير الخلاف بين النظراء فى السلطان

اما المسيحية فدوره فيها على مسرح الخليقة دور الشرير فى قصة الخلق كله ، اذ كان قوام الخليقة سجالا فبين الخطيئة والكفارة أو الغفران ، فلولا غواية الشيطان لم يسقط آدم ، ولولا سقوط آدم لم تكن به ولا بذريته حاجة الى الخلاص من طريق الفداء

وليس فى الاسلام ذنب يرثه احد من أبيه او يورثه لبنيه ، فغواية الشيطان لا تخلق الخطيئة ولا تعفى منها، وشوكة الشيطان لا تحمى أحدا ولا هو يسخرها لحماية أحد ، وحدود التبعات واضحة حيث يعمل الشيطان وحيث لا يعمل ، فهو لا يحمل عن شريك من شركائه تبعة وزر من اوزاره ، ولا يدارى حماقة الغافل الذىينقاداليه

وفى القرآن الكريم يحمل آدم وحواء تبعة الخطيئة على علمهما بغواية الشيطان :

« قالا ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لناوترحمنالنكونن من الخاسرين »

وكلما ذكرت فى القرآن الكريم غواية ابليس ذكر معها انه ما كان له عليهم من سلطان :

« ان عبادى ليس لك عليهم سلطان »

ولذلك تقول الشياطين لمن يرجع اليها بذنبه :

« وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوما طاغين »

« ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء وكانوا بشركائهم كافرين »

ولا ينفع من ضل ان يعتذر من ضلالته بوسواس الشيطان ، فان الشيطان ينكره ويبرأ منه :

« كمثل الشيطان اذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال انى برىء منك انى أخاف الله رب العالمين »

... « وقال الشيطان لما قضى الامر ان الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلومونى ولوموا انفسكم »

وليس شياطين الجن بأقدر على الغواية من شياطين الانس ، فان الشيطنة هى عداوة الحق حيث كانت :« وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا »

بل ليس للشياطين من الجن علم الغيب ولا علم السحر الا انه خداع للحس وفتنة للنفس تخيل الى المخدوع ما ليست له حقيقة قائمة فى غير وهمه : « .. يعلمون الناس السحر وما انزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما

يعلمان من احد حتى يقولا انما نحن فتنة فلاتكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من احد الا باذن الله ، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ما له فى الآخرة من خلاق »

وفى سورة سبأ عن جنود الجن التى جهلت موت سليمان وهو قائم امامهم « فلما خر تبينت الجن ان لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين »

وانما المسحور كالمخمور مخدوع الحواس «انما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون »

« يخيل اليه من سحرهم انها تسعى »

« ولا يفلح الساحرون »

***

وقد ورد فى القرآن ذكر الجن الذين يعملون للانسان باذن الله ومنهم جنود سليمان « ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات »

وفيه ذكر الجن التي تؤمن بالدين وتصدق بالكتب ، وذكر الجن التى تسترق السمع من السماء . وذكر الجن التى تقارن الانس ، وذكرت الجن والعفريت الذى تطوى له المسافة وتنقاد له المصاعب ، ولكنه لم يذكر لها فى مجال التكليف عملا قط يسقط عن الانسان تبعته أو يجعل لها سلطانا عليه بغير مشيئته ، ولا يستعاذ فيه من شر ياتى به الجن الا وهو كذلك من الشرور البشرية ، او من الوسواس الخناس « الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس »

وعلى هذه الصفة تروى تبعات الخطيئة حيث رويت فى قصة آدم وما بعدها من قصص الاولين

وقد رويت قصة آدم فى مواضع متفرقة من القرآن الكريم ، ورويت توبته من عمله أو قوله فى بعض هذه المواضع ، وهى جميعا مآل التكليف الذى يفرض عنى الانسان : يسأل عن خطيئته وان وسوس له الشيطان ، وتحسب له توبته وان كانت بهداية الله :

« واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة . قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك . قال انى اعلم مالا تعلمون ؛ وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا انك انت العليم الحكيم . قال يا آدم انبئهم بأسمائهم فلما انبأهم بأسمائهم قال الم اقل لكم انى اعلم غيب السماوات والارض وأعلم ما تبدون وماكنتم تكتمون . واذ قال الملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين . وقلنا يا آدم اسكن انت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين، فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعا فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون »

وجاءت فى سورة الحجر حيث يفاضل ابليس بين خلقته وخلقة آدم : « والجان خلقناه من قبل من نار السموم ، واذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرا من صلصال

من حمأ مسنون ، فاذا سويته ونفخت فيــــه من روحي فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون ،الا ابليس ابى أن يكون مع الساجدين ، قال يا ابليس مالك الا تكون مع الساجدين ، قال لم اكن لاسجد لبشر خلقتهمن صلصال من حمأ مسنون ، قال فاخرج منها انك رجيم وان عليك اللعنة الى يوم الدين ، قال رب فانظرني الى يوم يبعثون، قال فانك من المنظرين الى يوم الوقت المعلوم ، قال رب بما أغويتني لازينن لهم في الارض ولاغوينهم أجمعين الا عبادك منهم المخلصين ، قال هذا صراط على مستقيم ، ان عبادي ليس لك عليهم ســلطان الا من اتبعــك من الغاوين »

وقد تساءل المعقبون على قصة آدم من الشراح الغربيين عن معنى الشجرة التي أكل منها آدم في الدين الاسلامي ، وقال بعضهم ان القرآن تركنا في حيرة من أمر هــذه الشجرة ، ما معناها وماذا جناه آدم وحواء من جــراء الاقتراب منها وأكل ثمراتها ، وليس في الامر ما يدعو الى التساؤل ولا الى الحيرة ، لولا ان هؤلاء الشراح وضعوا في أذهانهم معنى معلوما وارادوا ان يجدوه في القرآن فلم يجدوه كما ارادوه . اذ لا يخفى على الناظر في القصة ان ثمرات هذه الشجرة هي ثمرات «التكليف» بجميع لوازمه ونتائجه ، وما كان الفارق بين آدم قبل الاكل منها وبعد الاكل منها الا الفارق بين الحياة في دعة وبراءة والحيــاة « المكلفة » التي لا تخلو من المشقة والشقاق والامتحان بالفتنة ومعالجة النقائص والعيوب ، وكلما تكررت القصة في الآيات القرآنية كان في تكرارها تثبيت لهذا المعنى على وجه من وجوهه المتعددة ، ويبــدو ذلك جليا من المقابلة بين ما تقدم وما جاء عن هذه القصة في سورة الاعراف ، وذلك حيث يذكر التصوير بعد الخلق ، او اعطاء الصورة

بعد اعطاء الوجود ، ثم تمضى القصة على ما يلى :

« ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس لم يكن من الساجدين . قال ما منعك الا تسجد اذ امرتك ، قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين . قال فاهبط منها فما يكون لك ان تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين ، قال انظرنى الى يوم يبعثون ، قال انك من المنظرين ، قال فبما اغويتنى لاقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين ايديهم ومن خلفهم وعن ايمانهم وعن شمائلهم ولاتجداكثرهم شاكرين . قال اخرج منها مذءوما مدحورا لمن تبعك منهم لاملأن جهنم منكم اجمعين . ويا آدم اسكن انت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ، فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما انى لكما لمن الناصحين ، فدلاهما بغرور . فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، وناداهما ربهما الم انهكما عن تلكما الشجرة واقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين . قالا ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين . قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون . يا بنى آدم قد انزلنا عليكم لباسا يوارى سوءاتكم وريشا، ولباس التقوى ذلك خير . ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون . يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما اخرج ابويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما . انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم . انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون »

ومن تمام التوكيد لحدود التكليف فى هذه القصة ان خطاب آدم به لا يغنى عن خطاب بنيه واعقابه ، فهومكلف وهم مكلفون ، وخطيئته لا تلزمهم وتوبته لا تغنى عنهم، ومولدهم منه يخرجهم على سنة الاحياء المولودين حيث يحيون وحيث يكدحون ويموتون

ويميل الشراح الغربيون الى النقد كلما وجدوا لهمندحة فى قصص القرآن ولا سيما هذه القصة ، وآخر من وقفنا على نقد له من هذا القبيل « بابينى » الايطالى صاحب كتاب الشيطان ، فانه يستغرب أن يؤمر أبليس بالسجود لآدم مع غلو القرآن فى تحريم الشرك وتنزيه الوحدانية الالهية ، ولكن المطلعين من الشراح الغربيين على اللغة يفهمون معنى السجود هنا ولا يخرجون به عن معنى التحية والاكبار ، ومنهم من يفعل ذلك لانه يريد ان يرجع بعقائد الاسلام الى الاصول الاسرائيلية كما فعل تورى «Torrey» فى كتابه عن اسس الاسلام من التراث اليهودى، ولم يكن فى التراث اليهودى ذكر لغير الحية فى هذا المقام ، وهو فارق شاسع تقوم عليه الفوارق الشاسعة جميعا فى التفرقة بين الضرر والشر او بين الشر الحيوانى والشر الاخلاقى كما قدمناه

وقليل من النقاد الدينيين فى الغرب من يفطن للخاصة الاسلامية الاخرى التى تتمثل فى قصة آدم مع الملائكة والجان ، فان الغالب عليهم ان يتكلموا عن زلة آدم فيسموها « سقوطا » ويرتبوا عليها مايترتب على السقوط اللازم لطبيعة التكوين ،وليس فى القرآن اثر قط للسقوط بهذا المعنى فى حق كائن من الكائنات العلوية او الارضية، فليس فيه شىء عن سقوط الانسان وانما هو انتقال من حال الى حال ، او من عهد البراءة والدعة الى عهد التكليف والكلفة ، وليس فيه شىء عن سقوط الملائكة

وانحدارهم من طبيعة عليا الى طبيعة دونها من طبائـــع الشيطان ، وقصة الملكين هاروت وماروت فاصل بين مايعزى الى الملك ويعزى الى الشيطان من ضروب السحر المباح أو السحر الحرام . « واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمــون الناس السحر وما انزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة فلاتكفر . . »

فالملك الذى يعرف السحر لا يخدع به أحدا ولا يعلم من يريد أن يتعلم الا أن يطلعه على حقيقته ، وليس الخداع ولا الاضرار بالعلم من طبيعة الملك بل من طبيعة الشيطان

هذه القصة بعينها ــ قصة هاروت وماروت ــ يطول فيها الجدل بين اللاهوتيين الباحثين عن اصــولها ، لأن شراح التلمود من اليهود يعتسفون الاقوال والشـــواهد لردها الى المصادر الاسرائيلية ، وكثير من الشراح اليهود أنفسهم وغير اليهود ينفون العلاقة بينها وبين تلك المصادر، فمن الذين ردوها الى المصادر الاسرائيلية من يرى ان الملكين هما اريوخ وماريوخ الموكلان بحراسة كتـــاب ادريس ، ويستند صاحب كتاب اساطير اليهود الى مراجع كثيرة لتصحيح هذا الخطأ وترجيح مصدرها الفارسى (۱) . . ويزعم جيجر **Geiger** أنهما الملكان شمهازى وعــزازيل اللذان هبطا الى الارض فى عهد نوح فتزوجا من بنات الناس ووجدا أنهن « حسنات » كما جاء فى سفر التكوين، ويعتمد جورج سيل مترجم القرآن على تحقيقات هايد **Hyde** فى تصحيح هذا الخطأ والرجوع بها الى أصل بابلى كما جاء فى القصة القرآنية ، وكاد الخلاف على هذه القصـــة أن يعدل الخلاف على قصة آدم وتعليمه الاسماء ومخالفته

---

(۱) صفحة ١٦٠ من الجزء الخامس من مجموعة جنزبرج **Ginsberg**

امر ربه بغواية الشيطان ، وهى القصة التى يحسبها بعضهم من الاخبار التلمودية ، ويقول ابشتين ، وحرنبوم ان التلمود اقتبسها مباشرة من المراجع الاسلامية وبطريق غير مباشر من المراجع المسيحية

غير أن هذه المناقشات جميعا يعتورها النقص الشامل لتحقيقات النصوصيين والحرفيين أجمعين ، وهو الوقوف عند النص أو عند الحرف واغفال الجوهر الذى من أجله استحقت القصة أن تكون موضع اهتمام ومناقشة فى مباحث المقارنة بين العقائد والديانات ، فليست المسألة فى هذه القصص مسألة أسماء ومواقع ولكنها مسألة القيم الروحية التى ترتبط بها وتتغير مع الزمن حسب تفسيراتها ولو بقيت بنصها وحرفها فى الروايات المتعاقبة

وجوهر المسألة كله فى القصة التى نحن بصددها ان القرآن الكريم لم يذكر قط شيئا عن سقوط الخليقة من رتبة الى رتبة دونها ، ولم يذكر قط شيئا عن سقوط الخطيئة الدائمة او سقوط الخطيئة التى يدان فيها الانسان بغير عمله ، اذ العقيدتان - كلتاهما - غريبتان عن روح الدين الاسلامى كل الغرابة ، ولا يعرف الاسلام ارادة معاندة فى الكون لارادة الله يكون من أثرها ان تنازعه الارواح وتشاركه فى المشيئة وتضع فى الكون اصلا من أصول الشر وتسقط الخلائق التى ارتفعت سوية بمشيئة الخالق . فقد جاء الاسلام بهذه الخطوة العظمى فى أطوار الاديان فقرر فى مسألة الخير والشر والحساب والثواب أصح العقائد التى يدين بها ضمير الانسان ، وقوام ذلك عقيدتان : اولاهما وحدة الارادة الالهية فى الكون ، والثانية ملازمة التبعة لعمل العامل دون واسطة اخرى بين العامل وبين ضميره وربه

فليست الخطيئة فى الاسلام أصلا كونيا يعاند الارادة الالهية بارادة مثلها او مقاسمة لها فى آقطار الوجود العليا والسفلى ، ولكنها اختلاس وخلل وتقصير ، وله علاجه من عمل العامل نفسه بالتوبة والهداية بالتكفير والجزاء، ولما كانت فضيلة آدم على الملائكة والجن انه تعلم الاسماء التى لم يتعلموها ، كانت هدايته الى التوبة كذلك بكلمات من المعرفة الالهية ولم تكن بشىء غير عمله وقوله

فاذا فهمت العقيدة الاسلامية على هذا الوجه فهذه هى القيمة الروحية التى تجرى المقارنة والموازنة عليها كائنا ما كان القول فى تشابه الاسماء والقصص وتوافق المراجع والاسانيد ، وما من دين قط خلا من الاسماء والقصص التى سبقته اليها الاديان المتقدمة عليه فى تاريخ دعوتها، وليس اكثر من الأسماء البابلية والفارسية فى كتب العهد القديم وكتب التلمود ، وليس أكثر من هذه جميعا فى مسألة واحدة قبل كل مسألة يتناولها الايمان ، وتلك هى مسألة الخير والشر والتبعة والجزاء ولا خلاف — مع فهم هذه المسألة — على فضل الاسلام فى هذه السبيل

ان الاديان الكتابية لم تتعاقب عبثا ولم تأت المقدمات فيها بغير نتائجها

فالعبريون تلقوا ديانتهم وهم على حالهم من الوثنية فلبثوا زمنا يخلطون بين فواصل الخير والشر وفواصل المنفعة والضرر ، ولبثوا زمنا أطول من ذلك يخلطون بين الوحدانية فى الوجود كله وبين الوحدانية التى تميزهم باله لا يقبل المشاركة من الارباب الاخرى ، كأنهم شركاء المنافسة والمناظرة بغير حق وبغير قدرة

ثم جاءت المسيحية ففصلت بين الخير والشر بفاصل كبير ، وحققت معنى الخير الروحانى الذى ينفصل من معنى

المنفعة والسلامة ، وباعدت بين العالمين وتركتهمامن بعدها كأنهما دولتان تتقابلان ، هذه فى السماوات وهذه فى الارضين ، وتكاد الارضية منهما تبسط يدها الى حوزة الاخرى وتأخذ منها الى حوزتها معقلا يسترد ويستماد ، ولا يملك الانسان فيه حيلة امام الاله وامام الشيطان ، وانما يجىء الذنب بعمل الشيطان ويزول الذنب بعمل الاله ..

ثم جاء الاسلام فبسط على الوجود كله وحدة لامثنوية فيها على وجه من الوجوه ، ومنح الارادة الانسانية حقها وتبعتها وجعلها ظالمة لنفسها اذا سمحت للشيطان ان يظلمها ، فانما هو خداع وضعف ، وانما هما طريقان بينان لا يخدع عنهما سوى المأخوذ او المسحور ، الا أن يؤثر الضلالة على الهدى ويصر على ضلالته بين دواعى التوبة والندم

فهذه الديانات لم تتعاقب عبثا ولم يكن لها فى اطوارها سبيل اقوم من هذ السبيل ، ولو نظرنا اليها فرضا وتقديرا ولم ننظر الى وقائع التاريخ

وكل ما تقدم انما يتبين لنا من العقائد الاسلامية كما نتلقاها من القرآن الكريم ، وقد احسن فهمه مفسرون واساء فهمه مفسرون ، ولعله لا ينصف العقائد الاسلامية شىء كما ينصفها فى هذا المقام أن نرجع الى المسيئين فنراهم جميعا قد أساءوا فهم كتابهم لانهم فسروه بالاسرائيليات والتلموديات وحسبوها سندا محققا عند أصحابها الاولين ، وما كانت عندهم غير أحاديث يتلقفونها ممن تقدمهم لانهم لم يفهموا كتبهم فالتمسوا فهمها بمعونة من تلك الاحاديث

وليس من عملنا هنا أن نستقصى أقوال المفسرين فى شئون الغيب ، ولكننا نلخصها اجمالا فيما نحن بصدده

من طبيعة الشيطان وطبيعة الخلائق العلوية كالملائكة والارواح . فأضعف الاقوال ان الملائكة والجن ، تشملهم كلمة الاجتنان لمعناها اللغوى الذى يفيد معنى الخفاء ، وارجحها القول الذى أخذ به الفيلسوف الرازى فى تفسيره حيث يقول : « لما ثبت ان ابليس كان من الجن وجب الا يكون من الملائكة لقوله تعالى : ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون : قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن » وهذه الآية صريحة فى الفرق بين الجن والملائكة

ولا حاجة بنا الى اسهاب أو ايجاز فى نقل أحاديثهم عن الجن واسمائها وأجسامها ومن يأكل منها وما يأكله أو لا يأكله ، فهو على لغوه وخطله ليس له مساس بما نعنيه فى هذا السياق

الفصل الرابع



عُبّاد الشيطان

تخلفت ـ بعد الاديان الكتابية ـ نحلة تتسم بالشذوذ المطبق فى جميع أطوارها . لانهـا شـاذة فى موضوعها : وشاذة فى انتسابها الى اصولها ، وشاذة فى وسائل نشرها والدعوة اليها

موضوعها شاذ وهو عبادة الشيطان

وانتسابها الى اصولها شاذ لأنها تأخذ من الهندية والمجوسية والشامانية واليونانية وأديان الحضارة الاولى والاديان الكتابية

وجميع مقوماتها واركانها شذوذ فى شذوذ، لأنها تجمع النقائص فى شعائرها وتعمل أحيانا على مرضاة الشيطان ومرضاة الاله الاعلى بفريضة واحدة

ووسائل الدعوة اليها شاذة لانها سرية يبالغون فى كتمانها مع امتداد معابدها من آسيا الوسطى الى اوربة الغربية وافريقية الشمالية ، ويعجب الناظرون فى أمرها من الذى يتولى نشرها وما بواعثه النفسية او القومية التى تحضه على نشرها ، وهى مع الاديان الاخرى بين موافقة تأباها تلك الاديان ومناقضة تثيرها عليها

ومن العسير ان توضع هذه النحلة فى نسق منتظم

مع تطور العقائد فى مجموعة الامم الانسانية ، ولكننا نحاول وضعها فى مدرجة من هذه الاطوار جهد المستطاع، مع ملاحظة الاصول الجغرافية والعنصرية

فمن الراجح المعقول ان عبادة الشيطان تنتمى قديما الى الشعور بقوة الشر في البيئة التي نشأت فيها وأحاطت بها

ومن الراجح المعقول أيضا ان الشعور بقوة الشر قد كان على أشده حيث آمن الناس بقسمة العالم بين النور والظلمة وبين الطيبة والخباثة ، وجعلوا لاله الشر حصة فى الكون مساوية لحصة اله الخير او قريبة منها ، وتلك هى الثنوية .« الزردشتية » منذ أقدم أطوارها

وينبغى ان نذكر أن الثنوية كانت تفرض لاله الشر فى بعض الازمنة سلطانا أكبر من سلطان اله الخير فى العوالم الارضية ، وتسوغ هذا الفرض الغريب بأن سلطان الشر سلطان موقوت يندثر بعد حين ، فالنور والخير منفردان بالسماوات العليا ، والظلمة والشر غالبان على الارضين السفلى الى الموعد المعلوم ، ثم يتقهقر هذا السلطان فى العالم الانسانى ليخلفه سلطان الخير أبد الآبدين

قامت هذه العقيدة قديما فى أرض فارس على تخوم السهوب الاسيوية ، حيث لا تعرف العشائر المرتحلة غير شياطين الصحارى أو أرواحها المتمردة ، ولا تزال فى كل رحلة من رحلاتها عرضة لعصف الثلوج والحرارة وفتك السباع والافاعى ونكبات القحط والطوفان ، ولا تأمن فى طريقها مالم تكن على هوى الشيطان

ولم يكن هوى تلك العشائر فى حياتها الاولى مخالفا كل المخالفة لهوى الشيطان فى عنفه او فى كيده أو ختله أو فى اندفاعه مع شهواته وأطماعه ، فكانت تنساق لاهوائها حين تزعم انها تنساق لاهواء الشيطان

في تلك الارجاء تاصلت العبادة الثنوية وتأصلت معها العبادة الشامانية وهي عبادة الارواح والشياطين

ففي بلاد العمار ـ أو بلاد الحضارة الفارسية ـ تهيات الاذهان للعقائد الكونية الواسعة فتأصلت الثنوية وعلمت الناس أن الشر غالب على الارض ولكنه مغلوب بعد حين ، وان « اهريمان » راس الارواح الخبيثة نافذ السلطان في عالم الانسان ..

وفي السهوب المقفرة تاصلت الشامانيـــة وشعائرها التي لا تفصل بين الكهانة والسحر بفاصل محدود ، فقد يكون الروح الواحد طيبا هادئا اذا رضي واستراح الى مقامه .واستوفى مطالبه من فرائسه وضحاياه ، وقد يكون خبيثا عارما يتخبط فريسته فلا تجدي عنده شـــفاعة الكاهن الساحر أو يثوب الى السكينة بمحض هواه

لما ظهرت المسيحية كانت الثنوية والشامانية على أقوى ما كانتا عليه قبل الميلاد

ونشطت مع المسيحية في مجال واحد عقيدة ثنـوية حملها جنود الرومان من تخوم الهند الىالجزر البريطانية، وهي عقيدة « مترا » بطل النور الذي استشهد في حربه لاله الظلام ، ووعد عباده بالعودة اليهم بعد حين مظفرا متمكنا من الارض والسماء مادامت الارض والسماء

وانهزمت عقيدة « مترا » امام المسيحية

ولكن هزيمة العقيدة المتـــرية لم تقتلع الثنوية من جذورها ، ولم تكن احوال العالم في القرون الاولى بعـد الميلاد مما ينسي الناس وطأة الشر وسلطان الشيطان .. ولم تكن المسيحية في دعوتها تنفي غلبة الشيطان على العالم وانقياد السادة المسيطرين على الامم لوساوسـه ورذائله ، فنجمت من بلاد الثنوية نحلة اخرى تسمى

المانوية منسوبة الى « مانى » الذى ولد فى بابل الجنوبية حوالى سنة (٢١٦ للميلاد) واستهل دعوته فى ابان قيام الدولة الساسانية فكان له من ملكها الثانى « سابور الاول » نصير قوى ايام حكمه ، على أمل منه فى توحيد النحل المجوسية على قواعد الدين الجديد ، ولكنه أمل لم يتحقق ولم يستطع مانى أن يصمد لإقطاب النحل الاخرى بعد حكم سابور ، فألقى فى السجن حيث مات وهو يناهز الستين ، ووسم اتباعه باسم الزنادقة اى الكذبة المنافقين ، وقيل عنهم أنهم «اهرمانيون شيطانيون»

الا أن « مانى » كان من المجددين فى عقائد قومه وفى ثقافتهم وفى كتابتهم الابجدية ، ومن مساعيه فى تجديد الثقافة تيسير الكتابة بالحروف الآرامية وتنقيح أوزان الشعر والاناشيد المقدسة وتقريب مذاهب العرفيين Gnostics الى مذاهب المجوسية والمسيحية وتحقيق الخلاص الروحانى من طريق الحكمة والتعمق فى أسرار العلوم

ولم يخرج مانى من نطاق الثنوية فى آفاقه الواسعة ، فمعظم مذهبه ثنوية « زردشتية » أو مجوسية ، وقليل منه مقتبس من اراء العرفيين وعقائد المسيحية فى الصدر الاول قبل أن يتوسع فيها الآباء المتأخرون

فالوجود من ازل الآزال وجودان منفصلان : عالم النور وعالم الظلام ، ولا فاصل بينهما يمنع أحدهما أن يبغى على الاخر اذا شاء ، ولكن عالم النور لا يعرف البغى بل يعرفه رب الظلام حسدا ، فيزحف بجنوده كرة بعد كرة ويأبى رب النور أن يقابل العداء بالعداء لانه بطبيعته محبة وسلام وحسبه أن يتجلى حيث شاء فيجفل منه الظلام

ولما تكررت هجمات رب الظلام على العالم النورانى يحاول ان يكمن فيه وينتزع منه ما استطاع ، خلق رب

النور آدم السماوى وارسله الى الارض بمزيج من طبيعة الملك العلوى والحيوان الارضى ليلقى جنود الظلام فى ميدان القتال ، وكان آدم هذا ـ او جيومرث كما يسميه المجوس ـ طيبا سليم القلب يحارب شريرا مزودا بسلاح الخدعة والدهاء ، فانهزم ووقع فى أسر الظلام ولم يجد رب النور بدا من الهبوط بنفسه الى الميدان لانقاذ مخلوقه الاثير لديه من غياهب العالم السفلى ، فأنقذه ورفعه الى الشمس حيث يقيم بعيدا عن الارض وعالمها المهدد بغزوات الشياطين .

الا ان الاله السفلى عرف من تركيب جيومرث سر الآدمية العليا فصنع على يديه « آدم » اخر يمتزج فيه الخير والشر والروح والجسد ، وظل آدم حائرا بين طبيعتيه حتى أشفق الاله السماوى عليه فأرسل اليه المسيح ليدله على أشرف طبيعتيه ويعلمه الغلبة على أخس هاتين الطبيعتين ، فجعل آدم ينادى منذ ذلك الحين : « ويل لمن خلق جسدى واستبعد روحى » وخذلته حواء فهبط بها الملائكة الى الجحيم ومعها ذريتها من ابناء الشياطين ، ولم يكن للملائكة منذ تلك اللحظة من رسالة تحت السماء الا أن يستخلصوا العوالم النورانية من شوائب الظلمات ، ثم ينفصل العالمان ويقضى على العالم السفلى بالدمار ..

سرى هذا المذهب المانوى شرقا الى الصين والهند وغربا الى افريقية الشمالية وآسيا الصغرى ، وسرت معه عقيدة خلق الشيطان للبشرية وسيادته على العالم الارضى وبقائه متسلطا عليه الى اليوم الاخير

ووافق ذلك السريان النحلة الشامانية بين أواسط آسيا واوربة الشرقية ، فدخلتها المسيحية وعشائرها

مؤمنة بالسحرة والشياطين تتسامع بأن اله المسيحيين ترك الارض للشيطان الاكبر فلا حيلة لها معه غير أن تترضاه وتزدلف اليه ، وقد بقيت المسيحية الصحيحة مجهولة في تلك الاقطار الى ما بعد القرن الثانى عشر ، وبقيت نحلة « البوجوميل » — اى النحلة الشيطانية — غالبة على عشائر البلغار والعشائر البلقانية عدة قرون

ومع المانوية والشامانية نحلة أخرى — أو نحل شتى على الاصح — تعرف باسم النحل الاورفية **Orphism** وتشترك في المراسم الخفية التى تعاقر فيها الخمر وتستباح الشهوات ، ويعلو فيها اسم « ديونيس » الذي يعتقد اليونان انه ابن زيوس رب الارباب من بيرسفون وانها حملت به منه وهو متنكر فى صورة الحية ، فقتله المردة واستخلصت الربة « أثينا » قلبه فهو القلب المقدس الذى كان أصحاب النحل الاورفية يحتفلون به ويتخذونه رمزا للاهواء والالام

ويعتقد الاورفيون ان الاله أورفيوس يهدى صحابته فى ظلمات العالم الاسفل بعد الموت ، ويحفظون لرحلته هذه مراسم منقولة من كتاب الموتى المعروف فى الديانة المصرية القديمة

وظاهر من صور الشيطان التى عاشت بين الاوربيين المشارقة فى صدر المسيحية أن عباده يقرنون بينه وبين ديونيسس صاحب التجلى الاعظم فى حفلات الخمر والمجون ، وكانوا يتقربون لديونيسس بجدى يربونه لهذا الفرض ويصورونه — اى ديونيسس — فى صورة « الساتير » الذى يتزيا بجلد الماعز ويلبس قرونها على جبهته ويجر وراءه ذنبا طويلا كأذنابها ويمشى بقدمين لهما ظلفان مشقوقان ، وكذلك كانت صورة الشيطان فى محافل

عباده الاولين ..

ومع المانوية والشامانية والاورفية ينتشر المرفيون من بلاد فارس الى عاصمة الدولة الرومانية ، ومنهم من يؤمن بالخلاص الى النور من طريق الظلام ، والخلاص الى الطهارة من طريق الرجس ، والخلاص الى الله من طريق الشيطان ، والخلاص الى المعرفة من طريق الجهالة . نعنيها جميعا فيما أشتملت عليه جهالة العقل وجهالة الطباع

هذه فلول العقائد التى تجمعت منها نحلة الشيطان وطال بها الزمن قبل شيوع المسيحية فى دور النزاع بين بقايا الاديان الوثنية وطلائع الدين الجديد ، ويؤخذ من ألقاب الشيطان فى بعض اللغات الاوربية الشرقية أن المظالم الاجتماعية كانت بعض اسباب الكفر بالاله السماوى والاقبال على عبادة الشيطان المتمرد الذى يناوئه ويعلن الثورة عليه ، فقد كانوا يسمون هذا الشيطان « نصير العبيد » وكانوا يحسبون أنه ضحية القضاء الكونى الذى هم ضحاياه

ولم يكتب عباد الشيطان أسرار عبادتهم ، لانهم كانوا يكتمونها حذرا من خصومهم ويكتمونها مجاراة لطبيعة العبادة « الشيطانية » التى لا غنى لها عن الظلمة والخفاء، وما رواه عنهم خصومهم لا تتفق فيه روايتان على جميع التفصيلات ، ولا نخال ان عبادات الشيطان كانت متفقة بينها فى اماكنها المتباعدة بين آسيا الوسطى واوربة الغربية ، فان العبادات الصريحة المكشوفة تختلف وتتنازع حين تنتشر على هذه المسافات الشاسعة من الاقاليم والسلالات واللغات والاحوال الاجتماعية والنفسية ، فلا جرم تختلف العبادات السرية اذا باعدت بينها مسافات كهذه المسافات

الا أن المشهور من نحل العبادة الشيطانية ثلاث ، هى الكاثارية والبوجمولية والالبية ، ويرجح المؤرخون لهـا انها اسماء متفرقة لنزعة واحدة تختلف فى التسمية حسب علاقاتها المحلية ، مع وحدتها فى مصادرها .والتقاء مصادرها جميعا فى الرقعة الوسطى بين القارتين الاسيوية والاوربية

غلبت الكاثارية على العشائر الالمانية ، واسمها مستعار من كلمة «Cathar» بمعنى الطهارة فى اللغة اللاتينية المتوسطة ، وكانت فى أصلها نحلة زهد ورهبانيـــة ثم انحرفت قليلا قليلا الى خليط من الوثنية وبقايا الديانات المتخلفة من الحضارات الاولى

وغلبت البوجمولية على بلاد البلقان ، واسمها ماخوذ من السلافية بمعنى احباب الله ، أو مأخوذ من اسم داع مشهور من دعاتها حولها من العبادة الصريحة الى عبادة الخفاء «Bogomil»

وغلبت الالبية «Albigenses» على فرنسا الجنوبيـــة ونسبت الى « ألبى » «Albi» التى كان مركزها الاشهر فى غرب القارة وجنوبها

ولم تتفق هذه النحل فى شعائرها وعقائدها كمـــا أسلفنا ، ولكنها تتفق فى قاعدة مشتركة بينها وهى قاعدة الديانة المانوية ، فكلها مانوية تضاف اليها حواشي الوثنية المحلية والمقتبسات المشوهة من العقـائد المسيحية ، ولا تخلو عباداتها جميعا من اباحة بعض المحرمات وتحريم بعض المباحات التى تخالف بها جميع الاديان الكتابية ، وان لم يكن بينها وفاق شامل للمحرمات والمباحات.

فمنها ما يحرم الزواج لان الزواج يستبقى النسل فى عالم الشر والفساد ، ولكنه لا يحرم الفسق ولا الشذوذ،

بل يدخلهما احيانا فى الشعائر المفروضة لانهما يرضيان الشيطان

ومنها ما يحرم اللحم والجبن والبيض وكل ما جاء من تناسل من ذكر وانثى ، ولكنه يبيح السمك لاعتقادهم انه لا يولد بالتلاقح بين الجنسين

ومنها ما يزعم ان آدم طلق حـــواء وتزوج بالربة البابلية التى تسمى ليليت أو ليلى ، وان حواء تزوجت بعده بمارد من الجن فجاء النوع الانســانى خليطا من الآدميين والمردة وذرية الارباب الوثنية

ومنها ما يقدس المسيح وينكر الصليب ، ولا ينكرونه لتكذيبهم صلب المسيح . بل لانهم يقولون : « ان ما من أحد يعبد المشنقة التى خنقت اباه ! »

واشتهر من عباداتهم عبــادة القداس الاســـود ، ومحورها صورة الشيطان عاريا وصورة فتاة عارية تتقدم المصلين اليه وتنقل اليهم « البركة » بلمس أعضائه ، وتنهى الصلاة بضروب من الاباحيات كالتى كانت تقترف فى عبادات أرباب النسل عند الوثنيين

وكل جماعة « سرية » ظهرت فى القرون الوسطى فهى على صلة بطائفة من تلك الطوائف ، ومنها الجماعة التى سميت باسم الهيكليين والحبليين ، وكان هؤلاء يتقلدون حبلا قصيرا ويلبسون قميصا يسمونه الكميسية «Camisia» ويقال انهم نقلوا الاسم من جزيرة مالطة التى كانت معقلا للهيكليين وكانت الكلمات العربية شائعة فى لغتها منــذ القرون الوسطى ، ولا تزال كذلك الى اليوم

والعقيدة الغالبة بين هذه الطوائف ، على تنـــوع مذاهبها ، هى سيادة سلطان الشر على العــالم الارضى خاصة وتنازع الكون بين القوة العليا والقوة السفلى ،

وضرورة « التفاهم » مع الشيطان فى أمور هذه الدنيا او ضرورة هذا التفاهم فى كل أمر من الامور ، لان اله الخير على قوته وحكمته قد نفض يديه من دنيا بنى آدم لاعوجاجهم ودخيلة السوء فى طباعهم ، باختيارهم لا بدسيسة عليهم من قبل الشيطان

وقد بقيت على هذا المعتقد طائفة كبيرة من الاوربيين الغربيين ، وسيق ثلاثة وستون رجلا وامرأة الى محكمة التفتيش فى طولوز « يونية سنة ١٣٣٥ » فقال احداهن آن مارى جيورجل « ان الله ملك السماء والشيطان ملك الارض ، وهما ندان متساويان سرمديان يتساجلان النصر والهزيمة وينفرد الشيطان بالنصر البين فى العصر الحاضر »(١)

وينقل رودس صاحب كتاب القداس الشيطانى نبذا من تاريخ فرنسا للمؤرخ الكبير ميشليه «Michelet» يفهم منها ان هذه العادات قد امتزجت زمنا بالثورة الاجتماعية وانحلال الاخلاق وفتور الايمان بالدين ، فقد كان القداس الاسود صلاة الى الشيطان ينادونه فيها باسم رئيس العبيد ، وتقوم فيها بوظيفة الكهانة فتاة عارية تمعن فى الرقص حتى يأخذها الدوار ، ثم يتصدى من الجمع احد الرجال المندوبين للعبادة فيتمم الصلاة باتخاذ دور الشيطان واعتبار الفتاة محرابا حيا للمعبود (٢)

وعاشت هذه النحل الشيطانية حقبة طويلة ، لا شك انها كانت أطول مما يتاح لها لو لم يكن لها سند من الحوادث غير مزاياها الخلقية او الوجدانية ، ولكنها

---

(١) القداس الشيطانى: تاليف رودس

«The Satanic Mass» by Rhodes

(٢) صفحة ٥٣ من كتاب « القداس الشيطانى »

استفادت من تنازع الكنائس وانحلال الدولة الرومانيــة وغارات الهمــج وما اقتــرنت به من السبى والسلب والاباحة ، واستفادت من مظالم المجتمع وجهالة المؤمنين بالسحر وسلطان الشيطان على المقادير الارضية ، فلما استقرت المسيحية وشاع الخوف والحذر من الجماعات المتسترة لاشتباك الخصومات السياسية واتهام كل فريق من عداه باستخدام تلك الجماعات فى محاربته والدس عليه ، تألبت القوى على جميع تلك النحل واخذتهـــا الكنيسة والدولة معا بالقمع الشديد والرقابة المتلاحقة ، فلم تبق لها بقية بعد القرن السابع عشر الا اذا صحت الاشاعات عن قصة النحلة الشيطانية التى كانت تستتر باسم الماسون فيمارواه الصحفى الفرنسى جوكاند **Jogand** واثار حوله حملته التى سماها الشيطان فى القرن التاسع عشر ، ولم تقم عليها البينة القاطعة بعد البحث فى أسانيدها ودعاواها ..

أما النحلة التى ينسبونها الى الشيطان ولا تزال لهـا بقية فى العصر الحاضر فهى النحلة اليزيدية التى تقيم فى شمال العراق وينتمى ابناؤها جميعا الى الكرد ولا يعرف احد على التحقيق سبب تسميتهم باليزيدية ، ولا يعول على أقوال أحد من علمائهم أو جهـــــلائهم لانهم يحرمون التعليم على عامتهم ، ويجعلونه وقفا على أسرة منهم تتولى الكهانة وأمانة الاسرار فى هذه الديانة ، فمن كان منهم عالما بتلك الاسرار فهو لا يبوح بها ، ومن كان من جهلائهم وعامتهم فهو يتلقى ما يسمعه ويؤذن له بعلمه ، وجميعهم مع ذلك يتوارثون التقاليد ولا يفقهون خباياها ســـواء منهم من أباحوا له العلم او حرموه عليه

ويرجع بعض الباحثين بالاسم الى يزيد بن معاوية ،

ويرجع آخرون به الى مدينة يزد الفارسية ، ويرجع به غيرهم الى اسم يزدان الاله الاقدم فى الملة المجوسية . وغير بعيد ان يكون الاسم منسوبا الى يزيد الخليفة الاموى ، لان النزاع بين الكرد والفرس قد فرق بين عصبياتهم فى السياسة وفى الدين ، فكان الكرد من غلاة السنيين وكان الفرس من غلاة الشيعة ، وربما كانت الطائفة الكردية التى تؤله « يزيد » فى صورة الاله الارضى مقابلة للطائفة الفارسية التى عرفت باسم « على الهى » لانها تغلو فى حب الامام على رضى الله عنه الى حد العبادة

تؤمن الطائفة اليزيدية بسبعة آلهة خلقت من نور اله واحد كما تضاء الشمعة من الشمعة ، وقد خلق كل منهم فى يوم من ايام الاسبوع وندبه الاله الاكبر لابداع جزء من العالم الاعلى او العالم الادنى ، وهم يعتقدون ان الله خلقهم من نطفة آدم غير ممتزجة بجسم حواء خلافا لسائر البشر ممن ينتسبون الى آدم وحواء ، ولعلهم أخذوا معتقدهم هذا من المانوية او من المعرفيين الذين يروون فى اساطيرهم ان ادم طلق حواء فأسلمتها الارباب الى شياطين الجحيم ، وعندهم ان آدم هذا هو آدم الحادى والسبعون ، كلهم ذهبوا بالمعصية من الوجود ولم تبق منهم على صلاح غير ذرية آدم من صلبه دون مخالطة المرأة ، وهم اليزيديون

ويعتقدون بتناسخ الارواح وعودة الاشرار الى الحياة فى أجساد الحيوان ، ويحرمون الوانا من الاطعمة والاكسية لا يعرفون علة لتحريمها غير التعلات التى هى اشبه باحاجى الاقاصيص ، ومنها تحريم اكل الخس لان قديسهم الشيخ « عادى » مر به فلم يعرفه وسأل عنه فلم يجبه ، وتحريمهم لبس الثوب الكحلى لانه عدو السماء

وهم يقدسون السيدة مريم والحلاج ويحجون الى جبل الدروز كما يحجون الى مكة ، وكتابهم المقدس يسمى كتاب الجلوة يلحق به كتاب يسمى مصحف رش او المصحف الاسود ، ولكن الفصل الثالث من كتاب الجلوة يعلمهم ان الله يرشد بغير كتاب ويخص عباده المقربين بالالهام من غير سماع

وليس فيما رواه الثقات عنهم ما يثبت عبادتهم للشيطان ، ولعل القول بعبادتهم للشيطان لبس جاء من اعتقادهم ان الاله الذى يسمونه « طاووس ملك » نصح لآدم باكل الحنطة فانتفخ بطنه وضاقت به الجنة فاخرجه « طاووس ملك » الى العراء وصعد الى السماء، ولم يكن لادم مخرج فارسل اليه طائرا نقر بطنه فاستراح من اكلة الحنطة ، وعاش بعيدا من الجنة المطهرة ياكل هو وبنوه من ذلك الطعام الارضى الى يوم القيامة

فالذين سمعوا انهم يعبدون « طاووس ملك » الذى اخرج آدم من الجنة قد وحدوا بين هذا الملك وبين الشيطان وحسبوهم من النحل الشيطانية التى تعبده عبادة الارباب

على اننا نعرض النحل الشيطانية جميعا فلا نرى نحلة منها تعبد الشيطان بالمعنى المفهوم من العبادة وهو الحب والتنزيه والتسليم ، وانما يقصدون بتلك المراسم التى يسمونها العبادة ان يزدلفوا اليه بالترضية والمداراة ؛ وأن يتقوا منه الشر الذى لا يقيهم منه رب سواه ، لانه موكل بحكم الارض الى اليوم المعلوم . فهى مصانعة خوف او نقمة على الخير الذى لا ينالونه ، وليس فى شعائر هذه النحل اثر واحد يحق لنا ان نطلق عليه اسم العبادة حيث نعنى بالعبادة ايمان الحب والتعظيم والرضى بالفداء والبلاء فى سبيل ذلك الايمان ، فليس فى تلك الشعائر

كافة علامة على قبول الفداء في سبيل العقيدة الشيطانية أو قبول الامتحان والصبر عليه ايثارا لرضى الاله المعبود ولو لم يكن فيه نعمة أو هبة من هبات الدنيا والاخرة ، وكأنما كانت « عبادة الشيطان » تهمة جرت على ألسنة المنكرين لعقائدهم زراية بهم وضنا عليهم ان يحسبوا في زمرة « العباد » المؤمنين بالله

واذا كان الفداء شرطا من شروط العبادة الخالصة فما من نحلة شيطانية يتقبل المؤمنون بها أن يخسروا كثيرا او قليلا في سبيل الشيطان ، فهى مساومة وانتفاع بالواقع الذي لا مهرب منه ، ومثل هذه المساومة لا تسمى بالعبادة الا من قبيل المجاز والتمثيل

حلفاء الشيطان

يدل تاريخ السحر على تضامن النوع الانسانى فى التهدى الى العقائد العميقة التى تعرب عن نظرة شاملة الى الحياة او الى الكون كله ، وتبدو أفكار الناس فى هذه العقائد كأنها تصدر عن عقل واحد يتعاون فيها ببداهته وخياله وبذهنه وحسه وتتقارب فيه ملكة التشخيص والرمز فى وعى الانسان الساذج وملكة التجريد والتعميم فى تفكير الفيلسوف المدرب على دقائق التفكير

لو قال قائل فى هذا العصر ان الكون كله فكرة ، أو انه كله عدد وحسبة رياضية ، لما احتاج فى قوله هذا الى تعمق بعيد ولا ظهر منه أنه يشتط فى نزعات التصوف أو نزعات التجريد ، لان الخاصة والعامة فى زماننا يسمعون ان المادة كلها ، على اختلاف عناصرها وتراكيبها وأجسامها ، انما هى ذرات تتألف من النواة والكهرب وأن الذرة حين تنشق تئول الى شعاع ، وان الشعاع هزات فى الاثير ، فلا صعوبة على العقل الساذج فى تجريد المادة من تلك الكثافة أو تلك الصلابة التى كانت عنده وصفا عاما لكل مادة ، وكان الهواء عنده غاية ما يتصوره من الخفة والشفافية والانطلاق من قيود الجسم الكثيف

لا يؤخذ العقل الساذج مأخذ الدهشة اذا سمع اليوم ان الكون كله عدد وأن طبيعة العالم المحسوس من طبيعة الفكر المجرد أو طبيعة المعنى الفنى عن التجسيم

ولكن كيف كان موقع هذا القول عنده حين سمع قبل نيف وعشرين قرنا أن الوجود كله عدد وان « الكلمة »

اصل كل شيء كما قال بعض الفلاسفة اليونان نقلا عمن تقدمهم من الكهنة والمفكرين ؟

كيف كان موقع هذا القول عنده حين سمع باللوجوس «Logos» لاول مرة ؟ وحين سمع معها أو قبلها بالنسب الهندسية التي تتفرق موجودات الكون المادى كلها فلا تتمخض عن شيء سواها ؟

كان هذا كلاما أشبه بالتخريف او هو التخريف عينه، وظل أناس من المتطلعين الى عصر الذرة يسمعونه فلا يصفونه بأكثر من انه هراء ، ولم يكن قول من الاقوال ابعد فى الشطط عند جمهرة الناس من احالة هذه الموجودات الى فكرة خالصة او الى عدد لا يعرفون معه ما هو المعدود

وقد كان حقا من الاعجاز فى التفكير ان يستطيع عقل قبل خمسة وعشرين قرنا ان يشف تلك الشفافية بهذه الاجسام ذات الاوزان والاحجام

كان اعجازا لو كان معوله كله على الطفرة من الحس واللمس الى التفكير المجرد أو الصوفية الرياضية ، ولكنه فى الواقع لم يكن كله طفرة من هذا القبيل ، وقد ننظر الى خطواته القريبة عيانا اذا تذكرنا تاريخ السحر وفهمنا منه ذلك التضامن فى البديهة الانسانية بين ملكة التشخيص والرمز ، وملكة التجريد والتعميم

كان الناس يفهمون من عمل الساحر منذ آلاف السنين انه يحرك الطبيعة وعناصرها بكلمة يعرفها وبأعداد مقدسة يوفق بينها فتعمل فى القوى العلوية والسفلية عملها

كان بتلك الكلمة يبطل الاحجام والأوزان ويجعلها فى يديه كالهواء او اخف من الهواء ، وكان يلقى الكلمة

او يجمع العدد فيحرك الجبال ويزلزل الاوتاد ويطير بالاجسام وينفذ الى ما وراء الحجاب ولا يبتعد منه بعيد أو يتعسر عليه عسير ..

ولم يكن اصحاب العقيدة فى السحر فلاسفة يجردون الاجسام وينظرون من ورائها الى الحقائق فى العقل الالهى او فى عقل من العقول العليا ، ولكنهم كانوا اناسا حسيين واقعيين يفهمون أن الساحر يعمل بالكلمة ما يعمله كل منهم حين يأمر انسانا مثله فيطيعه ، وغاية ما هنالك ان الساحر يأمر بالكلمة ارواحا واعية ، وان الطبيعة كلها ارواح

غاية ما هنالك ان الساحر يعرف الكلمة التى تطيعها تلك الارواح ، وانه هو — الانسان الساذج — لو عرفها لحرك الجبال كما يحركها ، وزلزل الاوتاد كما يزلزلها ، فلا تعمق عنده ولا تصوف ولا تجريد

والى اليوم يستطيع الانسان الساذج ان يقول ان الكلمة تفعل الاعاجيب وتحكم الدنيا لانها تحكم الانس والجان، ولكنه يقولها ولا يشعر بعمق فيها ولا يشعر السامع بدهشة عند سماعها ، وانما « تعمقها » الفلسفة لانها تعطيها المعنى الذى لا يقدر عليه العقل الساذج ، ويفعل التضامن فى البداهة الانسانية فعله فلا تبدو هذه النقلة كأنها الطفرة المنقطعة بين الحس واللمس وبين الصوفية العقلية فى أعلى الدرجات

ولما فرق الانسان الساذج بين السحر والعبادة لم يعتمد فى تفرقته هذه على مقياس الشعرة الذى استخدمه علماء العصر الأخير فى مراجعة العقائد وضم الاشباه منها وفصل المختلف منها بكل فارق دقيق او جليل

ولكنه فرق بين السحر والعبادة غير عامد ولا ملتفت الى فارق بينها غير الفارق بين حالته وهو يذهب الى

الساحر وحالته وهو يذهب الى امامه فى العبادة ، وربما كان الساحر والامام شخصا واحدا ولكنه يشعر من نفسه بالفارق بين حالته وهو يذهب اليه طلبا للسحر وحالته وهو يذهب اليه طلبا للصلاة ..

فحيثما ذهب اليه يطلب سحرا فهو يحس من نفسه انه يذهب اليه خفية ويستر عنده ما يطلبه ولا يبوح به لغيره ممن لا يامنه ولا يطمئن اليه ، وحيثما ذهب اليه يطلب صلاة فهو يذهب مع غيره ويعلن ما يفعله ومايرجوه ولا يخطر له انه يتواطأ على دسيسة من دسائس الظلام

ومنذ افترق الساحر والكاهن وظيفة وخلقا أصبح السحر عملا من اعمال الظلام وان اختلف الاعوان عليه بين الارواح الخبيثة والارواح الطيبة ، او بين الارواح التى يحكمها الشيطان والارواح التى لا حكم له عليها ، ولايرجع اليه فى تسخيرها ..

ومع الزمن ظهر التخصص فى صناعة السحر كما يظهر فى كل صناعة تتفرع وتتشعب وتتميز فيها المتشابهات والمتخالفات ، فانقسم السحر الى أبيض وأسود ، والى سحر الحكماء وسحر الكذبة والمشعوذين ، ولم يفهم الناس من وصفهم بالكذب والشعوذة انهم لا يقدرون على صناعتهم التى لاشك فيها ، وانما فهموا من هذا الوصف انهم يحتالون فى الصناعة ويسلكون مع طلابهم مسلك الشياطين وحلفاء الشياطين ، ولا غرابة فى الكذب او الشعوذة من شيطان

وبقيت « السرية » شرطا ملازما للسحربنوعيه،وبقيت هذه السرية معنى مرادفا لمعنى الظلام وتدبيرا لا يؤمن على الذين يعتقدونه ولا يرونه ولا يعرفون كيف يكون تدبيره ومتى يكون وعلى أى وجه يكون : بقى الساحر مخيفا غير

مامون ، وغار منه الكاهن على سلطانه فوقعت الجفوة بينهما ولعن الكاهن غريمه ولم يستطع غريمه ان يلعنه لأن الناس لا يصدقون لعنته ولا يرون اللعنة من حق السحر وان لم يكن سحرا من عمل الشيطان .

وقد وجد الكهنة والمتنبئون ووجد معهم السحرة « واصحاب الجان » جنبا الى جنب فى أخبار التوراة من اقدم أسفارها بعد موسى عليه السلام ، ولكن الرؤساء والولاة كانوا يخرجون الانبياء لانهم ينكرون أنهم انبياء ، ويخرجون السحرة واصحاب الجان اذا عرفوا انهم سحرة واصحاب جان ، وكذلك فعل شاول قبل موت النبى صمويل ، فلما مات النبى بحث عن السحرة الذين نفاهم ليحضروا له روحه بعد موته ، وقصته مع النبى فى محضره ومع السحرة بعد غيبته نموذج للعقائد الاولى التى لم تفصل بعد كل الفصل بين الوظيفتين ، وان فصلت بينهما فى التجلة والتقديس

ويقول الاصحاح الثامن والعشرون من كتاب صمويل : « .. ومات صمويل وندبه كل اسرائيل ودفنوه فى الرامة فى مدينته . وكان شاول قد نفى أصحاب الجان والتوابع من الارض ، فاجتمع الفلسطينيون وجاءوا ونزلوا فى شونم ، وجمع شاول جموع اسرائيل ونزل فى جلبوع ، ولما راى شاول جيش الفلسطينيين خاف واضطرب ، فسال الرب فلم يجبه الرب بالاحلام ولا بالاوريم - أى القرعة الكهنوتية - ولا بالانبياء فقال شاول لعبيده فتشوا لى عن امراة صاحبة جان فاذهب اليها واسالها ، فقال له عبيده : هوذا امراة صاحبة جان فى عين دور ، فتنكر شاول ولبس ثيابا اخرى وذهب هو ورجلان معه وجاءوا الى المراة ليلا ، وقال لها : اعرفى لى بالجان واصعدى لى من أقول لك ،

فقالت له المراة : هو ذا انت تعلم ما فعل شاول كيف قطع اصحاب الجان والتوابع من الارض . فما بالك تضع شركا لنفسي تريد لها الموت ؟ فحلف لها شاول بالاله الحي لا يلحقنها اثم من هذا الامر ، فسالته المراة : من أصعد لك ؟ فقال : اصعدي لي صمويل ، فلما رات المراة صمويل صرخت بصوت عظيم ، وقالت لشاول : لماذا خدعتني وانكرت نفسك ، قال لها الملك : لا تخافي . ماذا رايت؟ فقالت المراة : رايت آلهة يصعدون من الارض ، ثم قالت: رجل شيخ صاعد مغطى بجبة . فعلم شاول انه صمويل فخر ساجدا على وجهه ، وقال صمويل لشاول : لماذا أقلقتني باصعادك اياي ؟ قال شاول : قد ضاق بي الامر غاية الضيق . ان الفلسطينيين يحاربونني والرب يتخلى عني ولم يعد يجيبني لا بالانبياء ولا بالاحلام ، ودعوتك لتعلمني ماذا أصنع ؟ فقال صمويل : ولماذا تسألني وقد تخلى عنك الرب وعاداك ؟ لقد فعل الرب لنفسه ما انبأني به وتكلم به على يدي ، وقد شق الرب المملكة واعطاها لقريبك داود لانك لم تسمع لصوت الرب ولم تنفذ غضبه في عماليق ، فهو صانع بك ما صنعه اليوم وغدا يدفع بك وباسرائيل الى أيدي الفلسطينيين ، وغدا تلحق بي أنت وبنوك ويدفع الرب الى الفلسطينيين جيش اسرائيل . فسقط شاول على الارض وغشيه الوجل من قول صمويل ولم تكن له قوة لانه لم يذق طعاما نهاره كله وليله ، ثم جاءت المرأة الى شاول ورأته مرتاعا فقالت له : لقد صدعت جاريتك بأمرك ووضعت نفسها في كفها تلبية لكلامك، والان تسمع أنت لصوت جاريتك وتأكل من هذا الخبز الذي اضعه امامك . كل فتكون لك قوى على المسير في الطريق. فأبى ان يأكل ، والح عليه عبداه والمرأة فاستجاب لهم وقام من الارض وقعد على السرير ، وكان للمرأة عجل

سمن فى البيت فأسرعت وذبحته واخذت دقيقا وعجنته وخبزت منه فطيرا وقدمته أمام شاول وعبديه ، فأكلوا وذهبوا .. »

هذه القصة كنز من كنوز البحث فى مقارنة الاديان يندر العثور على قصة مثلها فيما احتوته من شواهد المرحلة التى يبدأ فيها التمييز بين الخير والشر والثواب والعقاب والامامة الدينية والكهانة السحرية دون أن ينتهى التمييز الى حدوده الواضحة

فها هنا تمييز بين من يختاره الله ومن يغضب عليه كالتمييز بين مقام صمويل ومقام شاول ، ولكنه يجمع بين الاثنين فى مكان واحد بعد الموت فيذهب شاول الى حيث يلحق بصمويل

وها هنا تمييز بين الامامه الدينية وبين السحر ، ولكن السحر تنسب اليه القدرة على تحضير روح النبى بغير مشيئته

وها هنا تمييز بين السحر الصالح والسحر الخبيث او السحر الاسود ، ولكن الساحر يستعين بالجان كما يستعين بأرواح الموتى ، ولا يقال عن الجان انهم من أعوان الخير أو من أعوان الشر ، لانهم فى خدمة شاول وهو مغضوب عليه ..

وها هنا استطلاع للغيب يطلب من النبوة كما يطلب من القرعة او يطلب من صاحبات الجان والارواح

غير أن العبريين لم يسبقوا غيرهم فى مراحل كثيرة من أطوار المسائل الغيبية والعبادات . فمن قبل هذه المرحلة تميز السحر فى الحضارة القديمة فانقسم الى السحر الابيض والسحر الاسود ، والى عمل الحكمة والمعرفة

وعمل الخبث والدنس ، وجاء عصر السيد المسيح وقد عرف السحران بوظيفتين وقيمتين واثرين مختلفين ، فتكلمت الاناجيل عن حكماء المجوس الذين رصدوا الكوكب وعرفوا منه مولد السيد المسيح فى مهده ، وظل هذا السحر وغيره من ضروب السحر الممنوع مختلفين بالاسم والعمل فيما نقله الغربيون من حكمة المشرق وثقافته وظلت بقاياه الى اليوم

فالسحر يسمى عندهم باسمين : احدهما بسحر المجوس ويدل عليه اسمه « الماجى » «Magic» الذى بقى فى اللغات العربية بلفظه القديم

والسحر الآخر يسمى بصناعة الساحرة «Witchcraft» ويؤخذ من اسمه هذا انه كان مقصورا على المرأة منذ كانت المرأة فى العرف الشائع أداة الشيطان فى الغواية وعون الشيطان على كيده وعصيانه

فقد كان الاقدمون يخلطون بين فتنة المرأة بوحى الغريزة الجنسية وفتنتها بوسوسة الشيطان ، ويحسبونها من ثم حبالة شيطانية يسخرها الشيطان أو تستعين به هى على تسخير المفتونين لاغراضها ومشتهياتها ، ويقع فى اذهانهم انها أقرب الى الخلسة والخداع لانها تعاشر الشيطان فى زواج غير مشروع ولا يحسبونه الا من قبيل السفاح الممنوع ، بل هم يحسبونه شرا من السفاح الممنوع ، لان السفاح الممنوع بين الرجل والمرأة من الانس لا يبلغ فى العصيان والمنكر مبلغ المعاشرة التى تجمع بين بنت من بنات حواء وبين عدو الله

وتتميز أدوات السحرين كما يتميز السحران فى القصد والوسيلة ، فسحر الحكمة والمعرفة له ادواته من رصد الكواكب ورياضة النفس ، والروائح الزكية من الطيب

والبخور ..

وعلى نقيض ذلك سحر الخبث والاذى ، او سحر الشيطان بعبارة اخرى ، فانه يتوسل الى مقاصده الخبيثة بكل دنس كريه من الادوات والآلات ، ويقال عن سحرته انهم يلوثون كل طهر ويبتذلون كل قداسة، وانهم يدنسون اللبن والكتب الشريفة ويتقربون الى الشيطان باحلال الدعوات والصلوات محل الحطة والهوان ، ويزعمون أن الوضوء الشيطانى ايسر للمراة من الرجل لانها تستخدم فيه الدم المطرود ، ويتعمدون التبشيع والتنفير جهدهم من التخيل فيزعمون ان الساحرة تمسح قدميها بشحم منتزع من جثة طفل ذبيح وتخرج للطيران من مدخنة البيت وهى تمتطى المكنسة المتسخة ، لانهم لا يريدون ان يسلموا لها القدرة على الطيران الا أن تكون من طريق الحريق والسواد وعلى اداة من ادوات الاوساخ والارجاس

ومن اصول السحر ، فى عصور الحضارة الأولى ، ما يسمى بعلم التنجيم ويطلق على علم الفلك وعلم الغيب فى وقت واحد ..

كان التنجيم اصلا من اصول السحر يوم كان الكاهن يتولى وظيفة الامام ووظيفة العالم ووظيفة الساحر ، وكان الناس يؤمنون معه بربوبية الافلاك وسريان مشيئتها فى الارضين ومن عليها ، فكان الكاهن اماما يصلى لها وعالما يعرف حسابها وساحرا يستطلع اسرارها ويتوخى التوفيق بينها وبين مطالب اتباعه ومقاديرهم التى يستنبىء عنها الغيب ويعلم كيف يتعجلها ويتقيها ..

وبقى التنجيم اصلا من اصول السحر بعد زوال عبادة الافلاك وبطلان القول بربوبيتها ، ولكن بطلان القول بهذه الربوبية لم يبطل القول بسلطان الافلاك وتأثيرها بأمر

الله فى العوالم السفلية ، واختلف المتدينون فى مدى هذا التأثير ، كما قال الكشناوى فى كتابه عن خلاصة السحر والطلاسم ، اذ ينقل آراء المختلفين فيقـول : « ان الذى اختص به الصابئة وبعض الفلاسفة الذين وافقوهم على رأيهم انما هو القول بألوهية الكواكب واستحقاقها للعبادة واستقلالها بالتأثير والتدبير فى هذا العالم ، فهـذا كفر مجمع عليه فى جميع الملل والاديان . لان الملل كلهامطابقة على أن المستحق للعبادة والذى بيده التـأثير وتدبير الكائنات انما هو اله واحد واجب الوجود متصف بصفات الالوهية والربوبية ، وان كل ماعداه حادث مفتقر اليـه على الدوام لا يستقل بنفسه فى شيء من الاشياء ولولحظة واحدة . واما القول بأنها مؤثرة بقوة اودعها الله فيهـا ثم تركها تؤثر بتلك القوة فى العالم باذنه تعالى بحيث لولم يرد ذلك تبارك وتعالى لما أثرت أصلا ، ومثلوا ذلك بملك يولى شخصا بقطر من الاقطار فيفوض له الامر والحكم هناك فيصير ذلك الرجل يمضى الاحكام فى ذلك القطر باذن الملك بحيث لو لم يرد ذلك منه لعزله عن تلك الولاية — فهذا القول قد قاله جمع من المليين ومنهم امام الحرمين ولم يرتضيه السنوسى بل عده من البدع المنكرة وشنع على القائلين به ولم يصل بهم الى حد الـكفر . واما من يقول انها اسباب عادية أجرى الله عادته بوجود الحوادث عندها لا بها مع تجويز التخلف عن خرق تلك العادة كما هو الحكم فى سائر الاسباب العـادية من الاكل والشرب والقطع والاحراق ، فهذا القول لا ينكره أحد . . »

الى أن يقول : « وثانى الشيئين المذكورين اثبات القوابل السفلية الارضية ، لانهم قالوا ان حصـول الفاعل المؤثر لا يكفى وحده فى حصول الاثر ، بل لابد معه من حصول القابل ولا يكفى ايضا حصول القابل وحده بل لابد مع

وجوده من كون الشرائط المعتبرة للقبول حاصلة والموانع زائلة .. لانه ربما حدث فى العالم الاعلى شـــكل غريب صالح لافادة آثار غريبة فى مادة العالم الاسفل ، فلا تكون المادة السفلية متهيئة لقبول تلك الآثار لعـــدم الشرط أو لوجود المانع .. فعلى هذا لو تيسرت لنا معرفة طبيعة ذلك الشكل ، ومعرفة طبيعة الامور المعتبرة فى كون المادة السفلية قابلة لذلك الاثر ، لكان يمكننا ان نهيىء تلك المادة لقبول ذلك الاثر .. »

وعلى هذا التأويل بقى سحر التنجيم بعيدا من شبهة الاتهام بطاعة الشيطان بين اهل المشرق والمغرب، حتى ظهر فى كليهما من يلحقه بالوسائل الشيطانية ويعتبر السحرة تلاميذ للشيطان فى هذه الصناعة لقدرته على الصـــعود والهبوط بين الافلاك والعوالم السفلية وعرفانه بخفـــايا العوالم السفلية ونزعاتها وتهيؤ احوالها للتأثر والانفعال بما فوقها ..

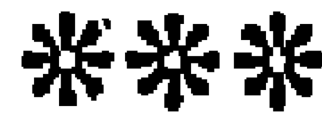
وقد أورد صاحب الكتاب المقدم اقوالا مختلفـــــة فى التعريف بما سماه علم السحر فقال : « .. اعلم انهـــم اختلفوا فى تعريفه لاختلاف المذاهب فيه ، فعرفه صاحب « ارشاد القاصد » بأنه علم يستفاد منه حصول ملكة نفسانية يقتدر بها على افعال غريبة بأسباب خفية، وعرفه ابن العربى الفقيه المالكى بأنه كلام مؤلف يعظم فيه غير الله عز وجل وتنسب اليه الكائنات والمقادير ، وبعضهم عرفه بانه ما يغير الطبع ويقلب الشيء عن حقيقته ، ومنفعته عند الاسلاميين أن يعرف ليحذر منه لا ليعمل به ، ولا نزاع فى تحريم العمل به بتا ، واما مجرد تعلمه ففيه خـــلاف بين الائمة : فبعضهم منعوه وحرموه حسما للباب كالمالكية ومن وافقهم ، وبعضهم آباحوه ، واغرب بعض النظـــار حيث عدوه من فروض الكفايات لجواز ظهور ساحر يدعى

النبوة فيكون فى الامة من يكشفه ويقطعه ، وقد حكاه ابن صاعد فى ارشاد القاصد . ولتعلمه فائدة اخـرى وهى ان يعرف منه ما يقتل فيقتل فاعله به قصاصا عند من يقول بذلك »

ثم مضى المؤلف يذكر أقسامه فقال : « انه حقيقى وغير حقيقي وان الطرق فيه اختلفت على اربعة مـذاهب : احدها طريقة تصفية النفس وتعليق الوهم وهى طريقة أهل الهند ، لانهم يعتقدون أن تلك الآثار السحرية انما تصدر عن النفس الناطقة ولذلك يلازمون الرياضات الشاقة حتى تصفو نفوسهم وتتجرد عن جميع الشواغل البدنية بحسب الطاقة البشرية . وهذا المذهب مبنى على ثبوت التأثير لتوجيه النفس وتعليق الوهم . والمذهب الثانى من المذاهب الاربعة التى للسحر ، طريقة النبط وهى عمل اشياء مناسبة للغرض المطلوب مضافة الى رقية ودخنة بعزيمة نافذة في وقت مختار ، وتلك الاشياء تارة تكون تماثيل كالطلسمات وتارة تصاوير ونقوشا كالتعاويذ وتارة عقدا تعقد وينفث فيها وتارة كتبا تكتب وتدفن في الارض او تطرح فى الماء او تعلق فى الهواء او تحرق بالنار ، وتلك الرقية التى يرتقى بها تضرع الى الكوكب الفاعل للغرض المطلوب على زعمهم ، وتلك الدخنة منسوبة لتلك الكواكب لاعتقادهم ان هذه الآثار انما تصدر عن اجرام الكواكب ، وكتاب « سحر النبط » نقل ابن وحشية يشتمل على تفاصيل تلك الطريقة . والمذهب الثالث من المذاهب الاربعة السحرية مذهب اليونانيين المتقدمين وهو تسخير روحانية الكواكب والافلاك وآستنزال قـواها بالوقوف والتضرع اليها لاعتقادهم ان هذه الآثار انما تصدر عن روحانية الافلاك والكواكب لا عن اجرامها ، وهذا هو الفرق بينهم وبين الصابئة أهل المذهب الثانى واهل

الطلسمات . والمذهب الرابع من المذاهب الاربعة السحرية مذهب العبرانيين والقبط والعرب وهو الاعتماد على ذكر اسماء مجهولة المعانى كأنها اقسام وعزائم بترتيب خاص كأنهم يخاطبون بها حاضرا لاعتقادهم ان هذه الاثار انما تصدر عن الجن ويدعون فى تلك الاقسام انها تسخر ملائكة قاهرة للجن »

وقد أورد « الاوغنستانى » فى «رسالة اللؤلؤ والمرجان فى تسخير ملوك الجان » أمثلة فى الآيات ، وجملة أعدادها بحروف الجمل وتقسيمات هذه الآيات والاعداد الى جداول مناسبة لدعوة الملائكة الذين يسخرون الجان ليعود هؤلاء فيسخروا الطبيعة والناس ، فى زعم أصحاب هذه الارصاد



والمفهوم من مؤلفات الاوربيين فى السحر والطلاسم انهم نقلوا جميع هذه النفسيات واقتدوا بالشرقيين فى الحكم عليها من الوجهة الدينية ، واتخذوا من عطارد كوكب راعيا للسحر كأنه خليط من الرب اليونانى القديم والشيطان ، وجعلوه وليا للشطار والخبثاء وأدعياء النظم واصحاب الخداع باللسن والخطابة ، وانتهى بهم الامر الى تحريم هذه المعارف السحرية جميعا وتقسيم المعارف كافة الى قسمين : قسم حلال وهو ما يشتغل به رجال الدين برخصة من الرؤساء ، وقسم حرام وهو كل ما عداه بلا استثناء لمذاهب الفلسفة وتجارب العلوم الحديثة ، فدخل فى عداد المعارف الشيطانية والسحر الممنوع كل علم يتولاه أناس من غير رجال الدين ، ولم يستثن — كذلك — كل سحر يزعم اصحابه أنه من العزائم التى يستعينون فيها بالملائكة ، فقد شاع فى تلك القرون أن الشيطان يتشكل باشكال الملائكة والارواح العلوية كما قال

بولس الرسول فى رسالة كورنثوس الثانية « لان هؤلاء هم رسل كذبة فعلة ماكرون مغيرون شكلهم الى شبه رسل المسيح ، ولا عجب لان الشيطان نفسه يغير شكله الى شبه ملاك النور ، فليس عظيما ان كل خدامه يغيرون شكلهم كخدام للبر » ..

واحترز أحبار الكنيسة من دعوى كل مدع ينسب الى نفسه القدرة على مخاطبة الملائكة واستيحاء الغيب ، فعم التحريم كل عزيمة من عزائم السحر وما اليه ، وكان القانون يعاقب على جريمة السحر بالموت اذا ثبت أن الساحر استخدم طلاسم لاهلاك المسحور ، ثم صدر فى انجلترا قانون معدل له (سنة ١٦٠٣) يقضى بالموت على كل من يثبت عليه تعاطى السحر ولو للعلاج وشفاء الامراض ، لانه محالفة مع الشيطان وكل محالفة مع الشيطان خيانة لله ، وكانت انجلترا مع هذا معدودة من البلاد التى لا تخضع كل الخضوع للسيطرة الكهنوتية، ولم تعمل محاكم التفتيش فيها كما كانت تعمل فى القارة الاوربية حيث أحرقت النساء عقابا على السحر واحرق الاطفال لانهم من نسل الشياطين ، وصدرت آخر هذه الاحكام فى منتصف القرن الثامن عشر ، وكان بعضها مما صدر فى الولايات المتحدة

وانتهى القرن الثامن عشر والراى الغالب على أهل الغرب ان السحرة جميعا حلفاء الشيطان ، وأن من السحرة كل من يروض الطبيعة بعلم غير العلوم التى يقرها الدينيون ..



الفصل الخامس

الشيطان والفنون

قال ابو العلاء :

وقد كان أرباب الفصاحة كلما
رأوا حسنا عدوه من صنعة الجن

وربما كان ابو العلاء يخص العرب دون غيرهم بهذا القول ، ولكنه في الواقع قول يعم جميع الاقوام ويعم جميع أنواع الاحسان فى الكلام وفى غير الكلام

فالعبقرية عند الاوربيين منسوبة الى الجن ، ومعنى العبقرى عندهم أنه صاحب الجنة أو الشبيه بالجنة فى القدرة والتفوق كائنا ما كان العمل الذى يتفوق فيه ، وكلمة « جينياس genius » تطلق على كل صاحب قريحة خارقة للمألوف في الابتكار والابتداع سواء كان ابتداعها فى الشعر والنثر ، أو فى التصوير والنحت ، أو في الانشاء والتلحين ، أو في العلم ، او الصناعة ، أو تدبير المال وسياسة الشعوب

والعبقرية فى التعبير العربى الحديث مأخوذة من كلمة عبقر ، موضع يقولون ان الجن تسكنه وان الصناعات الفائقة كلها تنسب اليه ، ومنها صناعة السيوف كما قال امرؤ القيس :

كان صليل المرو حين تطيره صليل سيوف ينتقدن بعبقرا

ويقولون ان سكانه انفسهم موصوفون بالجمال كما قال الاعشى : « كهولا وشبانا كجنة عبقر »

ويرد بعضهم ان الكلمة مأخوذة من الكلمة الفارسية « آبكار » بمعنى الرونق ، وهو بعيد لان اقتباس كلمة الرونق لا يفسر القصص المنسوجة حول البلد المسمى بعبقر ولا يوجد فى الاصل الفارسى ما يوحى بهذه القصة أو يوحى باسباب اقتباس الكلمة على حسب العرف المأثور فى هذه المقتبسات

وتذكر كلمة « عبقرى » وصفا للنفاسة بغير نظر الى اشتقاقها من المكان المزعوم ، كما جاء فى سورة الرحمن من القرآن الكريم :«متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان»

ومن التعبيرات المتشابهة بين اللغات وصف الابداع بالاعجاز ووصف الاعجاز تارة بالدقة التى تخفى اسرارها على غير ذوى الفطنة ، وتارة بالفخامة التى تتعاظم العاملين من غير ذوى العزم والقدرة الخارقة ..

يقال ذلك فى البلاغة ومعانيها الخفية وفطنتها النافذة الى الخبايا والاعماق

ويقال ذلك فى المساعى الكبار التى يضطلع بها المردة الجبارون ، ولا يقوى على الاطلاع بها من دونهم من ذوى الاجسام المحسوسة

وحيث تسرى الخواطر الى تصور الخفاء والدقة والقدرة الخارقة لا جرم تنتهى بمسراها الى العوالم الخفية التى لا ترى بالعيون ولا تحد قدرتها بما يحد الايدى والاقدام من اجسام بنى آدم وحواء

ولهذا الاستطراد الطبيعى فى تتابع الخواطر توافقت بداهة البشر على علاقة البلاغة بالجن بل على علاقة كل « بالغ » من الأقوال والاعمال بتلك الخلائق المستترة التى

لا تحدها بنقائص اللحم والدم ، لأنها متلبسة في الاذهان بخلقة النار والريح ومادة « الجو اللطيف » مما لا يحصر ولا يحال بينه وبين مسعاه

والعرب تزعم ان شعراءها تستوحي الجن وان كل شاعر منهم يستعين بشيطان يصاحبه ويعرفه باسمه . فهبيد اسم شيطان عبيد ، ومسحل اسم شيطان الاعشى ، وجهنام اسم شيطان عمرو بن قطن . وسنقناق اسم شيطان بشار ، ويزعم الفرزدق ان الشعر منقسم بين شيطانين احدهما يسمى الهوجل وهو موكل بالجيد من الشعر والاخر يسمى الهوبر وهو موكل برديئة وسقطه ، وأنشده رجل من تميم بيتا يقول فيه :

ومنهم عمر المحبود نائله كأنما رأسه طين الخواتيم

فضحك وقال : « انهما قد اجتمعا لك في هذا البيت فكان معك الهوجل في أوله فاجدت وخالطت الهوبر في اخره فأفسدت »

وكان ابو النجم الرجاز يفخر على الشعراء ويقول ان شياطينهم جميعا أناث ما خلا شيطانه فهو شيطان ذكر :

انى وكل شاعر من البشر شيطانه انثى وشيطانى ذكر

وكأنه نظر في ذلك الى فحولة الكلام ، مما اشتهر به الرجز ولم يشتهر به الشعر في زمانه

ويكون مع الشيطان تابع أو « رئى » كانه الراوية الذى يحفظ ما يلقيه الشيطان القائل عفو الخاطر

وفي كتاب « آكام المرجان في احكام الجان » نظم كثير منسوب الى الجن بغير واسطة الانس او مشترك بين قائلين احدهما من هؤلاء والآخر من هؤلاء ، ومن هذا الشعر المشترك

قال بعد عنعنة طويلة : « . . خرجت مع نفر من قريش نريد الشام فنزلنا بواد يقال له وادى عوف فعرسنا به

فاستيقظت فى بعض الليل فاذا انا بقائل يقول :

الا هلك النســــــــــاك غيث بنى فهر
وذو البـــاع والمجد التليد وذو الفخر

فقلت فى نفسى والله لأجيبنه فقلت :

الا ايهـــا الناعى اخـــا الجود والفخـــر
من المرء تنعـــاه لنا من بنى فهــــر

فقال :

نعيت ابن جدعان بن عمرو اخا الندى
وذا الحسب القدموس والمنصب القهر

فقلت :

لعمرى لقـــــــد نوهت بالسيد الذى
له الفضل معروفا على ولـــد النضر

فقال :

مررت بنســـوان يخمشن أوجهـــــا
صباحا عليــــه بين زمزم والحجـــر

فقلت :

متى ؟ أن عهدى فيــــه منـــذ عروبة
وتسعة ايام لغـــــرة ذا الشــــــهر

فقال :

ثوى منـــــــــذ ايام ثلاث كوامل
مع الليــل أخرى الليل أو وضح الفجر

فاستيقظت الرفقة فقالوا من تخاطب ؟ فقلت هـذا هاتف ينعى ابن جدعان ، فقالوا : والله لو بقى احد بشرف او عزة او كثرة مال لبقى عبد الله بن جدعان . فقال ذلك الهاتف :

أرى الايام لا تبقى عزيزا
لعزته ولا تبقى ذليـــــلا

فقلت :

ولا تبقى من الثقلين ثقــلا
ولاتبقى الحزون ولاالسهولا

وكأنما نظر صاحب هذه القصة الى قول حسان بن ثابت فى المساجلة الشعرية حيث يقول عن صاحبه الجنى:

ولى صاحب من بنى الشيصبا
ن فطورا أقول وطورا هــوه

وقد روى صاحب « آكام المرجان » ابياتا كثيرة من نظم الجن فى رثاء عظماء الصحابة وآل النبى، منها ما انسب الى الجن منفردين به ، ومنها ما اشترك فيه قائــلان كالابيات التى رويت فى رثاء ابن جدعان

وكانوا يقولون عن توارد الخواطر بين الشاعرين انهما يأخذان من شيطان واحد . فذكر صاحب مواسم الادب أن الفرزدق وجريرا ركبــا ناقة الى الرصافة لاستمناح هشام بن عبد الملك فنزل جرير فى بعض الطريق ،فتلفتت نحوه الناقة فأنشد الفرزدق :

عــــلام تلفتـــين وانت تحتى
وخـــير النـــاس كلهم امـــامى
متى تردى الرصـــافة تستريحى
من الادلاج والــدبر الـــدوامى

ثم قال فى نفسه : الان يجىء ابن المراغة فيســـمع ما انشدته فيه فيجيبنى بقوله :

تلفت انهــا تحت ابن قين
ابى الكيرين والفاس والكهام
متى ترد الرصافة تخزفيها
كخزيك فى المواسم كل عام

ثم جاء جرير فأخبره الفرزدق بالقصة وانشده البيتين

الاولين : فلم يلبث ان انشده البيتين الاخيرين ، فضحك الفرزدق وقال : والله يا ابا حرزة لقد قلتهما قبل ان تأتي .. قال جرير : اما علمت ان شيطاننا واحد ؟

وكل هذا ولا شك تلفيق يعلمه ملفقوه ، ولكن الاصل فيه قائم على اعتقاد طبيعي شائع يخيل الى الناس في شتى الامم ان المعاني الخفية لا تخلو من علاقة بالمخلوقات الخفية ، وان اسرار الصناعات التي تدق عن نظر العيون ينبغي ان تطلع عليها العيون التي تعيش في عالم الاسرار ولا يدق عن نظرها شيء في حلكة الظلام ..

ويقال عن فن الغناء ما يقال عن فن القريض ، وبخاصة في الزمن الذي كان فيه الغناء موقوفا على البيت او الابيات يختارها المغني من كلام الشاعر في عصره او في غير عصره ..

روى صاحب الاغاني ان الغريض كان يقتبس بعض اصواته من عزيف الجن ويزعم ذلك مغالاة بصنعته ، فانكر عليه سامعوه ما يدعيه ، حتى كان ذات ليلة يغني لجماعة من نساء مكة فسمعن عزيفا عجيبا ذعرن منه فقال لهن الغريض : ان في هذه الاصوات صوتا اذا نمت سمعته واصبحت فغنيت به ، واصغين الى الصوت فاذا هو من نغمة الحان الغريض

وادعى اسحق بن ابراهيم الموصلي ان الغناء الماحوزي الذي افتتن به الناس من فن ابيه انما كان من صنع ابليس . قال عن ابيه : « استأذنت الرشيد أن يهب الي يوما من ايام الجمعة انفرد فيه بجواري واخواني فاذن لي في يوم السبت .. فأقمت بمنزلي واخذت في اصلاح طعامي وشرابي وامرت البواب الا يأذن لاحد في الدخول علي ، فبينما انا في مجلسي والحرم قد حففن بي اذا انا

بشيخ ذي هيئة وجمال عليه خفان قصيران وقميصان ناعمان وعلى رأسه قلنسوة وبيده عكازة مقمعة بفضة وروائح الطيب تفوح منه حتى ملأت الدار .. فدخلنى غيظ عظيم لدخوله وهممت بطرد بوابى .. فسلم على احسن سلام فرددته عليه ودعوته الى الجلوس فجلس واخذ فى أحاديث الناس وأيام العرب وأشعارها حتى سكن ما بى من الغضب ، فظننت ان غلمانى تحسروا بمسرتى بادخال مثله على لادبه وظرفه . فقلت : هل لك فى الطعام ؟ فقال لا حاجة لى فيه . فقلت : فالشراب ؟ قال : ذلك اليك . فشربت رطلا وسقيته مثله . فقال : ياأبا اسحق .. هل لك ان تغنينا شيئا فنسمع من صنعتك ماقد فقت به عند الخاص والعام ... فغاظنى قوله ثم سهلت الامر على نفسى فاخذت العود فجسسته ثم ضربت وغنيت ، فقال : احسنت يا ابراهيم ! .. فازددت غيظا وقلت ما رضى بما فعله فى دخوله بغير اذن واقتراحه على حتى سمانى باسمى ولم يجمل مخاطبتى . ثم قال : هل لك ان تزيد ونكافئك ، فتعجبت فى نفسى وقلت : بم يكافئنى! ثم أخذت العود فغنيت وتحفظت بما غنيته وقمت به قياما كافيا لقوله لى اكافئك . فطرب وقال احسنت يا سيدى ! ثم قال : اتاذن لعبدك فى الغناء ؟ فقلت : شانك واستضعفت عقله ان يغنى بحضرتى بعد ما سمعه منى ، فاخذ العود وجسه فوالله لقد خلت ان العود ينطق بلسان عربى فصيح فى يده ، واندفع يغنى :

ولى كبد مقروحة من يبيعنى
بها كبدا ليست بذات قروح

الى آخر الأبيات ...

.. فوالله لقد ظننت ان الحيطان والابواب والسقوف وكل ما فى البيت يجيبه ويغنى معه من حسن صوته :

حتى خلت والله انى أسمع أعضائى وثيابى تجاوبه وبقيت مبهوتا لا أستطيع الكلام ولا الحركة لما خالط قلبى من اللذة التى غيبتنى عن الوجود ، فلما رآنى كذلك اخذ العود ثانية واندفع يغنى هذه الابيات :

الا يا حمامات اللوى عدن عودة
فانى الى اصـــواتكن حزين

الى آخر الابيات ...

فكاد عقلى أن يذهب طربا ، ثم غنى ليزيد بن الطثرية :

الا يا صبا نجد متى هجت من نجد
لقد زادنى مسراك وجدا على وجد

الى آخرها ..

ثم قال : يا ابراهيم ! هذا الغناء الماحوزى خذه وانح نحوه فى غنائك ، وعلمه جواريك . فقلت : اعده على . فقال لست بمحتاج · قد أخذته وفرغت منه ، ثم غاب من بين عينى . فارتعدت لذلك ، وقمت الى الســيف فجردته وغدوت نحو ابواب الحرم فوجدتها مغلقة ، فقلت للجوارى: اى شيء سمعتن عندى ؟ فقلن : سمعن احسن غناء ، لم نسمع قط احسن منه ، فخرجت متحيرا الى باب الدار فوجدته مغلقا فسألت البواب عن الشيخ الذى خرج فقال اى شيخ ؟ والله ما دخل عليك أحد ·· فرجعت لأتأمل امرى فاذا هو قد هتف بى من بعض جوانب البيت : لا بأس عليك يا أبا اسحق ! انا ابو مرة ابليس .. وقـد كنت نديمك اليوم فلا ترع .. فركبت الى الرشــيد واخبرته بالحديث ، فقال : ويحك . أعــد الأصــوات التى اخذتها فأخذت العود فاذا هى راسخة فى صدرى »

وقد كان عهد العرب بعزيف الجن فى الصحراء قديما جدا لم يتغير ظنهم به فيما نظمه الشعراء الاسلاميون ، كذى الرمة حيث يقول :

ورمل كعزف الجن في عقدته
هرير كتضراب المغنين بالطبل

غير انهم خصوا الشاعر بالشيطان الملازم ولم يجعلوا للمغني شيطانا مثله لان فن الشعر كان اقدم عندهم من فن الغناء ، وانما كان غناؤهم حداء او محاكاة للحداء ، وكان الحداء نغما شائعا يغنيه كل سائق يحدو الابل ، فهى طريقة لا محل فيها للافتنان والتنويع ، وكان غناؤه على الاكثر فى قافلة لا ينفرد عنها بمكان يظن انه يخلو فيه بالجن لتلقنه ويستمع منها ، فلما ظهر المغنون احادا منقطعين لعملهم منفردين بوضع الحانهم ، أحبوا محاكاة الشعراء بالاخذ عن الجن فى صناعتهم مغالاة بها عن قدرة الانس فى هذه الصناعة ولكنهم طرأوا بهذه الدعوى ولم يتاصلوا فيها كما تأصل الشعراء فسمعت من آحاد متفرقين ولم تكن اجماعا من وحى البديهة فى البيئة بأسرها

وقد روى عن الصناعات العلمية كالطب ، ما روى عن صناعة الكلام وصناعة الغناء ، فاسند صاحب كتاب الهواتف الى النضر بن عمرو الحارثى قصة قال فيها :

« انا كنا فى الجاهلية الى جانبنا غدير فأرسلت ابنتى بصحفة لتأتينى بماء فابطأت علينا وطلبناها فأعيتنا فيئسنا منها . . وقال : والله انى جالس ذات ليلة بفناء مظلتى اذ طلع علينا شيخ فلما دنا منى اذا به ابنتى . قلت : ابنتى ؟ قالت : نعم ابنتك . قلت : اين كنت أى بنية ، قالت : ارأيت ليلة بعثتنى الى الغدير ؟ اخذنى جنى فاستطار بى فلم أزل عنده حتى وقع بينه وبين فريقين من الجن حرب فأعطى الله عهدا ان ظفر بهم ان يردنى عليك ، فظفر بهم فردنى عليك . فاذا هى قد شحب لونها وتمرط شعرها وذهب لحمها وأقامت

عندنا فصلحت فخطبها بنو عمها فزوجناها ، وقد كـان الجنى جعل بينه وبينها امارة اذا رابها ريب أن تدخـن له ، وان ابن عمها ذاك عيب عليها وقال : جنية شيطانة .. ما أنت بأنسية . فدخنت فناداه مناد : مالك ولهذه؟

لو كنت تقدمت اليك لفقأت عينك ، رعيتها فى الجاهلية بحسبى وفى الاسلام بدينى . فقال له الرجل : الا تظهر لنا حتى نراك ؟ قال : ليس لنا ذاك . ان ابانا سـال لنا ثلاثا : ان نرى ولا نرى ، وان نكون بين اطبـاق

الثرى ، وان يعمر احدنا حتى تبلغ ركبتاه حنكه ثم يعود فتى . فقال ابن عمها : الا تصف لى دواء حمى الربع ؟ قال : بلى ! قال : ما رأيت تلك الدويبة على الماء كأنهـا عنكبوت ؟ قال : بلى ! قال : فخذها ثم أشدد على بعض

قوائمها خيطا من عهن فشده على عضدك اليسرى ففعل . قال : فكأنما نشط من عقال . فقال الرجل يا هـذا الا تصف لنا دواء رجل يريد ما تريد النساء ؟ قال : هل ألمت به الرجال ؟ قال : نعم . قال : لو لم يفعل وصفت لك»

وجاء فى كتاب «اكام المرجان » بعد نقل هذه القصـة جملة اخبار من قبيلها يتلقى فيها الانس عن الجن علمـا من علوم الطب لعلاج بعض الامراض ومنها امراض لهـا فى عرف الاقدمين علاقة بالجن كالصرع والوهم والهزال ، وبعض هذا العلاج دواء وبعضه من الرقى التمـائم التى تدخل فى طب السحر والكهانة

وما من صناعة بلغت مبلغ الاعجاز فى راى قـوم الا كان لها تفسير من معونة الجن او المردة ، ويرجعـون فى هذا التفسير الى الخبر المنقول كما يرجعون الى المجاز والتخيل .. فمما نقله الشعراء من اخبار الرهبان ونساك البيع قبل الاسلام قول النابغة عن معابد بعلبك اوتدمر:

الا سليمان اذ قال الاله له
قم فى البرية فاحددها عن الفند
وحيس الجن انى قد اذنت لهم
يبنون تدمر بالصفائح والعمد

وجاراه البعيث فى قوله :

بنى زياد لذكر الله مصنعة
من الحجارة لم يعمل بها الطين
كأنها غير أن الانس ترفعها
مما بنت لسليمان الشياطين

والبحترى يصف ايوان كسرى المهجور فيقول :

ليس يدرى أصنع انس لجن
سكنوه أم صنع جن لانس

فهو هنا يرى بناء فخما مهجورا يصح ان يكون من صنعة الانس للجن لانه خراب موحش كمساكن الجان ، ويصح ان يكون من صنعة الجن للانس لأنه فيما هاله من فخامته اكبر مما تبلغه طاقة الانسان

ولا يفهم القول بتسخير الجان لخدمة الفنون فهما صحيحا الا مع التفرقة الواجبة بين نوعين من التسخير ينبغى الا يلتبس احدهما بالاخر فى هذا المقام

فالتسخير الذى يشمل بنى ادم جميعا ويشمل القوى والعناصر جميعا غير التسخير الذى يأتى فلتة من حين الى حين بالحيلة التى يحتالها الشيطان او يحتالها الانسان ، ولا تبلغ بحال من الاحوال ان تساق مساق التعميم فى الكلام على خلق الاحياء وخلق السموات والارضين

فمن التسخير الذى يجرى مجرى النواميس الكونية قوله تعالى فى القرآن الكريم « وسخر لكم الفلك لتجرى

فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه »

وقوله تعالى : « ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره »

وقوله تعالى : « ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض واسبغ عليكم نعمة ظاهرة وباطنة »

وقوله تعالى عن داود وسليمان : « وكلا آتينا حكما وعلما وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين ، وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون ، ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره »

ولم يرد فى القرآن الكريم ذكر لتسخير الجن والأنس لسليمان. « وحشر لسليمان جنوده من الجن والأنس والطير فهم يوزعون »

ومنه : « والشياطين كل بناء وغواص ، وآخرين مقرنين فى الاصفاد »

فهذا التسخير الذى يفهم منه أن الانسان قد أوتى علما يسيطر به على القوى والعناصر وما فى الارض ، انما يجرى مجرى النواميس الكونية على عمومها ، ولايخص به انسان من الناس الا كما يخص بعلم بناء السفن وصوغ الحديد واستخدام الريح بأمر من الله فى غير احتيال من الشيطان أو اختلاس من الانسان

وليس من قبيل هذا التسخير ما يقال عن أسرار السحر والطلاسم وأغراض التحالف والمخادنة بين الاناسى والشياطين

فذاك تسخير تجرى فيه ارادة الله وقدرة الانسان وأحكام القوى والعناصر كيفما سميناها ، مجرى العموم المطرد فى النواميس الكونية التى يعلمها من يقدر على علمها

أما التسخير المقصود بالسحر وما اليه فهو الى خرق النواميس اقرب منه الى مجاراتها والعمل بارادة الله فيها ، وانما تخرق فيه هذه النواميس بثمن يبذله الساحر من روحه أو جسده ، كأنه محاباة الرشوة وجزاء المخالفة والمروق عن مجرى الامور

ونعود الى عمل الشيطان فى الفنون فنلاحظ ان ملكة الخيال تتقارب فى رواياته وأقاصيصه بين المشرق والمغرب كأنها تصدر من انسان واحد ، يتخيل الشيء الواحد فى أوقات مختلفات ..

فالعرب يتحدثون عن شياطين الشعراء ، واليونان ــ ومن نقل عنهم ــ يتحدثون عن جنيات الفنون التى اصطلحنا على تسميتها بالعرائس ولم نسلبها بذلك نسبتها الى الجان . وقد قيل عن سقراط انه كان يستمع وحى الحكمة من جنى أو شيطان كأنه يستمع الى صوت صديق من الانس يحاوره ويناجيه ..

وقصة الموصلى مع ابليس لها نظير من قصة الموسيقى الايطالى جيوسبى ترتيانى فى أوائل القرن الثامن عشر « ١٧١٣ » حيث كان نزيلا بأحد الاديرة ، فجاءه الشيطان فى المنام وتناول قيثارته وعزف عليها لحنا أذهله ، ولكنه لم يذكره كله حين أيقظه ابليس وتحداه أن يعيده كما سمعه ، فقنع منه بما وعاه وسماه هزة الشيطان

والمردة الذين كانوا يقيمون الصروح فى الشرق يضارعهم فى اليونان جماعة المردة المشهورين باسم « التيتان »

والاطباء في القرون الوسطى كانوا ينافسون الكهنة في صلواتهم ودعواتهم للمرضى فيتعلمون من الشيطان تلك الرقى والتمائم التي يزيفونها باسم الطب ويشترون بها أرواح المصابين ثمنا لما يخدعونهم به من ظاهر الشفاء وباطن الهلاك والبوار

فالغالب على شياطين الفنون انها شياطين قدرة وابداع وليست بشياطين غواية وافساد

ولكن الفنون قدتستخدم للغواية والفتنة كما تستخدم للزينة وأبراز معاني الجمال ، كان جرير يفخر بشعره فيقول أنه من رقى الشيطان ويمدح الرجل الصالح فيقول ما معناه ان الله عصمه من رقاه :

رأيت رقى الشيطان لا تستفزه
وقد كان شيطاني من الجن راقيا

فاذا كان الفن من آلات الاصلاح والفطنة فشيطانه من شياطين القدرة والجمال ، واذا كان من آلات الفتنة والغواية فشيطانه من جند ابليس . وقد قال الامام ابن الجوزى في فصل من كتابه « تلبيس ابليس » وحرم في نهايته غناء التطريب واللهو قال في اوله : « وفصل الخطاب أن نقول ينبغي ان ينظر في ماهية الشيء ثم يطلق عليه التحريم أو الكراهة أو غير ذلك ، والغناء اسم يطلق على اشياء منها غناء الحجيج في الطرقات فان اقواما من الاعاجم يقدمون للحج فينشدون في الطرقات اشعارا يصفون فيها الكعبة وزمزم والمقام وربما ضربوا مع انشادهم بطبل فسماع تلك الاشعار مباح وليس انشادهم اياها مما يطرب ويخرج عن الاعتدال ، وفي معنى هؤلاء الغزاة فانهم ينشدون اشعارا يحرضون بها على الغزو ، وفي معنى هذا انشاد المبارزين للقتال

اشعار التفاخر عند النزال ، وفى معنى هذا اشعار الحداة .. وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم مال ذات ليلة بطريق مكة الى حاد مع قوم فسلم عليهم فقال : ان حادينا نام فسمعنا حاديكم فملت اليكم .. وقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم حاد يقال له انجشه يحدو فتعنق الابل ، فقال رسول الله : يا انجشه رويدك ! رفقا بالقوارير . وفى حديث سلمة بن الاكوع قال : خرجنا مع رسول الله الى خيبر فسرنا ليلا فقال رجل من القوم لعامر بن الاكوع : الا تسمعنا من هنياتك ؟ وكان عامر رجلا شاعرا فنزل يحدو بالقوم يقول :

لاهم لولا انت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فألقين سكينا علينا وثبت الاقدام اذ لاقينا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من هذا السائق ؟ قالوا عامر بن الاكوع ، فقال : « يرحمه الله »

ولنذكر مع كلام الامام ابن الجوزى انه ألف كتابه للكشف عن تلبيس ابليس فلم يدع طائفة الا كشف منها لونا من ألوان هذا التلبيس ، ولم يستثن الحكماء والفلاسفة والمتصوفة والنساك ، فما بالك باصحاب الفنون وقالة الشعر ، ومنشدى الغناء

شياطين الشعراء والكتاب

يغلب ان يكون شيطان الشعر من خلق الشعراء انفسهم وأن يكون الكلام عنه لاحقا لظهور الشعر وانتشاره ، فان لم يكن هذا الشيطان مخلوقا شعريا فهو مخلوق خيالى ابدعه كاهن قديم أو مفكر من مفكرى الجاهليات الغابرة له خيال كخيال الشاعر ، وقد تشابه اسلوب السحرة والكهان فى نبوءاتهم المزعومة باللغات المعروفة بين اهل المشرق والمغرب ، فكلها تتوخى السجع والقافية وتخالف كلام الساحر أو الكاهن فى سائر اقواله ، ليصح القول فيها انها من وحى غير وحيه ومصدر باطن غير مصدر تفكيره الظاهر ، فاذا نسب الشعر الى مصدر كمصدر السحر فالخطوة قريبة والقياس معقول . ولم يزل بين الشعر والسحر نسب قديم

على أن خيال الشعراء يعمل فى تصوير كل كائن غير منظور ولو لم يكن من خلق الشاعر . وشيطان الاديان لم يخلقه الشعراء ولكنهم صوروه فى الصور التى تتمثل للعين ، والصور التى يدركها الفكر وتلم بها احلام اليقظة . وندر من الشعراء ، خاصة ، من سمع بالشيطان ولم يصوره لنفسه على صورة قابلة للتمثيل فى العيان أو للتجسيم على يد الفنان ، وقد صنع له المثالون الغربيون تماثيل على صورة الانسان ذات ذنب وقرنين وظلف كأظلاف الجداء ، وجاء فى الشعر العربى ما يصلح ان ينقل منه تمثال محسوس كما قال بعض الاعراب فى رواية الخليل بن احمد :

وحافر العير فى ســـــاق خدلجة
وجفن عين خلاف الانس فى الطول

ويوشك كل من تصوره من العرب أن يجعله على مثال انسانى منحرف بعض الانحراف أو مشوه فى أصل الخلقة لمجرد المخالفة بينه وبين الملامح الانسانية ، ومن ذلك وضع العين بالطول وتخيله بعين واحدة فى وسط جبهته ، الى اشباه ذلك من التشويه المقصود لمجاراة الخيـــال فى استلزام المخالفة بين منظر الانسان ومنظر الشيطان . وعلى نقيض ذلك كان تصوير شاعر الفرس ـ السعدى الشــــيرازى ـ للشيطان الذى رآه فى الحلم . فقد رآه « بقامة كفرع البانة وعينين كأعين الحور وطلعة كأنهـا تضىء باشعة النعيم » .. ولما علم انه الشيطان ادهشـه ان يكون الرجيم البغيض بهذه الوسامة المحبوبة ، وساله فلاحت على طلعته كبرياؤها وقال : « لا تصدق يا صاح انه مثالى ذاك الذى رأيتهم يمثلونه . فان الريشة التى ترسمنى تجرى بها يد عدو حسود .. سلبتهم الســـماء فسلبونى الجمال »

ولا يعنينا فى هذا الفصل نقل الصور « الحسية » التى اخترعها الشعراء والفنانون لذلك الكائن المحتجب عن النظر ، ولكننا نجمع هنا بعض اوصافه التى تقع فى روع المتخيل أو تعرض للفهم عن تفكير واستنباط ، وليست هذه الاوصاف بالكثيرة ولا بالمتباعدة فى جوهرها ، وليس فيها من ابتداع الا والمنطق يوحى به لزاما فى اوصـــاف الشياطين على اجمالها وانما الجديد فيها قدرة الشاعر على ابراز « الشخصيات » وتلوينها بألوانها الخلقية ،وكل هذه الشياطين التى جاءت « مشخصة » فى اقوال شعراء الغرب قريب من قريب

وليس اشهر فى « الشخصيات » الشيطانية المسرحية من شياطين مارلو وجيتى وملتــون وبليك وكاردوتشى ، من شعراء القرن السادس عشر فما بعـــده ٠ فانهم هم الشعراء الذين خلعوا على الشيطان مســحة مسرحية من فنهم ، ولم يكن تصويرهم للشيطان كله نسخة منقولة من الشيطان كما صورته كتب اللاهوت ، ولم يرد شــيطان كاردوتشى فى قصة مسرحية ، ولكنه مثله على مثـــال الشخصيات السياسية التى تقوم ببعض الادوار على مسرح الحوادث

ولد كريستفور مارلو «Christopher Marlowe» الشاعر الانجليزى فى سنة ١٥٦٤ وظهرت فى حياته قصة الساحر فوستوس بالالمانية ثم ترجمت الى اللغة الانجليـــزية ، ومدارها على رجل ساحر متعطش الى المتعة والسطوة لم يجد بغيته منهما فى العلم والفقه فأقبل على كتب السحر الاسود يلتمس منه القدرة على تسخير الشيطان لما يهواه ، وتعاقد مع الشيطان على قضاء أربع وعشرين سنة فى المتعة التى يهواها ، ثم يسلمه روحه ليهبط بها الى الجحيم

ويجرى الحوار بين فوستوس والشيطان عند التعـــاقد بينهما كما يأتى :

مفستوفليس : فوستوس ! أقسم بالجحيم وليوسيفر ان انجز جميع الوعود التى اتفقنا عليها

فوستوس : اذن دعنى أقرأها على الشرائط التالية :
أن يكون فوستوس روحا فى الصورة والهيولى
وان يكون مفستوفليس خادمه وطوع أمره

وأن مفستوفليس يجيبه الى كل طلب ويحضر له كــل مطلوب وأن يكون فى بيته أو مكتبه غير منظور

وأن يظهر لجون فوســـتوس فى كل وقت كما يحب

وانا الدكتور جون فوستوس من ويرتنبرج ، بهذا الجزاء ، أضع جسدى وروحي بين يدى ليوسيفر أمير المشرق ووزيره مفستوفليس ، وأفوض لهم بعد اربع وعشرين سنة كل التفويض بناء على هذا العقد المسجل غير منقوص ولا منقوض ، أن يبحثوا عن هذا المدعو جون فوستوس حيث كان وأين يحملوه جسدا وروحا ولحما ودما ومتاعا الى حيث يقيمون ..

ويتسلم مفستوفليس هذا العقد موقعا بدم الساحر بدلا من المداد

ويظهر مفستوفليس فى الرواية باسم ملك السوء حينا وباسم الشيطان أو باسمه المشهور فى أكثر الاحيان ، وهو رئيس لزمرة من الشيطان مرءوس لابليس المسمى هنا باسم ليوسيفر زميل بعلزبول ، ومن مرءوسيه سبعة شياطين متآمرين هم شيطان الكبرياء وشيطان الطمع وشيطان الغضب وشيطان الحسد وشيطان الشهوة وشيطان الكسل وشيطان الدعارة

ويقضى الدكتور فوستوس أيامه مع الشياطين مستمتعا بما يهواه من حسان الدنيا وحسان التاريخ ، ومنهن « هيلينا » التى فتنت اليونان الاقدمين ، وباريس ، والتى نالت الجائزة قديما فى مباراة الجمال

ويغلب على ليوسيفر — كما صوره مارلو — انه يضع الامور فى مواضعها ويطلب حقوق الشر كما يدعيها ويعطى الخير حقوقه كما تجب ، فهو ييئس الساحر العالم من سعى السيد المسيح فى خلاصه وينبئه انه عاجز عن انقاذ روحه ، ولكنه لا يرد هذا العجز الى غلبته ورجحان الشر على الخير فى حوله وحيلته ، بل يرده الى عدل المسيح وانه ليس من العدل أن ينجو من لم يكن أهلا للنجاة ، ولا ينكر

الشيطان جدوى الندم والبكاء واستجابة الصلاة والدعاء ، ولكن الشيطان يستخدم حقه ــ على حكم العهد ــ فى تقييد يدى الساحر فلا يقدر على رفعها الى السماء، ونزف دموعه فلا يقدر على البكاء ، وعقد لسانه فلا ينطق بالصلاة والدعاء ..

ويأتى ملتون (١٦٠٨ ــ ١٦٧٤) بعد مارلو بفترة وجيزة فى التاريخ الزمنى ، ولكن الشيطان الذى صوره ملتون أهم من الشياطين « الشعرية » التى صورها من سبقوه ولحقوه فى هذا الموضوع بين شعراء الغرب . ومن الدراسات التى تناولته دراسة الشاعر من الوجهة النفسية، ودراسة الادب والبلاغة ودراسة العقائد وعلاقتها بالعصر والاحداث السياسية ، ودراسة الاطوار التى تتمثل فيها التقوى حيث تتراءى أحيانا على نحو يوافقها كما تتراءى على نحو يناقض مظهرها وغايتها

فالشاعر ملتون كان من المتدينين المتطهرين ، وكان أمين السر اللاتينى فى حكومة الثورة ، وكان وثيق الصلة بالقائد كرومويل الذى قاد الثورة على الملك شارل الاول ، وقد عمى فى أواخر ايامه ، وشمت به شارل الثانى فقال له: الا ترى يا مستر ملتون ان الله عاقبك بفقد بصرك على ما كتبته فى أبى ؟ وكان ملتون مشهورا بسرعة الجواب ، وأجوبته فى قصيدة الفردوس المفقود تعرض لقارئها أمثلة كثيرة على هذه القدرة فى حوار الشيطان والملائكة ، فأسرع الى الجواب قائلا : وعلى أى ذنب عوقب أبوك بفقد رأسه ؟ ..

وملتون لم يبدع قصيدته كل الابداع ، بل استعار من جليوم دى بارتاس «Bartas» (١٥٧٨) فى قصيدته أسبوع الخليقة واستعار من أفيتوس «Avitus» فى قصيدته عن الخليقة والسقوط والنفى من الفردوس ،

واستعار من القصص الشعبى الذى كان يدور حول مأساة ادم وحواء ، ولكن هذه القصص جميعا نسيت أو كادت وبقيت قصته لبلاغتها ودلالةصورها وتشبيهاتهاواتساعها لتلك الدراسات المنوعة التى أشرنا اليها

يقول الشاعر دريدن أن الشيطان هو بطل ملحمة « الفردوس المفقود » دون من فيها من الشخصيات العلوية والسفلية ، ويرى النقاد الادبيون راى دريدن فى هذه الملاحظة ، فان ملتون قد حول التفات القراء الى الشيطان بما القاه على لسانه وما شرحه من مزاعمه ومواقفه . وهو لا يعفيه من الذم واللعن والاستنكار ، ولكن عباراته التى يذمه بها ويستنكر بها افعاله انما تأتى مجاراة للعرف الشائع الذى يتشابه فيه كل قائل ، على حين تبرز الاعمال والاقوال التى ينسبها اليه أو يضعها على لسانه بروزا قويا موفور النصيب من عناية الشاعر واعجابه ، وسر ذلك — مع تشيع ملتون للمتطهرين الدينيين — أنه كان ثائرا ووجد فى تمرد الشيطان فرصة للافصاح عن حجج الثورة ودواعيها ، وربما ظهر من دراسة الشيطان في قصيدة ملتون انه يمثل شارل الاول فى بعض الخلال كما يمثل كرومويل فى حالات أخرى غير أنه كان يمثل شارل الاول فى الخلال التى يعيبها الشاعر ويضيفها الى خبائث الشيطان ومساوئه . ويمثل كرومويل فى الصلابة والجرأة والاعتزاز بالنفس ، وفى مجموعة تلك الخلائق التى جعلته يطلب المكان الاول فى جهنم ولا يقنع بالمكان الثانى فى السماء

ويلقى ملتون على لسان الشيطان انه يرثى للملائكةالذين يحاربونه فى صف الاله وهو الذى غضب لهم وانف من المهانة التى تلحقهم بتفضيل بنى آدم عليهم ، وانه لولا

صواعق السماء لما طمعت جنود السماء فى الغلبة عليه .
وتخيل ملتون شيطانه فى بعض مواقفه كأنه سلطان شرقى يستوى على ديوانه ويحيط عرشه بوزرائه واعوانه ، وتخيله فى أكثر المواقف على هيئة المغلوب الذى يؤسف على هزيمته ولا تراد له الا لانه قضاء لا مرد له من الله .
وقد تضطرب صور الشيطان بين موقف وموقف الا صورة واحدة تثبت له فى جميع مواقفه ، وهى الصورة التى ترضى الشاعر حين يتخذه لسانا ناطقا بحجج المتمردين وحين يتخذه شبحا يحمله اوزار الطغاة وذوى الجبروت فان ملتون هو ملتون فى الحالتين ، وان بدا الشيطان فى صورة مضطربة كلما سامه أن يمثل الحالتين ، ولا يندر أن تتقابلا مقابلة النقيضين

ولعل القول الاصح ان الاختلاف بينهما انما هو اختلاف دورين لا اختلاف شخصيتين . فقد كان الفـــرق بين كروموبل وشارل الاول فرق الطرفين المتقابلين والعدوين المتقاتلين ، ولكنهما فى الطبائع الشخصية لا يتقابلان هذا التقابل على طرفى الميدان، بل يتقاربان تقارب الاشباه والنظراء

وفى هذه الاسطر محل لاديب من معاصرى ملتـــون يقتحمه اقتحاما بحكم المعاصرة والاشتراك فى الحـــرب الاهلية والكلام عن الشيطان ، ولا محل له الى جوار ملتون بغير هذه المعاصرة وهذه المناسبة ، ونعنى بهذا الاديب جون بنيام «Bunyam» مؤلف رحلة الحاج والحرب التى شنها شداى على ابليس . وابليسه غاصب محتل لمدينة الروح الانسانية بحاضره ممانويل ابن بانى المدينة شداى ــ اسم من اسماء الله عند العبريين ــ ثم يستولى عمانويل على المدينة ويتغلغل فيها ابليس وجنوده بالمكر والدسيسة ويستردها جميعا ما عدا قلعتها المحصنة وهى ضمير الانسان المؤمن بكفارة الخلاص

اما الشيطان الذى يلي شخصية ابليس فى الفردوس المفقود فهو شيطان رواية فاوست التى الفها شاعرالالمان الاكبر جيتى (١٧٤٩ – ١٨٣٢) وجعل فيها للشيطان مفستوفليس دورا بين الارض والسماء وبين الخالق والمخلوقات غير الدور الذى تقدم فى رواية مارلو . فان مفستوفليس فى رواية جيتى هو بعلزبوب نفسه وليس زميلا أو تلميذا من تلاميذه ، ودوره فى هذه الرواية يعم ظواهر الوجود كله ولا تحده المهمة التى يندبه لها فاوست وامثاله ..

وهو يصف نفسه مرة بأنه « جزء من القوة التى امتزجت بالسوء قديما ولكنها لا تفتأ تصنع الخير »

ويصف نفسه مرة اخرى بأنه القوة النافية التى تقول « لا » امام كل ايجاب

ويوصف فى جميع الاحوال كأنه المفسد الذى يتخلل مفاتيح المعزف بالزوائد والعوائق كلما انتظمت عليها نغمة من نغمات النظام

ويقول مفستوفليس للدكتور فاوست أن الوجود كله عبث وانه كان من الخير الا يوجد . فيقول فاوست : والآن علمت ما تريد .. انك لم تستطع ان تعدمه جملة فأنت تشيع العدم فيه بالتجزئة أو تبيعه بالمفرق !

وقد وضعت قصة فاوست على غرار قصة ايوب فى العهد القديم ، وظهر الشيطان فى أولها يقول لله انك خلقت العقل للانسان لتميزه على البهائم ، ولكنه يستخدمه ليصبح دونها فى الشر والجهالة ، واننى لا ابالى أن اشقى بنى آدم فانهم متكفلون دونى باشقاء انفسهم . ثم يقع الرهان على روح العالم فاوست الذى يئس من البحث والعلم وآب الى الجهالة التى لم يستطع

معها مذاقا للحياة ، فيتفق الشيطان والعالم على شروط كالشروط التى تقدمت فى رواية مارلو ، ويأخذه الشيطان الى وكر الساحرة لتعيده باشرافه ـ أى اشراف الشيطان ـ الى الشباب . فيعاف العالم ذلك الوكر ويسأل مفستو فليس : أما من وسيلة غير هذا السحر القبيح لتجديد الشباب ؟ فيجيبه مفستوفليس : بلى ! هناك وسيلة اهديك اليها .. تذهب الى الغيط وتحرث وتزرع وتأكل اللقمة التى تجدها وتحصر الحياة فى اضيق حدودها ، وتأتى عليك الثمانون وانت فى غرارة الشباب

قال فاوست : لست بهذا .. قال مفستوفليس : اذن لا مناص من السحر والساحرة ، وسأله فاوست : ولم الساحرة ؟ فأجابه الشيطان : انها صناعة صبرطويل لا اطيقه ، ولابد لكل صناعة من احكام

وتبدأ الغواية برؤية الفتاة مرجريت عائدة من كرسى الاعتراف فيشتهيها فاوست ويروضها له الشيطان ويتواعدان على اللقاء بعد أن تنام امها بجرعة مخدرة ، فتموت الام بالجرعة وتحمل مرجريت ثم تلد فتقتل وليدها ، وفى خلال ذلك يأتى اخوها الجندى فيطلع على سر هذه الفاجعة ويذهب الى فاوست ليقتله فيقتله فاوست فى مبارزة بينهما ، ثم يغلبه الحنين فيعود الى مرجريت ويعلم انها سجينة وييسر لها وسائل الخلاص من السجن فتأبى وتتقبل العقوبة المنتظرة للتكفير عن جريمتها ، ثم تصعد روحها الى السماء فيقول القائلون : لقد هلكت . وتهتف الملائكة : لقد نجت باذن الله !

ويمضى فاوست فى تجربة اخرى غير تجربة العشق والغواية ، فيرتفع فى عينى الملك وينال ما يرضيه من السلطان بالحظوة لديه ، ويطعمه الشيطان فى المزيد من

الجاه والملك فيعاوده الحنين الى العشق وغواياته ، ويسوم شيطانه هذه المرة أن يبعث له الفاتنة «هيلينا» من الاموات فيبعثها ويأتى بها اليه ، ولكنها تراوغه اذ يضمها الى ذراعيه ، فلا يجد منها غير جلبابها فى يديه :

وكان فاوست بعد مصرع مرجريت قد آلى على نفسه ليذوقن كل ألم يبتلى به بنو آدم لينسى جنايته على الفتاة البريئة وعلى أمها واخيها ، ويخشى الشيطان عاقبة هذا الندم فيشغله عنه بدسائس القصر وضجته ، ويوشك ان ينسيه الندم لولا سآمة ترين على صدر العالم الحكيم فيزهد فى كل ما احتواه ويربأ بعقله وحكمته عن هذه الصغائر التى تلهيه . ويسأل : اين هى السعادة ؟ فيعلم انه لم يجدها قط فى لهوه الاول ولا فى لهوه الاخير ، ثم يلوح له ان يستخدم علمه فى تعمير الخراب واصلاح البوار ومعونة الضعفاء ، وانه لكذلك اذ تحين ساعته وتخرج روحه ، فيهم الشيطان بقبضها للهبوط بها الى الجحيم ، وتتنزل الملائكة من السماء فتتنازعه عليها وتقول له انه قد خسر الرهان .. لأن فاوست على ما اقترف من جريمة ورذيلة ، قد عاش وهو يتجه بعينيه الى النور ومات وهو متجه اليه

واغرب الشياطين الشعرية كافة ذلك الشيطان الذى ابتدعه خيال وليام بليك بين أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، وليس هو على هذا بأغرب من خيال الشاعر الذى ابتدعه . فانه شاعر فى العصر الحديث يدين جدا وصدقا بالمذهب الثنوى ومذهب المعروفيين «Gnostics» الذى ذهب معتقده بذهاب القرون الوسطى

كان بليك من اتباع المتنبىء السويدى سويدنبرج ، وكان سويدنبرج من اصحاب الرؤى المصدقين لما يعتريهم

من حالات الوجد والنشوة الدينية ، ووقر فى خلده بعد ان جاوز الخمسين فى منتصف القرن الثامن عشر انه يتلقى الوحى من عـــالم الغيب فاعتزل وظائف الدولة واعلن خروجه على المذاهب المتبعة وبشر برسالته التى سماها المسيحية الحقة ، وفسر الكتب المسيحية تفسيرا يخالف التفسيرات التى اعتمدتها الكنائس الكبرى ، ثم هجر وطنه واقام بالعاصمة الانجليزية حتى مات بها (سنة ١٧٧٢)

ودرج بليـــك فى حجر اسرة انجليزية تدين بمذهب سويدنبرج ولكنه انقلب عليه ولم يرجع الى مذهب من مذاهب الكنائس المعروفة ، بل راح يســـتقل بتفسيراته وتأويلاته على حسب ما يستوحيه من تفكيره والهامه ، ولم يكن على علم بشيء من اللاهوت ولا من معارف عصره ، لانه لم يدخل مدرسة منتظمة فى صباه

وشيطانه يصح ان يكون فكرة مجردة كما يصح ان يكون روحا انسانيا او ملكا من الملائكة المغضوب عليهم ، بل يصح ان يكون عنوانا يضعه الشاعر على كل « شخصية » مفروضة تنتمى الى الشر والخباثة ، وعنده ان الشر هو الصرامة فى الاوامر والنواهى والتشـــــدد فى المحللات والمحرمات . فكل رب جاء عنه فى الاساطير الغـــــابرة والديانات الاولى وصف العبوس والجهامة واتســـم فى ضمائر عباده بالقسوة والصرامة فهو شيطان يترقى فى الشيطانية على حسب قسوته وصرامته الى منازل الآلهة الوثنيين المنعوتين بآلهة الشر او آلهة الظلام . ومن اوهامه التى لا يدرى احد اهى اوهام شعر ام اوهام اعتقاد ثابت — ان روح الشاعر ملتون حلت فيه لتكفر عن خطيئتها فى تصوير السيد المسيح وتصوير ابليس ، وان الكتب القديمة ادخلت فى اذهان الناس ان الانسان ذو حقيقتين جسدية

وروحية ، وان نشاط الجسد من الشيطان ونشاط العقل من الروح ، وان الله يعذب الانسان عذاب الابد لمطاوعته بواعث جسده ، ولكنه من الحق الذى يناقض هذا ان جسد الانسان غير منعزل عن روحه لان حواس الجسد هى منافذ الروح الى المعرفة ، وان النشاط كله من الجسد دون غيره وليس العقل الا الحدود التى تحيط بذلك النشاط ، وان النشاط هو الفرح الابدى وما عداه كسل واحجام عن الحياة

ولم ينشر بليك مؤلفاته لانه كان يمقت الطباعة ويناظرها بأدوات من اختراعه للنقش والرسم والكتابة يرى انها اليق بالوحى الروحانى من تلك المطبوعات الصناعية . وقد جمعت آثاره بعد موته من قصاصات مشعثة كان يدون فيها خواطره ويتم بعضها ويترك بعضها مبتورا فى نهايته أو مبتورا فى أوله ووسطه ، وهذه شذرة منها تعود ان يدونها بعنوان « خطرة مذكورة » وفى الخطرة التالية عن الشيطان والملك يقول :

« رأيت يوما شيطانا فى لهيب النار يرفع هامته الى ملك جالس على سحابة ، ويصيح به : اسمع يا هذا . ان عبادة الله هى تمجيد هباته لغيرك على قدر هذه الهبات ، واختصاص اعظم الناس بأعظم المحبة ، وما الذين يحسدون العظيم أو يفترون عليه الا اعداء لله . فلا اله غير ذاك »

وسمع الملك مقاله فازرق ثم ملك جأشه فاصفر ثم سكن فابيض وعلته حمرة وابتسامة ، وقال : « يا عابد الصنم ! اليس الله بالاله الاحد ؟ اليس الله قد تجلى فى عيسى المسيح ؟ اليس المسيح قد بسط بركته على الوصايا العشر ؟ اليس سائر الناس حمقى وخطاة وعدما ونكرات ؟ »

ثم يلقى بليك على لسان الشيطان ردا يقول فيه : « اذا كان المسيح اعظم انسان فأحببه حبك للانسان الاعظم » .. ثم يحكى له الشواهد من اعمال المسيح ناقضا مايفهمه الاكثرون من الوصايا العشر ، ويختم هذه الشواهد قائلا : « لقد كان عيسى فضيلة كله ، لانه كان يعمل بباعث عطفه ولا يتقيد بالقيود »

وكل ما القاه بليك على السنة الشياطين فهو من قبيل ما تقدم ، مع التناقض الذى لا يثبت فيه غير معنى واحد وهو التبرم بالاوامر الصارمة والفضائل الجافية ، والتفكير المنتظم ، وقد قال عن الملائكة انها تحسب انها دون غيرها تتحدث بالحكمة ، وكل من يفكر على قياس مطرد خليق ان يفتر هذا الغرور ، واكثر النتف التى تركها تحمل عنوان الخطرة المذكورة وتجتمع فيها هذه الخطرات بعنوان القرآن بين السماء والجحيم ، وينعقد قران السماء والجحيم ولقاء الملك والشيطان فى رأيه بالعمل الذى يصدر من الحب ونشاط الجسد منبعثا بوحى الفطرة الصادقة

فالشيطان على هذا الاعتبار جيوش من الشياطين يجسمها القارىء أو ينظر اليها كأنها معانى الشاعر فى قريحته مطلقة بغير تجسيم وبغير شخصية مرتسمة فى الحس أو الخيال

وبعد شيطان بليك ـ او شياطينه ـ لا تحفظ تواريخ الادب الغربى صورة لشيطان شعرى عمل فيها الفن وبواعث النفس وحوادث العصر غير شيطان كردوتشى شاعر الثورة الايطالية (١٨٧٠ ـ ١٩٠٧) وصاحب جائزة نوبل قبل وفاته بسنة

وتكاد قصيدة الشيطان من نظم كردوتشى ان تكون

نشيد صلاة وقد سماها هو نشيدا ونظمها على وزن التراتيل التى تنشد فى الصلوات ، وقال فيها انه لا يحفل بالتاريخ القديم تاريخ حرب الشيطان مع الملك ميكائيل ، وأنه يحيي ابليس لانه قاهر الكهان ورافع علم الثورة ، ويناديه : لا تهرب منى حين اناجيك . فاننى أود ان انطلق اليك بروحى ولا يكفينى أن ألتقى بك في الشعر والخيال ، ويختم النشيد قبل المقطوعة الاخيرة قائلا :

« انك ايها الشيطان العظيم . انك تعبر البحار وتطوى الارضين . انك تنفث الدخان كالبركان وتجوس خلال الديار ، وتمضي حيث تشاء كما تشاء »

وانطلاق الشيطان ، مع سخريته بالكهان ، هما آية الحرية عند كردوتشى الثائر على طغاة الدنيا والدين ، ولا يبعد أن يكون الشاعر ــ كما قال ابن وطنه جيوفانى بابينى ــ متأثرا بأستاذه ليوباردى فى قصيدته عن اله الشر اهريمان صاحب القضاء النافذ في الوجـــود كله ، منفردا ــ في رأى ليوباردى ــ بغير شريك من أرباب الخير أو ملائكته فى الزمن القديم أو الزمن الحديث

ونحن فى هذه العجالة يجزئنا ما تقدم فى باب شياطين الشعراء التى عمل فيها الفن واصطبغت بصبغة البواعث النفسية والحوادث السياسية ، ولم يستوعب هؤلاء الشعراء الذين ذكرناهم كل ما يقـــال عن ابليس او عن الشياطين كما يعتقدها اتباع المذاهب منذ القـــرون الوسطى ، فقد كان اكثر الشعراء يجربون قرائحهم فى مأساة آدم والشيطان ، ولعلنا نحيط بهذا العالم الزاخر اذا عرفنا أن رجلا مثل هوجو جروتيوس (١٥٨٣ ــ ١٦٤٥) الملقب بأبى القانون الدولى قد جـــرب قلمه وقريحته فى هذه المأساة ، وكان معاصرا للشاعر ملتـــون

فانتشرت قصائده الى جانب القصائد الخالدة التى نظمها ذلك الشاعر المعدود اليوم فى الذروة بين اشعر شعراء العصور ..

وبعد زهاء قرنين اوحى اسم هوجو الى سميهالفرنسى الكبير فكتور هوجو (١٨٠٢ ــ ١٨٨٥) ان يجرب قلمه وقريحته على نمطه ، فنظم قصائده فى خاتمة الشيطان ونادى بموته ولحاقه بابليس جاحد ربه بين عقـــول كالخفاش الذى يخاف النور أو البومة التى تستهدى الظلام والغراب الذى يسلم الفضاء للنسر والعقــاب والعنقاء ومن فوقها مرمى السهام التى لا تبلغ الهدف الا من وراء قناع الموت .. ودون ذلك كله ، تنحسر أشواط الابالسة والشياطين

الا ان هذا المحصول الزاخر لا يزيدنا لونا من الوان الصورة في ضمير المؤمن او فى قريحة الشاعر ، وهذا الذى تحريناه فى اهمال ما اهملناه والالمام بما اشرنا اليه . بيد اننا لا نستطيع ان نهمل هنا صورة شيطانية تقترن باسم الشـــاعر الفرنسي بودلير صاحب ديوان « أزهار الشر » وناظم القصائد فى الابتهال الى الشيطان « احكم الملائكة الذى سرق منه القضاء ثناءه والذى سجل عليه الطرد والحرمان من لا يزال يخطىء ويغلط » . فان هـــذا الشيطان عارض نفسانى يصـــور الانعكاس فى السريرة المشوهة فتتعمد التوجه اليه على سبيل النقمة والنكاية وتصلى اليه ليشفق عليها كأنها تستجدى الشفقة الالهية ــ عكسا ــ بلسان اليأس والكبرياء

وفيما عدا شيطان بودلير لانرى فى هذا الفصل موضعا للشياطين التى تخيلها الشـــعراء ولم تدخل فى عداد الصور الخلقية وخوالج الوجدان فى الانسان منفردا او

جزءا من اجزاء الجماعة . فالشاعر الروسى لرمنتوف خلق فى احدى قصصه شيطانا لايعدو ان يكون انسانا متنكرا يزاحم الناس على العشق والشهوة ، والشاعر الانجليزى بيرون خلق شيطانا فى قصيدته « رحلة الشيطان » لايعدو أن يكون مخبر صحيفة يروى للقراء مايروى فى المجالس النيابية ومجالس السمر ، وغيره من الشعراء قد اختار اسم الشيطان ليجرى على لسانه كلاما يجريه بعض الشعراء الاخرين على السنة الطير والحيوان أو على ألسنة الشجر والجماد

أما الشيطان الذى نعرض هنا ذكره فهو الشيطان الذى يحوم فى النفس الانسانية وبين الجماعات البشرية فى تقاليدها وموروثاتها ومقاييسها لخيراتها وشرورها ، وهو الشيطان الذى يطيف به خيال الشاعر معبرا عن شعوره ، وان لم يكن من عقائد دينه ، كالشياطين التى سميت بأسمائها فى الادب العربى . هبيد ومسحل والهوجل وجهنام ، أو كالشياطين التى يعتقدها المتدين ويفتن الشاعر فى تصويرها لامتيازه بملكة الخيال وملكة الرمز والتشخيص ، فهذه الشياطين قوى مشتركة فى طبائع الناس وقيم نفسية يقومها الناظرون فى الاخلاق والطباع ، ولو رفعناها منها بأسمائها لبقى مكانها متطلبا منا أن نسميها بغير تلك الاسماء ، لانها لا تقبل السكوت عنها ولا تغفلها الحياة ان أغفلها اللسان (١)

---

(١) اهملنا فى هذا الفصل ماكتب على سبيل الهزل فى قصص الفكاهة كقصة رابليه آلفرنسى ، وبن جونسون الانجليزى ، فانهما صورا الشيطان غرا مخدوعا ليبالغا فى دهاء الفلاحين أو المرابين ، ولم يقصدا الجد فى تصوير شيطان معلوم أو تصوير الخلائق الشيطانية على العموم

فى الأدب العربى

يندر فى الادب العربى تمثيل الشياطين الشعرية من قبيل تلك الشياطين التى حفلت بها ملاحم الشـــعراء الغربيين وقصائدهم ، لان شـــعراء العرب لم ينظموا الملاحم التى يتمثل فيهـــــا أبطالها بملامحهم الظاهرة وملامحهم الخفية . ونحسبهم لو نظموا هذه الملاحم لما كان للشيطان فيها هـــذا الشأن الذى أصابه فى أدب الغرب شعرا ونثرا . لان الادب العربى لاينسب الى الشيطان دورا فى قصة الخليقة والخــلاص كالدور الذى ينسب اليه فى عقائد الادباء الغربيين ، فاذا نظم الشاعر العربى ملحمة عن الخليقة لم يكد يفعل فيها الشيطان فعلة غير ذلك الوسواس الذى يطـــرأ على كل سريرة آدمية فى ساعته كما طرأ على سريرة آدم أو سريرة حواء

واذا تخيل المتخيل صفة للشيطان فى كلام شـــاعر عربى فلا نظنه يخرج منه بصفة غير تلك الصــفة التى لخصها أبو نواس فى خليط من الخبث والحاقة ، لانه

تاه على آدم فى ســـجدة وصـــار قوادا لذريته

وربما تكرر من الشعراء الذين يشخصونه لانفســـهم ذلك الحوار الذى دار بينه وبين أبى نواس : حوار من يستعين بابليس على شهواته ويتوعد ابليس أن يتوب من المعاصى ان لم ييسر له مايشتهيه ، وقد كان ابليس على هذه الصفة عند الشاعر الذى قال فيه :

ابليس أكرم من أبيكم آدم فتبينوا يا معشر الاشرار

النار عنصره وآدم طينــــة والطين لايسمو سمو النار

وذلك هو بشار بن برد الذى كان يتظرف بأمثـــــال هذه البدوات ولا يأتى فيهـــــا بجديد من عنده ، لان المفاضلة بين العنصرين اقدم من بشار واقدم من كل ما قاله الشعراء المسلمون عن ابليس ، ولم تخطر صفة ابليس على بال احد من المتقدمين فى الاسلام الا كان يعلم ان ابليس من عنصر النار

على أن موضع ابليس من رسالة الغفران لابى العلاء يشبه بعض الشبه مواضعه من ملاحم الشـــــعراء الغربيين . فقد ذهب فيهـــا الى أودية ليست كأودية الجنة فسأل صاحبه بعض الملائكة : ماهذه ياعبد الله ؟ فقال له : هذه جنة العفاريت الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وذكروا فى الاحقاف وفى سورة الجن وهم عدد كثير .. ويسأل أحد العفاريت عن أشـــعار المردة فيقول له : لقد أصبت العالم بحقيقة الامر . وهــــل يعرف الانس من النظيم الا كمـــا تعرف البقر من علم الهيئة ؟ ثم يسأله عن اسمه فيقول انه يدعى الخيثعور وانهم من غير ولد ابليس ، وانهم من الجن الذين سكنوا الارض قبل آدم عليه السلام

ويلقى فى جنة العفاريت شاعرا يسمى ابا الهدرس فيسمعه من نظمه قصيدة يقول فيهـــا عن أيام طاعته لابليس :

نحارب الله جنودا لأبليس
أخى الرأى الفبين البخيس
نســـــلم الحـكم اليه اذا
قاس فنرضى بالضلال المقيس

نزين للشـــارخ والشيخ أن
يفرغ كيسا فى الخنا بعد كيس
ونفترى جن سليمان كى
نطلق منها كل غاو حبيس
ونخرج الحســـناء مطرودة
من بيتها عن سوء ظن حديس
ونخدع القسيس فى فصحه
من بعد ما منى بالانقليس
ونعجل السعلاة عن قوتها
فى يدها كشح مهاة نهيس
نادمت قابيل وشـــيثا وها
بيل على العاتقة الخندريس

وفى أقصى الجنة يلقون الحطيئة والخنساء ، ويسألون الخنســاء عن شأنها فتقول : احببت أن أنظر الى صـــخر فأطلعت فرأيته كالجبل الشامخ والنار تضطرم فى رأسه فقال لى : لقد صح مزعمك فى :

وان صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم فى راســـــه نار

قال أبو العلاء عن صاحبـه : « فيطلع فيرى ابليس لعنة الله وهو يضطرب فى الاغلال والسلاسل ، ومقامع الحديد تأخذه من أيدى الزبانية ، فيقول ، الحمد لله الذى امكن منك ياعدو الله وعدو أوليائه ، لقد اهلكت من بنى آدم طوائف لايعلم عددها الا الله ، فيقول : من الرجل ؟ فيقول : أنا فلان بن فلان من أهل حلب كانت صـــناعتى الأدب أتقرب به الى الملوك . فيقول : بئس الصناعة ، انها تهب غفة — أى بلغة من العيش — لايتسع بها العيال ، وانها لمزلة بالقدم . وكم أهلكت مثلك ! فهنيئا لك اذ نجوت ، فأولى لك ثم أولى . ان لى اليك حاجة فان قضـــيتها

شكرتها لك يد المنون . فيقول : انى لا اقدر لك على نفع ، فان الاية سبقت فى أهل النار ، اعنى قوله تعالى :

« ونادى أصحاب النار أصحاب الجنـــة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله . قالوا ان الله حرمهما على الكافرين »

« فيقول ابليس : انى لا اسالك فى شىء من ذلك ، ولكنى أسألك عن خبر تخبرنيه . ان الخمر حرمت عليكم فى الدنيا وأحلت لكم فى الاخرة ، فهل يفعل أهل الجنــة بالولدان المخلدين فعل أهـــل القريات ؟ فيقول : عليك البهلة . اما شغلك ما أنت فيه ؟ اما سمعت قوله تعالى : « ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون » فيقول : وان فى الجنة لأشربة كثيرة غير الخمر ، فما فعل بشار بن برد ، فان له عندى يدا ليست لغيره من ولد آدم . كان يفضلنى دون الشعراء وهو القائل :

ابليس أفضل من أبيكم آدم فتبينـــوا يا معشر الاشرار
النـــار عنصره وآدم طينــــة والطين لا يسمو سمو النار

لقد قال الحق ، ولم يزل قائله من الممقوتين

فلا يسكت من كلامه الا ورجل من أصناف العـــــذاب يغمض عينيه حتى لا ينظـــر الى ما نزل به من النقم ، فيفتحهما الزبانية بكلاليب من نار ، واذا بشا بن برد قد أعطى عينين بعد الكمه لينظر الى مانزل به من النكال »

وكل ماجد بعد المعرى من كلام يدخل فى باب القصة من الادب ويذكر فيه الشيطان ــ فهو تلك القصص التى جمعت باسم الف ليلة وليلة واقتبس رواتها ماتداولته الالسنة من أخبار السحرة وتسخير المردة وقيام الجان على ارصاد الطلاسم أو حبسها فى الاغوار والقماقم ، وهى لا تأتى بابتداع أو اختلاف أو زيادة على ما اعتقده الناس

ونظمه الشعراء

ولم يطرأ على الادب العربى جديد فى هذا الباب حتى مطلع القرن العشرين . ثم نجمت فى أوائل القرن العشرين نوازع شتى للتوسع فى الاطلاع على آداب الامم والبحث فى موضوعات الشعر وتعبيراته عنـــد تلك الامم ، ومن موضوعاته الملاحم المطولة ، ومن تعبيراته تجسيم المعانى المجردة والعناصر الطبيعية وأرواح الغيب وكائناته المشبهة بتماثيل الاحياء

ونحن فى هذا الباب خاصة لانبحث بحث المؤرخين او النقاد الاوربيين ، وانما نراجع ما أحسسناه واختبرناه ، ونفهم بواعث النظم والتأليف فى هذه الأغراض ممـــا عالجناه وانبعثنا اليه بوحى الاطلاع وعدوى الخواطر التى يوحيها ..

أول ما خطر لنا أن نقارن بين التشبيهات والمعـــانى المجسمة فى اللغات الاوربية واللغة العربية ، وكتبنـــا فى هذه المقارنة عن الكائنات الخفية وعن عجائب المخلوقات وعن الاساطير ، مما يطلع عليه القارىء فى كتاب «الفصول» ومجمع الأحياء ، واحسسنا الحاجة الى تصـــوير بعض العواطف بصورتها الشعرية التمثيلية ، فأخذنا فى وقت واحد فى نظم قصيدة عن سباق الشياطين وتأليف كتاب نسميه « مذكرات ابليس » ونخصص كل فصـــل منه لغواية من الغوايات كالعشـــق الاثيم والسرقة والبغى والطمع وسائر هذه الاثام التى تذكر كلما ذكر الشيطان ، وكان ذلك حوالى سنة (١٩١٢) وبعد الاطلاع على طائفة من ملاحم الغرب واساطيره . فأما سباق الشياطين فقد تمت القصيدة التى نظمناها فى موضوعه ، وأما مذكرات ابليس فلم يتم منها غير فصل واحد من فصول الاعور بن ابليس الموكل بالعشق الاثيم ، ثم بقيت النية مترددة حول

هذا المطلب حتى تحولنا عنه بعد الحرب العالمية الاولى الى موضوع القصيدة التى سميناها « ترجمة شيطان » ونشرت فى الجزء الثالث من الديوان

وحوالى هذا الوقت ألف صديقنا الشاعر العبقرى الاستاذ عبد الرحمن شكرى كتابه النثرى الذى سماه « حديث ابليس » وقال فى مقدمته : « قد بدأ يكثر فى آداب اللغة العربية البحث النفسى والتساؤل والتفكير والتعبير عن حركات النفس وبواعثها ، ولكن كل ذلك لم يزل بعد قطرة لا نعرف ان كان وراءها سيل أتى . وهذا الكتاب فيه شيء كثير من البحث النفسى والتساؤل والشك والسخر الذى هو محرك يحرك النفوس ويوقظها فهو يعبر عن تلك الدنيا التى فى كل نفس ، ففى فصل نصيحة ابليس مثلا ترى تحت السخر المودع فى هذا الباب ما أرمى اليه من معائب النفوس الجامدة القبيحة التى تشبه مباول الطرق ، وقد جعلت ابليس ينصح بما ينبغى الانتهاء عنه »

وقد اطلعنا بعد الحرب العالمية الاولى على محاولات منوعة فى هذه الاغراض لم يكن منها ما بلغ فى جودته مبلغ العمل الفنى خلال ثلاثين سنة أو تزيد ، ومنها ما نظم فى مصر وما نظم فى غيرها من البلاد العربية ، حتى ظهر ديوان « عبقر » للشاعر السورى الاستاذ شفيق معلوف من صفوة أدباء المهجر بالبرازيل ، وكان ظهوره فى الطبعة الاولى سنة ١٩٣٦ وأعيد طبعه فى سنة ١٩٤٩ ثم ظهرت قصة « الشهيد » لزميلنا الكاتب الموهوب الاستاذ توفيق الحكيم ، وهى قصة صغيرة من مجموعة قصصية صدرت سنة ١٩٥٣ وتعد على صغرها من أجود ما كتب فى هذا الغرض فى جميع اللغات

أما قصيدة « سباق الشياطين » فخلاصتها أن ابليس

جعل لتلاميذه جائزة ينالها من يعرض أعماله ويثبت للملا من الشياطين قدرته على السبق فى التضليل والاغواء ٠
فانبرى سبعة من الشياطين يتنافسون عليها وهم : شيطان الكبرياء وشيطان الحسد وشيطان اليأس وشيطان الندم وشيطان الحب وشيطان الكسل وشيطان الرياء ،
فاستحقها هذا الشيطان الاخير ـ شيطان الرياء ـ ولكنه جرى على عادته فأظهر الزهد فيها وتنحى عن تناولها بعد اشتراكه فى المنافسة عليها فخاطبه ابليس :

قال تأباها ولـــولاك انجلى فيهب الارض فكانت كالنعيم

دونك الدنيا اتخذها منزلا وتول اليـــوم أبواب الجحيم

وقصيدة « ترجمة شيطان » هى قصة شيطان ناشىء سئم حياة الشياطين وتاب عن صناعة الاغواء لهوان الناس عليه وتشابه الصالحين والطالحين منهم عنــــده ، فقبل الله منه هذه التوبة وأدخله الجنة وحفه فيها بالحـــور والعين والملائكة المقربين ٠٠ غير أنه سئم عيشة النعيم ومل العبادة والتسبيح وتطلع الى مقام الالهة لانه لا يستطيع أن يرى الكمال الالهى ولا يطلبه ، ثم لا يستطيع أن يطلبه ويصبر على الحرمان منه ٠ فجهر بالعصيان فى الجنـــة ومسخه الله حجـــرا فهو ما يبرح يفتن العقول بجمـال التماثيل وآيات الفنون ، واستضحك ابليس بين جنـــده يوم انتهى المطاف بتلميذه الى هذه الخاتمة ، فقال :

ما أرى هــــذا الفتى من دمنـــا
ومتى استغوى الشـــياطين الشرك
أترى شـــــيطانة من قومنـــا
أغوت الامـــلاك فهـــو ابن ملك

٠٠ ٠٠ ٠٠

فتلاحى القــوم ثم اســتضحكوا
ودعا مازحهــم شر دعـــاء
قال : فلتســلكه فيمن ســلكوا
أيهـــا المولى ســبيل الشــهداء

والسمة التى يتسم بها ابليس فى رسالة الاســتاذ عبد الرحمن شكرى هى سمة النقد الســاخر تسرى فى الحديث من أوله الى ختامه ، ويدل بعضها عليها كقــول ابليس عن أخــلاق الانسان والحيــوان : « اننى أرى فى الحيوانات العجم خصالا هى فى الانسان ضئيلة خافية . فللكلب من الوفاء والامانة ما ليس للانســان ، وللخيل من الود والولاء مالا يبلغ بعضه الانسان ، وللبغال والحمير من الصبر والحزم ماليس له ، وللقرود من الذكاء والفطنة وحب التقليد ما ليس له ، ولو فطنتم يا بنى آدم لرأيتم ان تزوجوا بناتكم من البغال والحمــير والكلاب والقرود لكى يكتسب نسلهن بالوراثة من حميــد صفات هــذه الحيوانات .. ولا تحسب أن النساء ينزعجن من هــذا الزواج فانهن قد الهمن فضائل الحيوانات وهذا تفســير ميلهن الى صغار الكلاب والقرود ... »

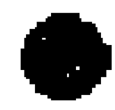
أو كقول أحــد الشياطين : « .. فالتفت ابليس الى وقال : سمعت أحــد الملائكة يقول لحافظ من الحافظين وهو الملك الذى يحصى ذنوب الناس : مالى أراك منتوف الجناحين ؟ قال الملك : عافاك الله من الناس ، فانى أستخدم ريش جناحى كما تعلم فى كتابة ذنوبهم ، وقد تكاثرت على ذنوبهم حتى برت ريش جنــاحى وأتلفته وانا كلما تلفت ريشة من كثرة الكتابة نتفت من جناحى ريشة أخرى حتى نفذ ريشى ولم تنفذ ذنوب الناس »

وختم الكاتب الرسالة بكلمة عن عظم الوجود وغرور الانسان ، ونصيحة من روح الابد يقول فيها للانسان الذى

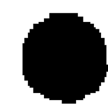
يخاطبه : « اذهب الى مكانك من الارض ولا تنس الوجود فان احساسك بعظمته فيه معانى العبادة كلها »

ونظم شاعر المهجر البرازيلى الاستاذ معلوف ديوان عبقر مقسما الى قصائد يروى فى كل قصيدة منها نبـأ عن ولد من أولاد ابليس أو بعض الشيطاطين ، فيقول مثلا عن الشيطان « داسم » ابليس النقائص :

وجاءنا ثانى ، أبناء عزريل
سحنة شيطان ، فى منكبى غول
وقال فى دهاء ، ويك أنا الكاسى
بالخبث والرياء ، نقائص الناس



لما أممت الارض فى زورة
استعرض النقائص العارية
الفيتها والناس قد مزقوا
اجسادها فى فتنة دامية
فرحت أكسو بيدى عريها
بحلل براقة زاهية



فاندست الكبرياء ، تحت حجاب الحسب
وتحت ستر الاباء ، فلفل وجه الغضب
وانقلب العناد ، بين الورى حزما
وصار الاستبداد ، فى عرفهم عزما

ويقول عن الاعور ابليس الشهوة :

وذاك أعور ، أطل ينظر ، من ظاهر الهوة
وقال انى أنا ، حامى ذمار الخنا ، والعهر والشهوة
شرارنى فى العيون ، حريقة فى الدم
انا مثير الجنون ، والفم لصق الفم

ما اتكأ العاشقون ، الا على معصمى

كم ذاق خمرى عاشق فالتوى معربدا فى سكرات الهوى
مهدما ببعضه بعضـــــه وهو على الانقاض يبنى السوى

وختم الديوان بقصيدة عن العبقريين ، قال فيها عن أهل الخلود من أبناء عبقر :

وثمة استجليت صوتا دوى
ولم أجده للذهولى سوى
جماجم ارواحها غلغلت
تصخب فيها من خلال الكوى
فصاحت العظام ، أعطى الذى أخذ
لم تظفر الايام ، منا بغير الفلذ
فكن عش الغرام ، وصرن مأوى الجرذ
لكنما أحلامنا لم تزل
ترقص سكرى فوق غلف المقل
حاملة للناس خمر الهوى
مشعة خلف كؤوس الامل

والغالب على ديوان عبقر روح غنائية يسندها خيـــال موفق فى كثير من تشخيصاته وما ينطق به لسان الحال من تلك الشخوص المخيلة

وهذه الجوانب المتعددة من صور الشيطان فى الادب العربى الحديث تتم من جانبها الفنى بقصة « الشهيد » للاستاذ توفيق الحكيم ، لانه أعطى الشيطان دوره المحتوم فى مسرح الكون ، وجعله كما هو فى الواقع دورا لا حيلة فيه له ، ولا لاصحاب الاديان الذين يلعنونه ويستنكرونه ، ولكنه يلجأ اليهم ليتوب على ايديهم فلايدرون كيف يقبلون توبته ، فان الحبر المسيحى لا يملك أن يتصرف فى عقيدة الخطيئة والخلاص ، والربانى اليهودى لايملك أن يتصرف فى مكان شعب الله المختار بين الامم التى أضلها الشيطان

على اعتقاده ، والامام المسلم لا يملك ان يتصرف فى التعوذ من الشيطان الرجيم ، ويصيح ابليس يائسا : « وجودى ضرورى لوجود الخير ذاته ... نفسى المعتمة يجب ان تظل هكذا لتعكس نور الله » ويبكى ابليس فتتساقط دموعه كالنيازك على رؤوس عباد الله ، فينهاه جبريل عن البكاء ويحيق به اليأس من كل جانب ، فيهبط الى الارض مستسلما « ولكن زفرة مكتومة انطلقت من صدره وهو يخترق الفضاء ... رددت صداها النجوم والاجرام فى عين الوقت كانها اجتمعت كلها معه لتلفظ تلك الصرخة الدامية : انا الشهيد . انا الشهيد »

ومن الحق ان نلحق بما تقدم لونا آخر من ألوان الحديث عن الشيطان فى الشعر العربى ، لم نثبته مع الصور السابقة لانه من ألوان الرأى لا من الوان التخيل والتصوير ، ولكنه لا يهمل كل الاهمال فى هذا المطلب لانه رأى بيديه صاحبه فى حقيقة الشيطان ..

ذلك هو راى الاديب العراقى الكبير جميل صدقى الزهاوى ومجمله ان الشيطان هو الانسان الذى يخدع غيره لغاية من غاياته :

لا يخدع المرء انسانا لغايته الا اذا كان ذاك المرء شيطانا

وقال فى حساب الملكين :

غير أنى ارتاب من كل ما قد عجز العقل عنه والتفكير
لم يكن فى الكتاب من خطأ كلا ولكن قد أخطأ التفسير

فهذا المطلب على حداثته فى الادب العربى قد أحيط من جوانب متعددة . وهو — ولا شك — لا يساوى نظائره الاوربية فى استفاضتها ولكنه يساويها فى طبقتها اذا أسقطنا من ادب الغرب ما استعاره من قصة الخليقة وما كان لهذه القصة من القداسة الدينية التى لم يخلقها ابتكار الشعراء والادباء

فى العصر الحاضر

اذا أخذنا باحصاء الكلمات والتعبيرات للحكم على مقدار انتشار الافكار والعقائد ــ جاز لنا أن نقول ان الحضارة العصرية أكثر الحضارات ايمانا بوجود الشيطان وعمله الدائم فى النفس البشرية والبيئات الاجتماعية . فان كلمة الشيطان والشيطانية والشيطنة من أشيع الكلمات فى كتابة الاوربيين العصريين ، ومنها ما يشتق من كلمة الشيطان بنطقها الشرقى ، أو يشتق من الكلمات اليونانية والسكسونية بلفظها القديم ولفظها المتداول فى العصر الحاضر

ولكننا سنرى مسالة الشيطان هذه من أقوى المكذبات لطريقة الاحصاء الآلية : طريقة الحكم على الافكار والعقائد بعدد الكلمات والعبارات . فان كلمة الشيطان كانت علما على « شخصية » الكائن الشرير فأصبحت على ألسنة القوم معنى لغويا لا تؤديه كلمة أخرى فى مدلوله · لانه يؤلف فى كلمة واحدة بين الاعمال الشيطانية بجملتها ، ويفهم منه الكيد والخبث والمهارة والنفاق وحب الاذى وكل معنى يناقض الاستقامة والصلاح ، وأكثر ما تستخدم الكلمة ومشتقاتها فانما تستخدم بمعناها هذا الذى انتقل من ألفاظ الاعلام الى ألفاظ المعاني والصفات

وقد أصبح استخدام هذه الكلمة كاستخدام السيد المسيح لكلمة « مأمون » حين عبر بها عن سيادة المال والجشع ، فقد كانت الكلمة فى اللغة السريانية علما على رب يزعمون انه رب المطامع الدنيوية ، فكان السيد المسيح يقول لتلاميذه انكم لا تستطيعون أن تخدموا سيدين ،

ولا تستطيعون أن تنالوا رضى الله ورضى مأمون ، ولم يكن عليه السلام يصدق عقيدة السريان فى مأمون ، ولكنه كان يقولها ويعلم أن سامعيه يفهمون عنه ما أراد ، وهو التعبير من الجشع ومطامع الاشرار

وبهذا المعنى المجازى تشيع كلمة « الشيطنة » فيما يكتبه أبناء الحضارة الاوربية الحاضرة ، وقد يكتبها الملحدون الذين ينكرون وجود الكائنات الغيبية كما يكتبها المتدينون الذين يؤمنون بوجود الشيطان ويختلفون فى عمله وفى مدى قدرته ، وكلهم فى العصر الحاضر يسمعون باسم الشيطان فلا يتخيلونه على الصورة التى كانت تسبق الى خيال السامع فى القرن الرابع عشر وما قبله أو بعده بقليل

وقد ظهر فى باريس عند أواخر القرن الرابع عشر كتاب عن وصايا الشيطان التى يقابل بها وصايا الله ، فجمعها فى ست وصايا خلاصتها العناية بالنفس دون غيرها ، والا يعطى المرء شيئا بغير جزاء ، وأن يتناول طعامه منفردا ولا يدعو أحداً اليه ، وأن يقتر على أهله ، وأن يحتفظ بالفتات من مائدته والاسمال من كسائه وأن يقنطر المال عنده طبقة فوق طبقة .. وهذه رذائل القرن الرابع عشر كما أحصاها بنوه بين الجد والسخرية ، وانها اليوم لفضائل العصر الذى يسمى بعصر التدبير والاقتصاد والانانية الفردية ، ومن أجلها تسمى الحضارة العصرية بالحضارة الشيطانية !

ومن البديه أن المتحدثين عن الشيطان فى حضارة العصر لا يقصدون جميعا هذا المعنى المجازى ولا يقصرونه جميعا على الصفات دون الاعلام والاسماء . فان أكثرهم متدينون يؤمنون بوجود الشيطان وعقيدة المسيحية فيه ، ولكنهم

ـ كما أسلفنا ـ يسمعون باســـــمه فلا يتخيلونه على الصورة التى كانت تسبق الى خيال السامع قبل بضعة قرون ..

فهم يذهبون اليوم بصرعى الجنـــون الى الطبيب ولا يعالجونهم عند الكاهن أو رجل الدين ،وهم يفرقون اليوم بين وساوس نفوسهم وما ينسبونه الى الشيطان من ايحاء وتلقين ، وليس للشيطان عندهم تلك المملكة الواســـعة التى كانت له فى القرون الوسطى ، فانها انحسرت شـيئا فشيئا حتى كادت تخرج من عالم الطبيعة الى ما بعدها ، وكادت دولة الشيطان تؤول الى حالة كالحالة التى حصره فيها الاسلام : قرين سوء ليس له على قرينه سلطان

ويئول الشيطان على هذا فى القرن العشرين الى مصيرين: مصيره فى مجال العقيدة الدينية وهو الى النقصان ،ومصيره فى مجال العبارة المجازية وهو الى الزيادة ، وعلى الناظر فى العبارات والاساليب ان يطيل النظر فى هذا المصير الاخير . اليس فيه الحجة الدامغة لبلاغة الوجدان على بلاغة العقل واللسان ؟أليست هذه اللفظة الواحدة :لفظة الشيطان بلاغة وجدانية تتقاصر عن مداها فى التعبير كل عبارة تجريها اللغة مجرى الفكر و « اللفظ المركب المفيد »

من الذين زادوا فى عدد الشياطين المجازية من كتـاب العصر الحاضر تولستوى حكيم الروس الكبـــير .. فقد اضاف الى عددهم شيطان الكبرياء العنصرية ، وشيطان التعصب الدينى ، وشيطان الاستعمار ، وشيطان الحرب والاستبداد ..

ومن الذين زادوا فى عددهم الى الملايين برتراند رسل فيلسوف الرياضة المعروف ... فان شيطانه الذى أقامه فى الضواحى رجل كان طفلا يتيما تركه أبوه لزوجـــة

سكيرة ،تحبسه في الدار يهلك جوعا وعريا وتذهب لتسكر وتعربد فى الطريق ، فاذا شكا اليها الطفل اليتيم اذ ترجع الى المنزل آخر الليل ضربته حتى يصيح ثم ضربته حتى يسكت عن الصياح . فكبر في الدنيا وهو يجهل أباه ويحقد على أمه أولى الناس بعطفه عليها لو استقامت الدنيا على السواء ، وقل ما شئت فيمن يحقد عليهم غير امه من خلق الله ... فهم كل خلق الله ! وفيهم الملايين من أمثاله الحاقدين على كل مخلوق

ومن الذين زادوا عددهم الكاتبة الانجليزية المعروفة مارى كوريللى ، والشيطان عندها فى قصة أحزان الشيطان يشبه أن يكون صورة الخير منظورا من قفاه لا من وجهه ،وسائرا الى الوراء بدلا من مسيره الى الامام

ومن الذين زادوا فى عددهم سليل بيت العلم بين الانجليز الدوس هكسلى كاتب القصة والمقال وأديب العلماء وعالم الادباء ، فانه أخذ « اسيدى » شيطان القرون الاولى فنسخ منه الوف النسخ بين الادميين وجعل هذا العصر أحق به من عصور النساك والرهبان الذين رهبوه فى وضح النهار ... اذ كان من بلواه أنه لايغشاهم مع الظلام بل يطرق عليهم قلوبهم فى وهج الظهيرة ، ومع شمس الصحراء التى يهرب منها الانس والجان

كان « أسيدى » هذا شيطان الحلم في اليقظة الذى سلطه ابليس على رهبان الصعيد فى عصور المسيحية الاولى ، وكان من دأبه أن يلهيهم عن العبادة بما يزخرفه لهم من الاحلام والرؤى وهم مفتوحو العيون مستسلمون للسكون فى ظلال الصوامع بين نيران القيظ فى الصحراء . فاذا حلموا كسلوا ، واذا كسلوا شكوا ، واذا شكوا آل بهم الشك الى السآمة والملل وكراهة الدنيا والآخرة

واليأس من الصحيح والباطل على السواء

وينقله الكاتب من القرون الاولى الى القرن التاسع عشر ثم الى القرن العشرين ، ويقول فى تفسير نقلته « اننا لا نزعم أن (أسيدى) من مخترعات القرن التاسع عشر . فإن السآمة والخيبة واليأس وجدت قديما ولم تنقطع عن الوجود ، وابتلى الناس بآلامها فيما مضى كما نبتلى بها الآن ... غير أنها فى العصر الحديث قد طرأ عليها ما يجعلها موقرة مرعية ولا يجعلها كما كانت خطيئة محظورة أو يجعلها مجرد عرض من أعراض السقم ... وهذا الذى طرأ عليها انما هو التاريخ كله منذ سنة ١٧٨٩ .. انما هو اخفاق الثورة الفرنسية وذلك الاخفاق الذى يربى عليه فى الضجيج والابهة وهو سقوط نابليون . فقد غرس كلاهما (أسيدى) فى قلب كل فتى من الفرنسيين وغير الفرنسيين ، صدق دعوة الحرية وطمح الى أحلام المجد والعبقرية ، ثم جاءت الصناعة الكبرى بما تراكم معها من القذر والبؤس والمال الحرام ، وكان مسخ الطبائع على يد هذه الصناعة حسب القلب الكريم من محنة الحزن والاسى ، واطلع الناس فرأوا أن الحرية الدستورية التى طالما كافحوا من أجلها عبث لا يغنى شيئا مع طغيان الآلات واستعبادها للنفوس ، فكان ذلك رعبا آخر من ضروب الرعب التى خيبت الآمال فى القرن العشرين ، وزيد عليها من دواعى السآمة داع أدق وأغلب مما عداه وهو تعاظم المدن وراء كل مقدار معقول . فتعود الناس المقام بها وأحسوا فى البعد عنها تفاهة لا تطاق ، وأطبقت البلوى عليهم فأحسوا من ضوضاء المدينة حنينا الى سآمة الريف ... وكأنما كانت هذه المضجرات فى انتظار تاج يعلوها فتوجتها الحرب العالمية الاولى »

ويعنى بالكتابة عن شيطان العقيدة الدينية أناس من

طبقة هؤلاء الكتاب الذين اتخذوا من اسم الشيطان تعبيرا مجازيا عن مساوىء العصر وشروره وأدناسه ،وربما كتب المؤلف الواحد عن هذا الشيطان وذاك الشيطان كما فعل هكسلى فيما ألمنا به من كتاباته آنفا وفى كتابه الذى ألفه من شياطين لودن«The Devils of Loudun» ومن قرأ هذا الكتاب علم أن هكسلى قد أراد أن يكشف عن خبيئة من السوء فى هذا الانسان الذى يلعن الشيطان ، لم يهبط الى ما دونها أخبث الشياطين ..

فالقصة التى حققها الكاتب من مراجعها التاريخية احدى المبكيات المضحكات من مآسى التاريخ التى حفلت بها صفحاته فى القرون الوسطى ، وكان فيها مظلومان مكذوب عليهما كذبا لا يخفي على أحد فى الزمن الحديث ، وهما الشيطان ورجل من رجال الدين مغضوب عليه

وقد بدأت القصة باصابة بعض الراهبات فى بلدة لودن بالصرع واتهامهن بالتجديف والبذاء والتفوه فى نوبات المرض بكلام يخجلن منه كلما أعيد عليهن بشىء من التلميح وهن مفيقات ، ولو حدثت هذه الاصابة فى العصر الحاضر لاستطاع رجل الدين كما يستطيع رجل الدنيا أن يفهم انهن مصابات « بالهستيريا » أو بالفصام الذى تنقسم فيه شخصية المريض ، ولكن الرئيس الذى تولى البحث فى أمرهن لم يستطع أن يفهم من بذائهن فى خلال النوبة وخجلهن بعد الافاقة منها الا أن المتكلم بالبذاء أحد غيرهن يهمه أن يعبث ببراءة الراهبات انتقاما من الله وعابداته وعابديه ، ومن يكون هذا المنتقم القادر على صرع فرائسه غير الشيطان

وسنحت الفرصة لاتهام الرجل المظلوم مع الشيطان وهو الاسقف « جرانديه » عدو الكردينال ريشليه ذى

الحول والطول فى بلاط باريس ، فاتهم بالفسوق وتسليط الشيطان على الراهبات للتغرير بهن ، وصدقت احداهن انها فريسة للشيطان باغراء الاسقف الساحر ، فرمته بالتهمة كما أوحى اليها ، وقرر المحققون انهم سمعوا اعتراف الشيطان وهو يتكلم بلسان تلك الفريسة ، فتقررت ادانة الاسقف بشهادة الشيطان ! وحكم عليه بالاحراق وهو بقيد الحياة

ولما قيل لهم أن الشيطان أبو الاكاذيب ، لم يعسر عليهم ان يبطلوا هذه الشبهة باضطرار الشيطان الى الصدق بين يدى أصحاب العزيمة والبرهان من المحققين الصالحين

وتمشى السخرية مع الفجيعة جنبا الى جنب فى هذه المهزلة الشيطانية ، فيحدث فى بعض محاضر التحقيق ان يقول الشيطان أن السيد لوبردمان رئيس لجنة التحقيق تخونه امرأته مع الاسقف وغيره ، ويكون لوبردمان غائبا من الجلسة ولا يلتفت الى قراءته عند توقيعه فيضع عليه اسمه بعد السطر المعهود الذى يقرر فيه اعتماد الصدق فى كل ما جاء فيه ، ويضحك ولاة الامر ملء افواههم ساعة يعرض المحضر عليهم ، ولكن رئيس اللجنة يعود الى التحقيق لتسخير ذلك الشيطان نفسه فى تمليق الكاردينال ، ويفتتح المحضر المحفوظ بتاريخه (٢٠ مايو سنة ١٦٣٤) سائلا : ماقولك فى الكاردينال العظيم حامى حمى الديار الفرنسية ؟ فيجيبه الشيطان مقسما باسم الله انه سوط عذاب على أصدقائى أجمعين • ويعود الرئيس سائلا : ومن هم أصدقاؤك ؟ فيقول له الشيطان : انهم زمرة الهراقطة • ويسأله الرئيس : وما هى مآثره الاخرى؟ فيجيبه الشيطان انها هى انقاذه للشعب وقدرته على الحكم هبة من الله ، وحرصه على سلام المسيحية ، وولاؤه للملك لويس ...

وبعد العناء المضنى فى جمع هذه الاوراق والمضاهاة بين التحقيقات يخرج الكاتب منها الى سحرة العصر الحاضر الذين يسخرون اعنف شياطينه وهو شيطان الجماعة المستفزة الى الشر والعدوان باسم المذاهب أو الاوطان ، فما تصنعه النازية حين تثور على أعداء الجنس الآرى المطهر ، وما تصنعه الفاشية حين تثور على أعداء المجد الرومانى العريق ، وما تصنعه الشيوعية حين تثور على أصحاب الاموال الاوغاد - كل أولئك ثورة لا تتورع عن اتهام الابرياء واحراق الاحياء ، والهبوط الى الهاوية فى أهبة الصعود الى السماء

ومن المفكرين الذين لهم خطر فى كل بحث يدور على العقيدة والتفكير العصرى كاتبان عالميان هما الدكتور لويس صاحب كتاب المعجزات وكتاب مسألة الشر وكتاب ما وراء الشخصية وغيرها من الكتب فى موضوعات الفلسفة الدينية ، ويعتبرونه فيلسوف المذهب البروتستانتى فى العصر الحاضر ، والكاتب الاخر جيوفانى بابينى صاحب كتاب حياة المسيح واديب المذهب الكاثوليكى المرضى عنه بين المجددين وبين فريق غير صغير من المحافظين

ألف الدكتور لويس رسائل الشيطان وجعلها على لسان استاذ من الشياطين يعلم تلميذه أساليب الفتنة والدسيسة واقصاء بنى آدم عن حظيرة الرضوان ؛ ومعظم هذه الاساليب نفسية يرى العلماء النفسانيون مع المؤلف أنها بواعث شر وجهل فى الطبيعة الانسانية ، ويرى العلماء الدينيون معه أنها مداخل الشيطان الى سريرة الانسان فيقول الشيطان الاستاذ - مثلا - لتلميذه انه خليق أن يتنبه الى خطأ جسيم يقع فيه ناشئة الشياطين وهو اعتقادهم أن السرور حبالة الشيطان · اذ الحقيقة

ان الانسان باق فى الحظيرة الالهية ما بقى فى نفسه موضع للسرور ، وعلى الشيطان أن يفرق بين السرور على أنواعه وبين السرور المصطنع الذى يلحق باللغو والتهريج ،وينبه الاستاذ تلميذه الى الاقلال من العناية باغوائه المتدينين الذين تساورهم الشكوك من جراء الحروب والنكبات فان المتدين الذى لا تصمد عقيدته لهذه الشدائد غنى عن الاغواء ولا حاجة بالشيطان الى فرط العنـــاية باغوائه ، وعلى الشيطان التلميذ الا ييأس من أصحاب الفضائل الذين يعلمون بفضائلهم ويفخرون بها مع انفسهم ومع غيرهم ، فانها فضائل على مقربة من الرذائل الشيطانية قد تعمل على الرذيلة وهى فى عنفوانها ، وليس من عمل الشـــيطان أن ينشر الالحاد لان الذى ينكر وجود الله ينكر وجـــود الشيطان ، وانما عمله أن يصرف المؤمن بالله عن الامـل والعبادة ورؤية المحاسن والمعجزات فى خلائقه ومقاديره :
واقوى الحبائل فى راى الاستاذ الشيطان أن ينفصـــل الانسان من حاضره ويقبل على المستقبل بجملته فان المقبل على المستقبل منقطع عن الحاضر والماضى متعلق بالاباطيل ودواعى القنوط والكراهية ، وعلى الشيطان الناشىء أن يذكر أن الكراهية هى المهمة فى المذاهب « المستقبلية » دون عناوينها ودعاويها ، فلا فرق بين الشيوعية والفاشية والاباحية على اختلافها ما بقيت نفس الانسان خلوا من الحب مفعمة بالنقمة والبغضاء ، وآفة الآفات الكبرى على الدوام أن يصبح الكون فى نظر الانسان صفرا من العجائب وشتيتا متشابها من المألوفات والمتكررات

ولولا ضيق نظر يساور عقل المؤلف أحيانا كلما نظر الى عقيدة غير عقيدته لكان تفكيره فى هذه الامور مطابقا لتفكير المتدين فى كل دين

والكاتب الكاثوليكي جيوفاني بابيني يؤلف الكتاب عن الشيطان ويريد أن يطبق فضيلة السماحة على هذا العدو المبين فى جملة الاعداء الذين تشملهم رحمة الله ، ويرى أن الله لا يرضيه دوام الشر ولا دوام السقوط على كائن من الكائنات العاقلة ، فلا بد فى نهاية التجربة الكونية من حياة لا شر فيها ولا شيطان . وزوال الشيطان انما يكون بزوال شره وارتداده عنه الى الخير والصلاح

ورأيه هذا مخالف لآراء الاكثرين من أقطاب المذهب ، ولكنه لم يبلغ من المخالفة أن يعرضه للطرد والحرمان ، فان آراءه الاخرى فى الكتاب تحسب له اذا حسب هذا الرأى عليه ، وفيها شرح للعقائد الدينية وتقبيح للمنازع الشيطانية يحمده له المعتقدون ويقنعون به من الكاتب فى زمن يقل فيه أمثاله من الكتاب العالميين الذين يعلنون عقائدهم فى غير مبالاة بسخرية المنكرين والملحدين

تلك زبدة مفيدة لما يسمى (بالديمنولوجى) «**Demonology**» أو مباحث الباحثين عن الشيطان فى العقيدة الدينية وفى التعبيرات المجازية فى القرن العشرين

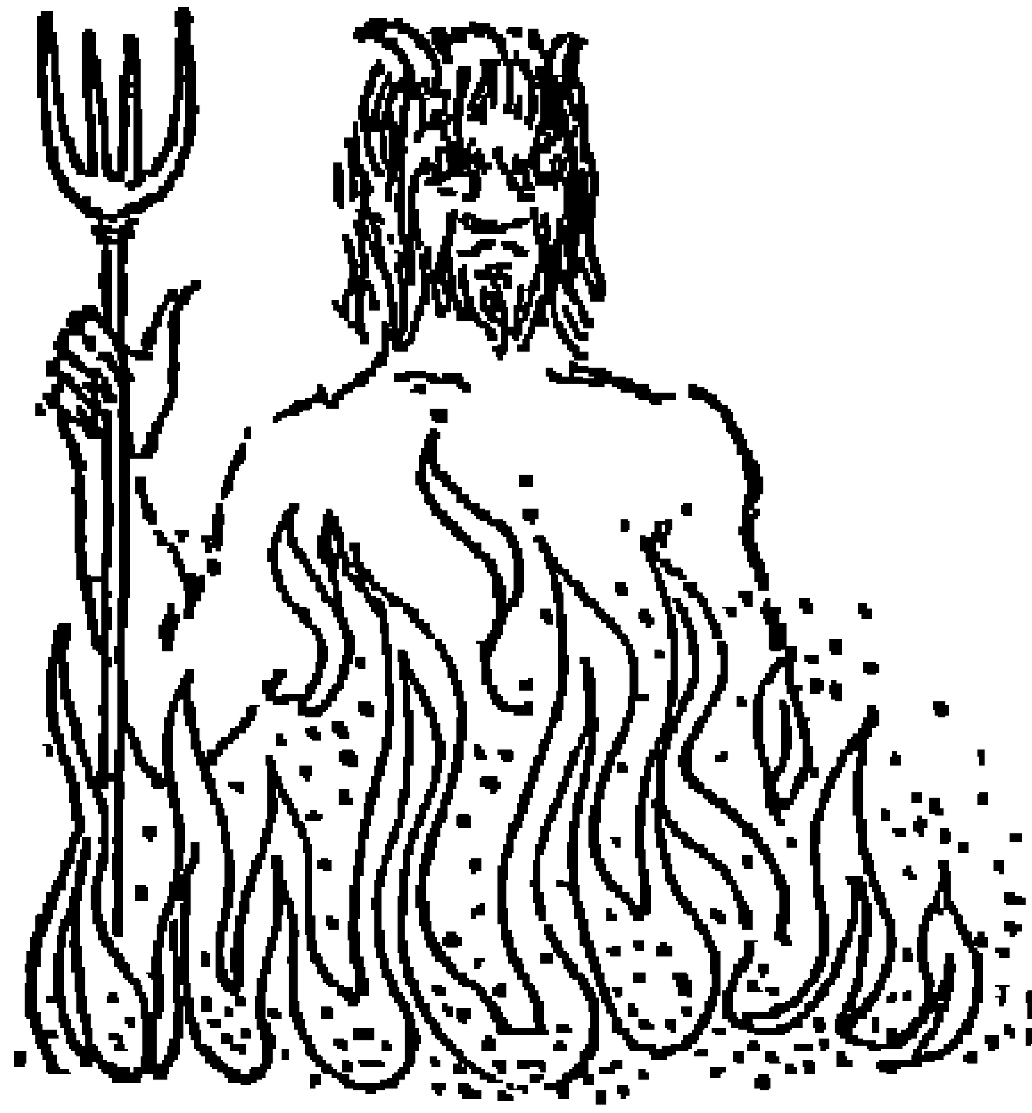
فالمتدينون يؤمنون بوجود الشخصية الشيطانية فعلا ويحصرونها فى أضيق حدودها ولا يبوئونها من السلطان على النفس البشرية تلك المنزلة التى كانت لها فى عقائد الاولين ..

والمعبرون المجازيون فريقان : فريق يلغى الشخصية الشيطانية البتة ، ويحل محلها عوامل الوعى الباطن التى يسميها الغريزة أو الكبت أو العقد النفسية أو علل الشخصية السقيمة وما شاكل هذه الاسماء .. وهذا الفريق مسبوق الى رأيه فى جملته دون تفصيله ، فقد

ذهبت هذا المذهب فئة من المعتزلة ترى أن الشيطان هو وساوس النفس ودوافع الشهوة والطمع والغضب والخديعة ، وتستند فى رأيها الى قول النبى عليه السلام أن الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم فى العروق ، وليس هذا التأويل عند جمهرة المحدثين بالتأويل المقبول

والفريق الآخر على رأى هكسلى الذى تقدم ذكره ، يرى أن العقل والعلم لا يمنعان وجود الشيطان كما جاء فى الفصل السابع من كتابه عن شياطين لودن حيث يقول . « هل توجد الشياطين ؟ وان كانت توجد فهل كانت حاضرة فى جسد الاخت جين وزميلاتها الراهبات ؟ فأما المس الشيطانى فلست أرى فى القول به سخفا أصيلا ، ولا أجد شيئا من التناقض فى فكرة ترى امكان وجود الارواح غير الانسانية طيبها وخبيثها أو لا طيبة ولا خبث فيها ، وليس ثمة ما يضطرنا الى القول بأن الملكة الفاهمة ممتنعة فيما عدا أجسام الانسان والحيوان ، واذا قبلنا الشواهد على الكشف والنظر البعيد ـ وهى شواهد يكاد القول برفضها أن يتعذر علينا ـ فلا بد من الايمان بعوامل مفكرة مستقلة على الاغلب الاعم عن المكان والزمان والمادة

وهذه هى زبدة « الديمنولوجى » فى صفحتها الاخيرة من آراء المتدينين والمفكرين فى القرن العشرين



خاتمة

تمت فى هذه الصفحات رسالة موجزة فى موضوع من موضوعات المقارنة بين الاديان والعقائد يدور حول تصوير « قوة الشر » من عهد القبائل البدائية الى منتصف القرن العشرين ..

والمقارنة بين الاديان والعقائد علم حديث من علوم القرن التاسع عشر ، بدأ البحث فيه قبيل ختامه ، وانتصف القرن العشرون ولا تزال الكشوف الاخيرة فيه تتوالى وينسخ بعضها بعضا أو يشير بانتظار النهاية بعد خطوات لم تبرح أوائل الطريق ، وكلما تعجل الباحث الفراغ من دور الجمع والتبويب والنتائج المعلقة على البقية المنتظرة بادرته الكشوف الحديثة بما ينقض حكمه أو يضطره الى تعديله على ترقب وتؤدة واستعداد ..

ونحن نختتم هذه الرسالة ، والاجزاء الاخيرة من موسوعة أرنولدتوينبى «**Arnold Toynbee**» تصدرها المطبعة من المجلد السابع الى المجلد العاشر ، وفى نهاية الجزء السابع منها تعقيب على الظاهرة الغامضة التى كشفت عن التشابه القريب بين عقائد القبائل البدائية فى القارات الخمس وانقسام المفسرين لهذه الظاهرة الى فريقين : فريق يرى

أن الانسان تلقى الهاما بالوحدانية قبل التاريخ وقبل افتراق الاجناس والقارات ، وفريق يرى أن الطبيعة الانسانية تتقارب في وحي البديهة وتستلهم شعوراً واحداً بما وراء المادة المشهودة ، وسيمضي زمن طويل قبل أن تتحد النتائج بين الفريقين ، لأن الأرض واسعة والقبائل البدائية مبعثرة على أرجائها ، ومسائل العقيدة عندها من أسرارها التي تخفيها ، وما تجلوه منها اضطرارا أواختيارا يتيه فيه الباحثون بين غرابة اللغة وغرابة الرموز

فمن الغرارة البالغة أن يقول قائل عن موضوع من موضوعات المقارنة بين الاديان أنه شيء عتيق مضى أوانه ، على حين اتفاق الاقوال بين علماء المقارنة وقرائها على ابتدائها في خطواتها الاولى وانتهائها فيما انتهت اليه الى نتائج معلقة بين الترجيح والتردد والانتظار

ولا نخال أن السريرة الانسانية تكشف عن أعماقهابعلم من العلوم كهذا العلم وعلم الدراسات النفسية ، وهو كذلك في خطواته الاولى أو على أبواب النتائج التي لا تفتح الا بين التردد والانتظار ..

لكن الفائدة المبكرة التي خلصت للعقل الانساني من بواكير البحث في العلمين أن مقاييس الحقائق تختلف وتتعدد ، وأن الحقائق كلها لا تقاس بأرقام الحساب وأنابيق المعامل وتجارب الطبيعيين ومناظير الفلكيين ..

فها هنا حشد من العقائد والاخيلة تمتلىء به سيرة النوع الانساني في نحو مائة قرن يدركها التاريخ

ما هي في أرقام الحساب ، أو أنابيق المعامل ، أو تجارب الطبيعة ، أو مناظير الفلكيين ؟ ..

سهل على أدعياء العلم أن يصرفوها بكلمتين : حديث خرافة !

وحديث الخرافة يجب أن يلغى ، فتعالوا نلغه ونعهد بادعياء العلم جميعا أن يبدأوا بالنوع الانسانى فى تعلم الخير والشر والقداسة واللعنة على برنامج غير هـــذا البرنامج وتربية غير هذه التربية

وليتسلم أدعياء العلم هذا النوع الانســانى قبل مائة قرن ، وليأخذوا فى تعليمه الابجدية من هذه الدروس

ولنفرض أولا فرضا مستحيلا وهو أنهم سيكونون قبل مائة قرن على معرفة بما يسمونه دراسة منطقية أو علمية

وليبدأ النوع الانسانى فى هذه المدرسة بفلسفات الاخلاق على مذاهبها وفروضها واحتمالاتها وردودها ومناقشاتها

وليحفظ فلسفات الاكاديمية كلها ويتخرج عليها

ولقد حفظها ولقد تخرج منها بما شاء له أدعياء العلم من آراء ..

ولقد وصلنا بعد الرحلة الطويلة الى القرن العشرين ، فماذا نقول ؟

نقول ان هذا فى الحق هو حديث الخرافة الذى لا يعدو الالفاظ والعناوين وأسماء المدارس والمريدين

لكن النوع الانسانى ترك هـــذه الاكاديمية قبل مائة قرن وأمعن فى طريقه الذى هداه اليه القدر ، وأعدته له الفطرة ..

ونتيجة هذا الطريق أنه أعطى الحياة النابضة لـكل خلق من أخلاق الخير والشر والقداسة واللعنة ، وأن أعلم العلماء اليوم لا يســتطيع أن يقيم من الفوارق الحيــة المحسوسة بين خلق وخلق فارقا واحدا فالفارق الذى نفهمه ونحسه ونحياه حين نتكلم عن الخلائق الالهيـــة والخلائق الملكية والخلائق الشيطانية أو عما يجملها من الخلائق السماوية والخلائق الارضية والخلائق الجهنمية

ان العلماء الذين يستعيرون تعبيراتهم المجازية من هذه الفوارق لا يفعلون ذلك لعبا بالالفاظ أو تظرفا بالتمثيل والتشبيه ، ولكنهم يستعيرون ذلك التعبير لانـــــه أدل وأوضح وأقوى من كل تعبير يستعيرونه من المدرسةالنفعية والمدرسة السلوكية والمدرسة الانفعالية ومـدارس روح الجماعة وتضامن الهيئات والبيئات ، وما اليها من ألفاظ ناصلة ومعان حائلة وأسماء لم تخلق من مسمياتها شيئا وهيهات أن تخلقه ولو تسمت بها مئات القرون وغاية ما تبلغه أنها تأتى الى محصول القرون بعد زرعه ونمائـــه واستوائه وحصده ، فتكتب العناوين على غلاته وبيادره ولا تأمن بعد ذلك أن تضل بين تلك العناوين التى كتبتها بيديها ! ..

فهذه الحقائق الوجدانية والقيم الروحية لا تقـــاس بمقياس الارقام وأنابيق المعامل ، ومن أراد أن يقيسها بهذا المقياس فهو الذى سيخطيء لا محالة ، كما يخطيء كل واضع لأمر من الامور فى غير موضعه ، وكل من يقيس شيئا وهو يجهل كيف يقاس

على أننا قد نفقه تعدد المقاييس وتعدد القيم دون أن نضطر الى التوسع فى هذا الموضوع الشاسع العسير ، موضوع المقارنة بين الاديان

فالغريزة فى كل رجل وامرأة وفى كل ذكر وأنثى من الحيوان تسفه كل من يعتسف طرق البحث ويسبر أغوار الطباع بغير مسبارها

وهذا حنان الآباء والامهات لغو وباطل بكل شهادة من شهادات الحس والعقل وتجارب المعامل وأرقام الحساب ، لان حنان الاباء والامهات يقول لهم أن طفلهم دون غـــيره يساوى كل من عداه ويفوقهم فى حق البقـــاء ويجب أن يزولوا جميعا اذا وجب أن يزولوا من الدنيا أو يزول هو منها

وليضرب صاحب القياس الحسابى على هذا الحنان بالخط الاحمر ليخرجه من حيز الحقائق ، ولينظر بعد ذلك أين الحق وأين الباطل بين الرأى فى رأسه وبين الحنان فى صدر كل والد ووالدة ، من الانسان والحيوان

أصواب هذا الحنان أو خطأ ؟

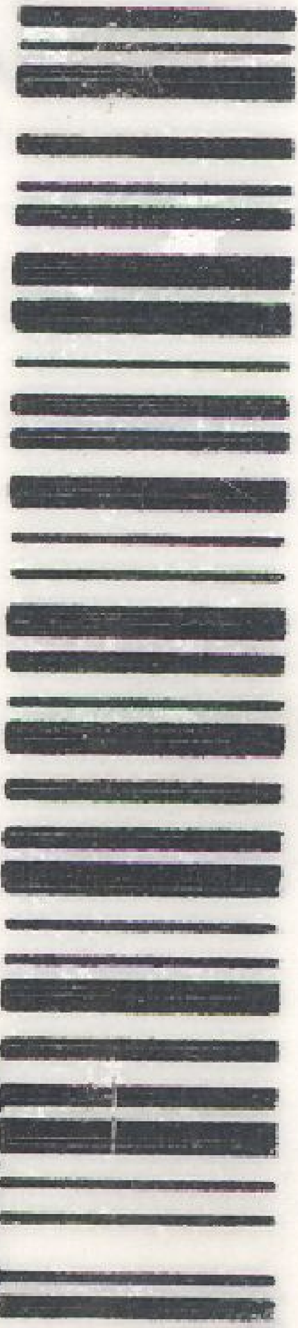
أحق ذلك الدين أو باطل ؟

انما الخطأ أو الباطل هو الذى نسقطه ونلغيه ، فها هنا خطأ واحد وباطل واحد ، وهما الخطأ والباطل فى مقياس صاحب الحساب وصاحب الانبيق

وندع الغرائز المحجبة ونقترب من المحسوسات الواضحة المفتوحة للسمع والبصر ، فنفرض أن مخلوقا يرى الاشياء كما تكون فى جو الاثير على بعد من الارض والجاذبية الارضية ، وتتحدث أمامه عن اللون الاحمر واللون الاخضر وعن العناصر الثقيلة والعناصر الخفيفة وعن المقاطع والكلمات والاصداء والنغمات ، فماذا عليه لو صاح بنا : على رسلكم يا هؤلاء اللاغطين . ان ما تهذرون به لحديث خرافة وأضغاث أحلام

انه لا يكون قد خرج بذلك على سنة العلم وادعيائه ، واننا مع هذا لم نبتعد من المحسوسات التى يحيط بها العيان وتسمعها الآذان ، فاذا كانت الطبيعة الانسانية لا تدرك هذه المحسوسات الا بهذه الالوان والاشكال فكيف نطلب من الاديان أن تخاطب الطبيعة الانسانية بأسلوب غير أسلوبها وهى تتحدث عن الغيوب الخفية وعما وراء المادة ووراء الزمان والمكان

من رام أن يعيب القيم الوجدانية التى دان بها الانسان منذ جهالته الاولى فهو – لا ريب – واجد فيها كثيرا مما يعاب ويفرط فى المعابة . لكن السؤال الفصل هنا لا يكون :


Bibliotheca Alexandrina
0606514
